

صفحة مشرقة من تاريخ العلم  
عُلماء أغنياء آثروا العلم على الملذّات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صفحة مشرقة من تاريخ العلم

عُلَمَاءُ أَغْنِيَاءُ

آثَرُوا الْعِلْمَ عَلَى الْمِلْدَاتِ

تأليف

أحمد الجوهري عبد الجواد

صفحة مشرقة من تاريخ العلم  
عُلماء أغنياء آثروا العلم على الملذات  
المؤلف / أحمد الجوهرى عبد الجواد  
جميع الحقوق محفوظة

دار المازري  
للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني : Dar. maziri@gmail. com

الهاتف : 0021625953466

0021671253524

العنوان : 1 نهج الحبيب ثامر - رادس  
12 نهج السبخة - باب الجزيرة

الجمهورية التونسية

الصندوق البريدي : 2040

عدد الصفحات : 408

قياس الكتاب : 14×21 سم

الرقم الدولي : 978-9938-908-88-4

الطبعة الأولى : 1438 هـ - 2017



## هَذَا الْكِتَابُ

الفقر قرينُ العلم، هكذا قيل، وقيل -أيضًا-: لا يبلغ أحدٌ من العلم منزلةً إلَّا بعد أن يضرَّ به الفقر، حتى لكأنَّها إذا قال العلمُ: إِنِّي ذاهبٌ إلى فلان، قال له الفقر: خذني إليه معك!

والواقع يؤكد ذلك ويقرِّره؛ إذ الأعم الأغلب في أهل العلم وطلابه أنهم فقراء، وقد زحرت كتب التراجم والتاريخ والأدب بأقوال العلماء في العلاقة بين الفقر والعلم، فهذا قائل منهم يقول:

قلت للفقر أين أنت مقيم

قال لي في عمائم الفقهاء

إن بيني وبينهم لإخاء

وعزيز علي ترك الإخاء

وآخر يشير إلى التلازم بين الفقه والفقر، حتى ليجعل لفظ الفقه هو لفظ الفقر بعينه، لكن راء الفقر استدارت فصارت هاءً، وصار الناس ينطقونها (الفقه)، بدل (الفقر)، يقول:

إن الفقيه هو الفقير وإنما

راء الفقير تجمعت أطرافها



وقد عقد العلامة ابن خلدون بابًا كبيرًا في مقدمته، تحدث فيه عن طرق تحصيل المعاش ووجوه الكسب والصنائع، وما يكون منها له المورد العظيم والثروة الكبيرة، وما لا يكون منه ذلك، ثم عقد في ذلك الباب فصلًا خاصًا بين فيه سبب قلة المال في أيدي العلماء، عنوانه بقوله: الفصل السابع في أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب<sup>(1)</sup>.

هكذا، كأنما صار الفقر لأهل العلم شعارًا ودثارًا، وصار القرآن بين الفقر والعلم قاعدة!

فلا ريب أنّ لكل قاعدة استثناء، والاستثناء هنا أراه كبيرًا، فكم من شخص عظيم الثراء، واسع الغنى، رفيع المنصب قد نبغ في العلم وبرع فيه، حتى صار إمامًا من الأئمة، وربما أصبح مجتهد عصره ومجدّد زمانه!

وبين يديك -أخي القارئ- سيرةٌ ثلّة كريمة من نوابغ العلماء، جميعهم أفراد في هذا الاستثناء؛ إذ إنهم جمعوا بين العلم والثروة الهائلة، فلم تصرفهم أبهة المنصب وبحبوحة العيش عن طلب العلم والنبوغ فيه، بل إنهم آثروا العلم على سائر الملذات.

---

(1) مقدمة ابن خلدون (ص 429).



وقد جمعت لك شيئاً من أخبارهم هو كالدليل لما وراءه، فهم  
مخبرون عمن سواهم، وجميع ذلك برهان يقرر ويؤكد على أنّ لهذا  
الباب -باب العلم- لذة يرومها كلّ عاقل، وفيه جاذبية تأسر كلّ  
لييب!

وقد وقفت مع بعض الفوائد والعبر الواردة في هذه السير  
فاستجليت منها ما تقرّ به عين كلّ كريم، ولن أتعجل فأفشي لك ما  
استودعتُ هذا الكتاب من كنوز، لكنّي أعدك أنك ستري فيه  
عجباً، حتى لتوقن أنّك ما قرأت الذي قرأته منها قبل هذا، فضلاً  
عما لم تسمع به في حياتك!

فدونك؛ التذّ بجميل أخبارهم، وعش ساعة في ظل أمجادهم،  
واقبس شذراً من هديهم.

أحمد الجوهري





تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## إهداء

إلى ... والديّ الكريمين... أطال الله عمرهما في  
أحسن العمل وأخلصه .

وزوجتي الوفيّة أم حفصة... جمعنا الله في الدنيا  
والآخرة على المودة والرحمة.

وبناتي حفصة وريحانة وخديجة... أنبتهنّ الله نباتاً  
حسناً وكفلهنّ المعلّمات القانتات.



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## مَقْدِمَةٌ

ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، أولئك الذين حباهم الله الثروة، فعرفوا فضل الله عليهم تجاهها، فاتقوا فيها ربَّهم، وأدَّوا إلى إخوانهم منها حقَّهم، إلى جانب ما يؤدون من فرائض الله وسنن رسول الله ﷺ، فساووا غيرهم من المسلمين في أجر هذه وانفردوا عنهم بأجور تلك!

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء!

وأولئك الأغنياء الشاكرون -أيضًا- ليسوا سواء، بل فضل الله بعضهم على بعض:

فمنهم من وقف جزءًا من ماله على رعاية يتييم أو مسكين، ومنهم من بنى مسجدًا، أو أجرى نهرًا، أو حَفَرَ بئرًا، أو غرس نخلاً، وهكذا كلُّ فيما هيَّاه الله له من أبواب البر والخير والإحسان العديدة.

ومنهم من ارتفع فوق هذا درجات؛ إذ راح يضرب بسهم مع كلِّ أصحاب غاية من هذه الغايات، وينضم إلى الرفقة تحت كل راية من هذه الرايات.

ومنهم من لم يقنع بهذا كله وقد فعله؛ إذ سمت عزيمته وعلت



همته إلى ما هو فوقه، فتطَّلَع إلى أن يكون حادي ركب الأغنياء ومقدمهم إلى كلِّ هدى وخير، فراح لأجل ذلك يشني ركبه بين يدي العلماء ويحدِّ في الطلب عندهم؛ ليحصل أعظم منزلة بعد منزلة النبوة، وأفضل درجة بعد درجة الرسالة؛ ليكون وريث الأنبياء والرسل وحامل مشعل الهداية من بعدهم، يقود سفينة العالم الخائرة في خضم المحيط إلى شاطئ النجاة لملكوت رب العالمين، وهو يردد مع سيد الرسل الكرام: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ»<sup>(1)</sup>.

وكيف لا ؟

أليس العلم هو النور الذي يبصر الناس بدينهم، ويعرفهم بربهم، ويهديهم إلى صلاح دنياهم وآخرتهم؟ فقد راموا أن يكونوا من حملته!  
يا حادي الركب في درب العلا شرفت

بك المعالي ودرب الدين متصل

وأولئك هم سادة الأغنياء، وأولو العزم فيهم.

---

(1) أخرجه الترمذي (2682)، وأبو داود (3641)، وصححه الألباني فيه (1079/2).



مِنْ ثَمَّ كَانَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ الْمَنَازِلِ، وَأَعْظَمُ الْأَجُورِ، أَلَمْ تَرَ إِلَى مَا رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْثَارِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النَّبِيِّ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ يَنْتَهِي، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ...» (1).

إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ؛ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْمَالَ، وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْعِلْمَ، أَوْ يَجْمَعُهُمَا - لِمَنْ شَاءَ - مَعًا، وَسَبْحَانَ الْعَاطِي! مَالِكَ الْمُلْكِ إِذَا وَهَبَ!

فَأَيُّمَا عَبْدٍ رَزَقَ الْعِلْمَ وَالْمَالَ كَانَتْ تِلْكَ إِرَادَةُ خَيْرٍ مِنَ اللَّهِ بِهِ، فَحُرِيٌّ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهِمَا؛ لِيَنَالَ بِهِمَا أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ!

وَهَذِهِ الْحَالُ هِيَ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْغَبْطَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» (2).

إِنَّ مَنْ اقْتَرَنَ مَالَهُ بِعِلْمٍ هُوَ السَّعِيدُ؛ لِأَنَّهُ سَيَعْمَلُ فِي مَالِهِ بِعِلْمِهِ، وَجَدِيرٌ بِهَذَا أَنْ يَتَبَوَّأَ فِي الدُّنْيَا ثَمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرْفَعَ الْمَنَازِلِ!

(1) أخرجه أحمد (4/ 231) برقم (18194) والترمذي (2325)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3024).

(2) متفق عليه؛ أخرجه البخاري (73)، ومسلم (1865).



## وبعد، عزيزي القارئ!

هذه صفحات ضمّت أخبار ثلّة كريمة من ذلك الصنف المجتبي، الذين جمع الله لهم المال والعلم معًا، فكانوا بالمال من الأغنياء؛ ملوكًا، ووزراء، وذوي ثروة هائلة وأموال طائلة، وكانوا بالعلم من العلماء؛ محدّثين، ومفسرين، وفقهاء، ومفكرين!

لقد تبوأوا أرفع المناصب وأسمى المنازل، فلم تصرفهم أبهةُ الملك وفخخةُ الدولة، ولا بحبوحَةُ العيش ورغدُ النعيم عن خدمة العلم والدين، بل استفادوا من هذه المناصب والنعم؛ لتحقيق الهدف الأسمى والغاية الرفيعة، ولئن ارتاح بالهم من كدّ العيش والسعي وراء الرزق بسبب المنصب والمال، فإنهم ما لبثوا أن وظّفوا هذا كلّهُ في التفرّغ للعلم وتحصيله، والتأليف فيه والتصنيف.

وقد كنت - حين شرعت أصنّف هذا الكتاب - أحسب أنني أحصي كلّ من كانت صفته كذلك؛ لقلّة بهم أو ندرة ظننتها في البداية، فلمّا أخذت في القراءة والاطلاع رأيتهم كثرةً كثرة، لا تسعهم خطّة هذا المصنّف، ولا ضِعْفُهُ، حتى إنّي اكتفيت بمن دونهم هنا كنموذج لمن وراءهم.

والحمد لله على فضله.





الليث بن سعد

حاكم مصر

وشيخ الإسلام





## الليث بن سعد حاكم مصر وشيخ الإسلام

لا تسعفنا كتب السير والتراجم بكثير من أخبار هذا الإمام وحياته، ولو طالت سيرته وكثرت أخباره لبقى قارئها في شوق لمزيد منها؛ ففي كلِّ خبر منها لذة لا تنقضي ومتعة لا تنتهي، وفيها فوائد كبيرة وعبر كثيرة؛ بيد أنَّ هذه الأخبار قليلة وهذه السيرة قصيرة؟

وكيف لا تلتذ النفس وتستمتع الروح وهي تقرأ أخبار رجل عظيم من كبار أتباع التابعين، حوت شخصيته شمائل وفضائل لا تجتمع إلا في جمع كبير من العظماء؟

لقد كان إمامنا الذي نتحدث عنه في هذه السطور فقيه مصر -يفوق في فقهه فقه الإمام مالك-، وكان مفتيها الأعظم الذي ترأس الفتوى في زمانه<sup>(1)</sup>، ومحدثها الأكبر الذي تعد مروياته أعلى روايات الحديث النبوي إسنادًا في عصره<sup>(2)</sup>، وهو -إلى جانب

(1) السير (8/ 161).

(2) السير (8/ 159).



ذلك كله - محتشم مصر ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم  
كله<sup>(1)</sup>.

ولقد عجبت حين قرأت أنّ حاكم مصر وقاضيه وناظرها  
جميعهم كانوا تحت أوامره؛ يرجعون إلى رأيه ومشورته، ولا  
يقضون أمراً في شئون مصر جميعها حتى يراجعوه<sup>(2)</sup>، فإن رأى هو  
من أحدهم مخالفة وعظه وأمهلته لإزالتها، وإلا كتب إمامنا بشأنه  
إلى الخليفة، فسارع الخليفة إلى عزل ذلك المخالف عن منصبه  
وتعيين آخر يرضاه إمامنا مكانه.

وإمامنا الذي نتكلم عنه في هذه السطور هو شيخ الإسلام  
«الليث بن سعد» الذي عرض عليه «أبو جعفر المنصور» أن يلي  
حكم مصر، لكنه اعتذر عن قبول ذلك.

ولندعه يحك لنا ما كان بينه وبين أبي جعفر في ذلك يقول: قال  
لي أبو جعفر: تلي لي إمرة مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين، إني  
أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي، فقال أبو جعفر: ما بك  
ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك في العمل لي<sup>(3)</sup>.

---

(1) السير (8/ 137).

(2) النجوم الزاهرة (2/ 82).

(3) السير (8/ 143).



ومع قول أبي جعفر بهذا، وسكوت الليث عن جوابه وهو إقرار له، فقد مضى الليث، وأما أبو جعفر فلم يعقب إلا بالثناء والدعاء فقال له: «قد سرتني ما رأيت من سداد عقلك، فأبقى الله في الرعية أمثالك»، وكان شعيب ابنه الذي نقل هذا الكلام عنه يقول: كان أبي يقول: لا تخبروا بهذا ما دمت حيًّا<sup>(1)</sup>.

لكن الليث وإن لم يقبل بحكم مصر، إلا أنه كان حاكمها الفعليّ والمسير لشئونها، فأبي رجل كان الليث؟



كان «أبو الحارث الليث بن سعد» من الموالي، ولم يكن من العرب، لكنّ علمه سوّده ورفع مكانته فوق جميع أهل مصر، هكذا العلم يرفع الله به أقوامًا ويضع بعدهم آخرين، وصدق من قال:  
العلم يرفع بيتًا لا عماد له

والجهل يهدم بيت العز والكرم

ولله درّ القائل:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا

وليس أخو علم كمن هو جاهل

(1) تاريخ بغداد (10 / 13).



وإنَّ كبير القوم لا علم عنده

صغير إذا التفت عليه الجحافل

وإنَّ صغير القوم إن كان عالمًا

كبير إذا ردَّت إليه المحافل



ولد «الليث» في قلقشندة - إحدى قرى مركز طوخ التابعة لمحافظة القليوبية بمصر - في شعبان سنة (94)، لأسرة من الفرس من أصبهان، فكان الليث يقول: أصلنا من أصبهان، فاستوصوا بهم خيرًا<sup>(1)</sup>.

تلقَّى «الليث» العلم على أيدي التابعين في مصر، ثم رحل في العشرين من عمره إلى مكة للحج سنة (113)، فسمع من علماء الحجاز<sup>(2)</sup>.

ثم عاد إلى مصر وقد علا ذكره، وجلس للفتيا حتى استقل بالفتوى في زمانه، وعظَّمه أهل مصر وهو يومئذ حدث السنّ، قال

---

(1) السير (8/145)، ولوالد الليث ذكر في تاريخ أصبهان، أو أخبار أصبهان (1/389) أبو نعيم.

(2) تاريخ دمشق (50/351).



يحيى بن بكير: حدثنا شرحبيل بن جميل قال: أدركت الناس أيام هشام الخليفة، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبيد الله بن أبي جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد بن أبي حبيب، وابن هبيرة، -وهؤلاء يومئذ رءوس العلماء-، وإنهم يعرفون لليث فضله، وورعه، وحسن إسلامه عن حداثة سنه، ثم قال ابن بكير: لم أر مثل الليث<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت هذه حاله فلا نعجب أن نرى الوليد بن رفاعه -والي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك على مصر- وقد حضرته الوفاة سنة (117هـ)، فأراد أن يوصي فإذا به سند وصيته لابن عمه عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي، وإلى الليث بن سعد، وليس لليث يومئذ من العمر إلا أربع وعشرين سنة!

ومن عجب أمر الليث -وكل أخباره معجبة!- أنه ظل يرحل في طلب العلم ويعاني ويلات السفر ومشقاته طوال حياته لتحصيل الزيادة منه متمثلاً قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

لم يكتف الليث بن سعد بالعلم الذي حصّله والأحاديث التي

(1) السير (8/ 146).



جمعها وحفظها في مصر والمدينة، بل كان الترحال دأبه، يساعده  
ثراؤه الواسع على بلوغ مرامه وإشباع نهمه... حتى مع كبر سنّه  
وعلوّ منزلته، وكثرة ما جمعه!

إنّ ذلك كله لم يمنعه أن يطلب الزيادة في العلم من الآفاق،  
وهذه سفره جديدة تسجلها له كتب التراجم، ولم تكن هذه المرة إلى  
المدينة أو أي من بلاد الحجاز، لكن إلى العراق، ولم تكن رحلة  
كباقي رحلاته السالفة؛ إذ إنّ المتأمل في تاريخها وقد مضى إليها في  
سنة (161) يدرك على الفور أنّ عمر الليث وقتها كان (67) سنة!  
وهذه لعمر الله همة عظيمة في النهم بالعلم والرغبة في طلبه  
وحبّ الرحلة في سبيل تحصيله، كما أنها تنم عن تواضع جم فلم  
تمنعه مكانته ومنزلته وسنّه أن يستزيد من طلب العلم!

**يقول كاتبه أبو صالح:** خرجت مع الليث إلى العراق سنة  
إحدى وستين ومائة، خرجنا في شعبان، وشهدنا الأضحى ببغداد،  
قال: وقال لي الليث -ونحن ببغداد-: سل عن منزل هشيم  
الواسطي، فقل له: أخوك ليث المصري يقرئك السلام، ويسألك  
أن تبعث إليه شيئاً من كتبك، فلقيت هشيمًا، فدفع إلي شيئًا، فكتبنا



منه، وسمعتها مع الليث<sup>(1)</sup>.

لقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شغوفاً بطلب العلم، مولعاً بأهله، محباً للترحال في سبيله مهما كلفه ذلك من مال أو عناء.

مع أن مقامه وحاله يغنيانه عن ذلك كثيراً، وفيهما المقنع لو أراد. ولنستمع إلى يعقوب بن داود -وزير المهدي- وهو يحكي لنا ما قاله المهدي بشأن الليث لما سمع منه وخبر ما عنده في هذه السفارة، يقول يعقوب: قال أمير المؤمنين -لما قدم الليث العراق-: الزم هذا الشيخ؛ فقد ثبت عندي أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه<sup>(2)</sup>.

الله! لقد كان أهل الأرض من المسلمين جميعاً يعرفون فضل علم الليث، وينزلونه مكانته، حتى إن الخليفة ليقول عنه هذا! لكن الليث رَحِمَهُ اللَّهُ كان وهو أستاذ يدرس العلم، يجب أن يكون تلميذاً يتلقى عن العلماء!

ولهذا السبب كثر أساتذة الليث، وتنوعوا، ولك أن تعلم أن فيهم (50) شيخاً من التابعين، و(150) من تابعي التابعين، هؤلاء

(1) السير (8/ 145).

(2) تاريخ بغداد (5/ 13).



جميعاً أدركهم الليث، فجمع علمهم كله، حتى قال ابن حجر العسقلاني في «الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية»: «إن علم التابعين في مصر تناهى إلى الليث بن سعد»<sup>(1)</sup>.

وكذا قد التفّ حوله الكثير من طلاب العلم.



كان الليث بن سعد عظيم العلم، محيطاً بدلائله، قويّ الحجة فيه، يقول ابن بكير: قال عبد العزيز بن محمد: رأيت الليث عند ربعة يناظرهم في المسائل، وقد فرفر أهل الحلقة<sup>(2)</sup>.

**فلا غرو أن قال العلماء:** لم ير مثل الليث<sup>(3)</sup>، ولم يدركوا مثل الليث، بل قالوا أعظم من ذلك:

**قال ابن بكير:** كان الليث فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة، فما زال يذكر خصلاً جميلة، ويعقد بيده، حتى عقد عشرة: لم أر مثله<sup>(4)</sup>.

(1) الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية (ص 4)، ط. المطبعة الأميرية بمصر.

(2) تاريخ دمشق (50 / 355).

(3) السير (8 / 146).

(4) تاريخ بغداد (13 / 6)، والوفيات (4 / 130).



وكان الليث على صلة عظيمة بالإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وتلقَى مالك عنه وروى، وفي كتبه الكثير من حديثه، وكان يروي عنه بطريقة فيها ثناء وتزكية، يقول «ابن وهب» -وهو الخبير بمالك-: «كل ما كان في كتب مالك: وأخبرني من أَرْضَى من أهل العلم، فهو الليث بن سعد»<sup>(1)</sup>.

**يقول ابن وهب:** لولا مالك والليث هلكت، كنت أظن كل ما جاء عن النبي ﷺ يُعْمَلُ بِهِ!<sup>(2)</sup>.

**بل كان يقول:** لولا مالك والليث لضل الناس<sup>(3)</sup>.

نعم فقد أكرم الله تعالى أهل مصر بالليث بن سعد فأحياهم به وردّهم من بعد رفضهم إلى السنّة والهدى فقد كان أهل مصر يتقصّون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث، فحدثهم بفضائله، فكفّوا<sup>(4)</sup>.

**قلت:** ربّ رجلٍ أحيّا الله به أمة؛ وقف موقفاً يحبّه الله، أو ربّي صغيراً فشاء الله أن يكون حين بلغ من أولي الأمر، أو أقام على دعوة يبلغها حتى وصل بها مبتغاه .. إلخ.

**والأمثلة على ذلك كثيرة:** قال عثمان بن صالح -في الخبر

(1) تاريخ بغداد (7 / 13).

(2) السير (8 / 148).

(3) تاريخ بغداد (7 / 13).

(4) تاريخ بغداد (7 / 13).



الماضي نفسه:- «وكان أهل حمص ينتقصون علياً، حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدثهم بفضائل علي، فكفّوا عن ذلك».

هكذا كان الليث رجلاً بأمة، يتمثل أهل مصر كلّهم فيه!

وقد كان الليث -إمام أهل مصر في زمانه- صاحب مذهب فقهيّ له أتباع كثر؛ يضارع مذاهب الأئمة الأربعة المشهورين، أو يفوق ذلك، فالعلماء متفقون على أن الليث كان يفوق في علمه وفقهه مالكا بن أنس، غير أن تلامذة الليث لم يقوموا بتدوين علمه وفقهه ونشره في الآفاق، مثلما فعل تلامذة مالك، فاندثر مذهب الليث وضاع!

لقد علت منزلة الليث في الفقه حتى استقل بالفتوى في زمانه!<sup>(1)</sup>  
ولما جاء الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ إلى مصر يطلب علم الليث عند تلامذته، لمس آثاره وخبر فقهه، فكان يقول عن فقهه قوله المشهورين؛ قوله: «الليث بن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس»<sup>(2)</sup>، وقوله: «الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»<sup>(3)</sup>.



(1) تاريخ دمشق (50/ 345، وما بعدها).

(2) السير (8/ 156).

(3) طبقات ابن سعد (7/ 517).



ولعلنا نقف عند هذه المسألة متنبِّهين ومنبهين؛ متنبِّهين إلى أن ليس كلّ الذي غاب واندثر يقال فيه: «لو كان خيراً لبقِيَ»، أو: «لو صحّت نية صاحبه لدام»!

فربّ خير لم يصلنا لذنوبنا، وربّ نافع مخلص فيه لسنا أهلاً له فحرمناه، وثواب صاحبه عند الله موفور!

ومنبِّهين على دور الطلاب في الحفاظ على علم شيخهم؛ إن واجب الطلاب عظيم في نقل علوم شيخهم إلى الأجيال، وذلك من جملة برّهم به، جزاء لما طوّق رقابهم من جميله بعلمه.

أما أن يضيع الطلبة ذكر شيخهم وعلمه! فإنه والله لعقوق، وهو عقوق قديم حديث، يتجدد بتجدد العاقين من الطلاب لشيخوخهم، فهذا الليث ضاع فقّهه، وهذا بقي ابن مخلد ضاع مسنده، وهذا ابن حزم ضاع كتابه المجلى، وأئمة كثر ضاعت بعض كتبهم، وربما جميعها، وفي العصر الحديث أساتذة وشيوخ أحياء وأموات ضاع علمهم أو هو يضيع، لأن تلامذتهم لم يقوموا بهم، ومن هؤلاء الشيوخ:

الشيخ تقي الدين الهلالي، والشيخ بوخبزة، والشيخ محمد عمرو عبد اللطيف، والشيخ أبو مالك باقشيش، والأستاذ أنور



الجندي، وغيرهم ممن قضى نحبه ومن ينتظر<sup>(1)</sup>.

**ولعلنا نعود إلى التساؤل من جديد: لماذا ضاع مذهب**

الليث وعلمه؟

إنَّ سبب ذلك لا ينحصر في تلامذته؛ فإنهم قد دوّنوا حديثه ونشروه في الآفاق، فكان أصح حديث وأصدق.

والحقّ أنّ شيئاً من ذلك يعود إلى الإمام نفسه؛ فإنه لم يدوّن كتبه، ولعله لم يكن يميل إلى هذا.

وقد أرجع الأستاذ أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» سبب ضياع مذهب الليث إلى عدم اعتناؤه بتدوين مذهبه في كتب<sup>(2)</sup>.



نشأ الإمام الليث بن سعد في بحوحة من الرزق وسعة من العيش، فقد كان أبوه واسع الغنى؛ يملك في قرية قلقشندة بريف مصر -مسقط رأس الليث بن سعد- وما حولها ضيعة واسعة

---

(1) اقرأ للمؤلف: «دور الطلاب في الحفاظ على علوم شيوخهم»، مقال منشور بموقع الألوكة، على الشابكة.

(2) انظر: ضحى الإسلام (2/ 88).



خصبة تنتج خير الثمار من زرع وفاكهة، وملك هو بعد ذلك مساحات شاسعة من الأراضي، تدرّ عليه دخلاً كبيراً، يصل إلى (80) ألف دينار سنوياً<sup>(1)</sup>.

ورغم ذلك كله لم تجب عليه زكاة قط في ماله؛ لسعة إنفاقه في أوجه الخير، ولأنه كان يعمل في ماله بالجود والعطاء ويسخرها في الكرم والسخاء؛ يعطي الفقراء في أيام السنة، فلا ينقضي الحول عنه حتى ينفقها ويتصدق بها، وكان له جود في الشتاء وجود في الصيف؛ كان يُطعمُ النَّاسَ في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سوق اللوز في السُّكَّر.

ومن جميل عطائه أنه كان يصلي في المسجد كل صلاة، يجيء على فرسه ويتصدق في كل صلاة على ثلاثمائة مسكين<sup>(2)</sup>.

ولقد جاءته امرأة مرة، إثر درسه، فقالت: يا أبا الحارث! إن ابناً لي عليلٌ، واشتهى عسلاً، فقال: يا غلام، أعطها مرطاً (المرط مائة وعشرون رطلاً) من عسل، وكان مع المرأة إناء صغير الحجم، فلما رآه كاتب الليث راجع الليث قائلاً، إنها تطلب قليلاً من

(1) انظر: صبح الأعشى (458/3).

(2) السير (158/8).



العسل، فقال الليث: إنها طلبت على قدرها، ونحن نعطيها على قدرنا، وأمره أن يعطيها المرط<sup>(1)</sup>. وغير هذا من القصص المشهورة التي تناقلتها كتب السير والتراجم.

لقد كان الليث عظيم الجود، على الناس جميعاً، وعلى أهل العلم منهم خصوصاً، يصلهم بالمال الجزيل، سيما الإمام مالك فأخباره معه في هذا الجانب مما يفوق كل جود ويربو على كل كرم. إذ كان يصل الإمام مالك بن أنس بمائة دينار في كل سنة، فكتب مالك إليه أن عليه ديناً فبعث إليه تلك السنة بخمسمائة دينار<sup>(2)</sup>.

ومن طريف ذلك أن الليث قدم المدينة زائراً بعد حجّه، فبعث إليه مالك بن أنس بطبق فيه رطب، فجعل الليث على طبق ألف دينار، وردّه إليه<sup>(3)</sup>.

وكتب مالك إلى الليث -مرة- يسأله أن يرسل إليه شيئاً من عصفر لزواج ابنته، فبعث إليه الليث بثلاثين جملاً من عصفر، فصبغ منه لابنته، وباع منه بخمسمائة دينار، وبقي عنده فضلة<sup>(4)</sup>.

---

(1) الوفيات (4/ 131).

(2) السير (8/ 148).

(3) السير (8/ 150).

(4) حلية الأولياء (7/ 319).



هذا عطاؤه لمالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكذا كان يجزل العطاء لغيره من العلماء، يقول منصور بن عمار: أتيت الليث فأعطاني ألف دينار، وقال: صن بهذه الحكمة التي آتاك الله تعالى أن تقف بها على أبواب السلاطين<sup>(1)</sup>.

وفي هذا الخبر ما يشير لنا بوضوح عن نية الليث في بعض عطائه، لقد كان يجب أن يصون العلماء عن الحاجة، ويعزهم عن السؤال، وألا يحوجهم الفقر إلى عطايا السلاطين!

وفي هذا إتاحة الحرية للعالم ليقول ما يمليه عليه علمه، غير خائف على رزق تقطعه الدولة أو الحاكم ولا وجل على وظيفة يعزل عنها.

ولنا أن نتصور كيف تكون مواقف العلماء ومؤسساتهم في كثير من القضايا الحيّة، لو صينت لهم أوقافهم واستقلوا في مواردهم، وهذا بعض ما أدركه الليث الفطن اللبيب!

وكذلك كان الليث يُعين العلماء على ما ينوبهم من نوائب

---

(1) تاريخ بغداد (8 / 13).



الدهر ومصائبه، كما ورد في مختصر تاريخ دمشق أنه لما احترقت كتب ابن لهيعة بعث إليه بألف دينار<sup>(1)</sup>.

بل لقد بلغ من جوده وكرمه أنه كانت تأتي عليه السنة أحياناً وعليه دين.

ليست العطايا فقط ما كان يحرص عليه الليث، بل كان يحرص على أنواع من البر كثيرة، ومن بين أعمال البر هذه شراء الأراضي، في نواح من البلدان، يشتريها ويقفها على وجوه البر، وكان فعله ذلك أساساً للأوقاف في مصر<sup>(2)</sup>.

فهو بهذا المؤسس الأول للأوقاف، وليته كان يعلم ما سوف تنتهي إليه أوقاف المسلمين فيها بعد ذلك!  
أما هو فكان -رغم سعة ثروته هذا- زاهداً؛ يأكل الخبز والزيت.

أحسب أن الله يدفع عن حاضرننا بما عمله صالحو المتقدمين من أمتنا، ولولا ذلك لجاءنا العذاب قبلاً!



(1) السير (8 / 148).

(2) انظر: صبح الأعشى (4 / 39)، و (11 / 248).



كان لليث بن سعد مجلس يعقده كل يوم، ويقسمه إلى أربعة أقسام:

**الأول:** للوالي، يستشير به في حوائجه، فكان الليث إن أنكر من القاضي أو الوالي أمراً كتب إلى الخليفة فيأتي أمر العزل.

**والثاني:** لأهل الحديث.

**والثالث:** عام للمسائل الفقهية يُفتي السائلين.

**والرابع:** للناس ممن يسألونه المال، فلا يرد أحداً مهما كبرت حاجته أو صغرت<sup>(1)</sup>.



لم يصلنا من مصنفات الإمام الليث بن سعد سوى شذرات نقلت عنه، ولم يؤلفها، فقد نقل عنه كتاب «عشرة أحاديث من الجزء المنتقى الأول والثاني من حديث الليث»، وهذا الجزء كان مضموماً في كتاب «الفوائد» لابن منده، وكذا نقل إلينا عنه كتاب: «جزء فيه مجلس من فوائد الليث بن سعد»، ورسالتان موجّهتان

---

(1) السير (8/150).



منه إلى الإمام مالك رَحِمَهُمُ اللَّهُ هما نموذجان رائعان لأدب الحوار بين العلماء.



توفي الإمام العظيم «الليث بن سعد» رَحِمَهُ اللَّهُ في مصر سنة (175)، وكانت جنازته عظيمة، وحزن عليه أهل مصر حتى إنهم كانوا يعزّي بعضهم بعضاً ويبكون.

«قال خالد بن عبد السلام الصديقي: شهدت جنازة الليث مع والدي، فما رأيت جنازة قطّ أعظم منها!! ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن، وهم يُعزّون بعضهم بعضاً ويبكون، فقلت: يا أبي كأنّ كل واحدٍ من الناس صاحب هذه الجنازة! فقال: يا بني لا ترى مثله أبداً»<sup>(1)</sup>.

ودفن الليث بن سعد في مقابر الصديقين في القرافة الصغرى، وقبره مشهور.

بعد أن ملأ الدنيا من حوله بالعلم والمعرفة، على مدى اثنين وثمانين عاماً، وقد نبغ من نسل الليث بن سعد: ابنه شعيب،

(1) السير (8/ 162).



وحفيده عبد الملك بن شعيب، وكلاهما من رواة الحديث النبوي المعروفين.

**وحكى ابن خلكان أنه سمع قائل يقول يوم مات الليث:**

ذهب الليث فلا ليث لكم

ومضى العلم غريباً وقُـرِ

فالتفتوا فلم يروا أحداً<sup>(1)</sup>.



---

(1) وفيات الأعيان (1/ 439).





عبد الله بن المبارك

**كبير التجار**

**وسيد العلماء**





## عبد الله بن المبارك كبير التجار... وسيد العلماء

أمتنا أمة ولادة، لا يكفّ رحمها أن يبهر العالم بمخرجاته من العظماء والنبهاء في جوانب الحياة وشؤونها المختلفة، وكثير من أولئك لم ينبغوا في واحد من هذه الجوانب بل فيها جميعها، ورفيق رحلتنا هذه واحد من أولئك النابغين في نواح كثيرة، في الدنيا والدين على سواء، فهو إمام مجاهد وعالم مجتهد، بل أستاذ من أساتذة الأئمة وسيد من سادات المسلمين في جانب الدين.

وهو تاجر ثري وماهر غني، ليس من أغنياء العلماء فحسب، بل هو من أغنياء زمانه وأوانه، حتى إنه ليحجج كثيرًا ويجاهد كثيرًا، يحجج من بلاده البعيدة جدًّا من الحرم، فيكفيه ماله لنفقاته ونفقة أعداد معه، إضافة إلى جود وعطاء وكرم وبذل وسخاء على أهل العبادة والجهاد والعلم والزهد، لم يتقطع عن تلك النفقة طول حياته!

هذا العالم الشري هو أمير المؤمنين في الحديث عبد الله بن المبارك، فله هو! كم كانت سعة ثروته!



لقد بدا لي يومًا أن أتصورها، فحسبت «كم كان يستغرق الناس من وقت لحج البيت الحرام قديمًا؟»

لقد كانت الرحلة من «الرياض» إلى مكة تقطع في (25) يومًا بركوب الجمال في القوافل، فكيف بمن كان يأتي من مرو -وهي اليوم عاصمة منطقة ماري في تركمانستان- ؟

لا ريب أن الرحلة من خراسان إلى البيت الحرام تستغرق شهرًا عديدة؛ قرأت في رحلات بعض العلماء أنها استغرقت (6) أشهر كاملة.

فكم كانت تكلفة هذه الرحلة على الفرد الواحد؟ وكيف إذا تصوّرنا أن ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ تعالى كان يصحب أهله، ورفاقه، وجملة من الفقراء والمساكين يحجّ معه جميع هؤلاء على نفقته الخاصة؟ أية ثروة يحتاجها الإمام ليتكفّل بنفقات هذه القافلة من الحجاج؟

واقراً معي هذا الخبر، يقول محمد بن عليّ بن الحسن بن شقيق: سمعت أبي يقول: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحجّ اجتمع عليه إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصحبك يا أبا عبد الرحمن، فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق فيقفل



عليها، ثم يكتري لهم ويُخْرِجَهُمْ من مرو إلى بغداد، فلا يزال يُنفق عليهم ويطعمهم أَطْيَبَ الطعام وأَطْيَبَ الحلواء، ثم يُخْرِجَهُمْ من بغداد بأحسن زِيٍّ وأَجْمَلَ مروءة، حتى يَصِلُوا إلى مدينة الرسول ﷺ فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجلٍ منهم: ما أَمْرُك عيالك أنْ تشتريَ لهم من المدينة من طرفها؟ فيقول: كذا، فيشتري لهم، ثم يُخْرِجَهُمْ إلى مكة، فإذا وَصَلُوا إلى مكة وقضوا حَجَّهُمْ قال لكل واحدٍ منهم: ما أَمْرُك عيالك أنْ تشتري لهم من متاع مكة؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم ثم يُخْرِجَهُمْ من مكة، فلا يزال يُنفق عليهم إلى أنْ يَصِيرُوا إلى مرو، فإذا وَصَلَ إلى مرو جِصَصَ أبوابهم ودورهم<sup>(1)</sup>.

فإذا كان بعدَ ثلاثة أَيَّامٍ صَنَعَ لهم وليمةً وكساهم، فإذا أَكَلُوا وسَرَّوْا دعا بالصندوق ففَتَحَهُ ودَفَعَ إلى كلِّ رجلٍ منهم صَرَّته بعد أنْ كَتَبَ عليها اسمَه، قال أبي: أَخْبَرَنِي خَادِمُهُ أَنَّهُ عَمِلَ آخِرَ سَفَرَةٍ سَافَرَهَا دَعْوَةً، فَقَدَّمَ إلى الناسِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ خَوَانًا فَالْوِزْج، قال أبي: وَبَلَّغْنَا أَنَّهُ قَالَ لِلْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ: لَوْلَاكَ وَأَصْحَابُكَ لَمَا انْتَجَرْتُ، قال أبي: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ<sup>(2)</sup>.

(1) تاريخ بغداد (10/158).

(2) السير (8/399).



هذا عن حجّ ابن المبارك، ومثله في جهاده؟  
لقد كان ابن المبارك محبًّا للجهاد شغوفًا به، يخرج في الجهاد،  
ويدعو الناس إليه قولًا وفعلًا، فقد ألف كتابًا عنه، وكان يعين  
المجاهدين بنفقة كبيرة، ويخرج من ماله في تجهيز احتياجات الجيش،  
ويحفظ لنا التاريخ هذه القصيدة التي تنضح نورًا بعث بها ابن  
المبارك وقت خروجه للغزو يدعو بها شيخه ورفيق دربه في العلم  
والزهد والنسك والورع «الفضيل بن عياض» ويذكره فيها بفضل  
الجهاد على ما هو فيه من الانقطاع للعبادة، يقول محمد بن إبراهيم  
بن أبي سكينه: أُملي عليّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس،  
ودّعته للخروج، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة  
سبعين ومائة، أو سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرْتُنا

لعلّمتَ أَتَّكَ في العبادةِ تلعبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بدموعه

فَنَحُورُنَا بدمائِنَا تَتَخَضَّبُ

أو كان يتعبُ خيله في باطل

فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ

ريحُ العبير لكم ونحنُ عبيرُنا



رَهْجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطِيبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالٍ نَبِينَا

قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ

لَا يَسْتَوِي غَبَارُ أَهْلِ اللَّهِ فِي

أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ

هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطُقُ بَيْنَنَا

لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

**قال:** فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحتني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟، قال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا، وأملى عليّ الفضيل بن عياض قال: حدثنا منصور عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله! علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله؟، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟»، فقال: يا رسول الله! أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، فقال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت ثواب المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن



في طوله فيكتب له بذلك الحسنات <sup>(1)</sup>.

هكذا كان غرامه رَحْمَةُ اللَّهِ بالجهاد ودعوته إليه!

**وهذه نفقته فيه:** قال عمر بن حفص الصوفي: خرج ابن المبارك من بغداد يريد المصيصة فصحبه الصوفيّة، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تحتشمون أن يُنفق عليكم، يا غلام، هات الطّست، فألقى على الطّست منديلاً، ثم قال: يُلقِي كُلُّ رجلٍ منكم تحت المنديل ما معه، قال: فجعل الرجل يُلقِي عشرة دراهم، والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المصيصة -بلد-، فلما بلغ المصيصة قال: هذه بلاد نفيّر، فنقسم ما بقي، فجعل يُعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول: يا أبا عبد الرحمن، إنما أعطيتُ عشرين درهماً، فيقول: وما تنكر أن يُبارك الله للغازي في نفقته!

كان عبد الله بن المبارك غنياً شاكراً، وكان رأس ماله نحو الأربعمئة ألف، وله رَحْمَةُ اللَّهِ في غير الحجّ والجهاد نفقات متواصلة لا تنقطع!

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم (1/448) لابن كثير، والسير (8/412)، والتدوين في أخبار قزوين (3/236)، لأبي القاسم الرافعي القزويني، وتاريخ دمشق (32/449)، وقد قال بعض العلماء بضعفها، انظر: تحذير الداعية من الأحاديث الواهية، (ج1/ قصة رسالة إلى عابد الحرمين في موسم حج «179هـ») علي حشيش.



فإما في صدقة على فقراء، أو في قضاء دين محتاج، أو في صلة لأهل العلم في كل مكان، إلى غير ذلك من أعمال البرّ والإحسان!

يروى أنه كان كثير الاختلاف إلى طرسوس، وكان ينزل الرقة في خان، فكان شابٌ يختلف إليه ويقومُ بحوائجه ويسمعُ منه الحديث، قال: فقدم عبد الله الرقة مرةً فلم يرَ ذلك الشاب وكان مستعجلاً، فخرج في النفير، فلما قفل من غزوته ورجع الرقة سأل عن الشاب، فقالوا: إنّه محبوسٌ لدينٍ ركبه، فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ فقالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلفه ألا يخبر أحداً ما دام عبد الله حياً، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس، وأدلى عبد الله، فأخرج الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان ها هنا وكان يذكرك وقد خرج، فخرج الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاثٍ من الرقة فقال: يا فتى أين كنت؟ لم أرك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوساً بدين، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجلٌ فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، الحمد لله على ما وفق لك من قضاء دينك، فلم يخبر ذلك الرجلُ



أحدًا إلا بعد موت عبد الله<sup>(1)</sup>!

**وقال حبان بن موسى:** رأيتُ سُفرة ابن المبارك مُجلت على عجلة.

**وقال أبو إسحاق الطالقاني:** رأيتُ بَعيرين محملين دجاجًا مشويًا لسفرة ابن المبارك.

وروى عبد الله بن عبد الوهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن سهم، قال: كنت مع ابن المبارك، فكان يأكل كلَّ يوم، فيشوى له جدي، ويتخذ له فالودج، ففيل له في ذلك، فقال: إنِّي دفعتُ إلى وكيلى ألفَ دينار، وأمرته أن يُوسِّع علينا<sup>(2)</sup>.

وأمام هذه الأخبار التي تفوق الخيال أراني أتساءل في عجب: كيف يدعى الكرم حاتمياً وفي التاريخ مثل عبد الله ابن المبارك؟  
أرأيت إلى هذا الثراء والمال الذي ينفقه ابن المبارك جوداً وكرماً؟  
إنه لم يكن أوحده خصاله، بل هو أحدها، أما عن بقيتها فاعلم أن خصال الرجل كانت كثيرة جداً.

يحكي الحسن بن عيسى بن ماسرجس أن جماعة من أصحاب

(1) تاريخ بغداد (10 / 168).

(2) السير (8 / 409).



ابن المبارك اجتمعوا، فقالوا: عَدُّوا خِصَالَ ابن المبارك، فقالوا: جمع العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والشجاعة، والشعر، والفصاحة، وقيام الليل والعبادة والحج، والغزو والفروسية، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف وقلة الخلاف على أصحابه<sup>(1)</sup>.

ومع كثرة مال ابن المبارك إلى هذا الحدّ كان ابن المبارك من أشدّ الزُّهَّاد، وهذا - لعمر الله! - الزهد الحقيقي.

**يقول إسماعيل بن عياش:** ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك، ولا أعلم أنّ الله خلق خصلةً من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصرَ إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص - المعمولُ من التَّمَر والسَّمَن - وهو الدهرَ صائماً.

فأي إنسان كان ابن المبارك؟ لله دره ودرّ أبيه!

وعليه فإننا لا نعجب حين نقرأ قول سفيان بن عيينة عنه: نظرت في أمر ابن المبارك وأمر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ<sup>(2)</sup>.

(1) السير (8/397).

(2) البداية والنهاية (13/610).



وليس ذلك بمبالغة في قدر ابن المبارك الذي حصّل الناس عنه علمًا وخلقًا ما زالت الأجيال تتوارثه، وما كان لمثل سفيان أن يجامل على حساب دينه، ولا لنا أن نقبل قوله إن كان مبالغة! بل سفيان يدري ما يقول وابن المبارك أهل لما يقوله سفيان فيه.



بين خلافتي هشام بن عبد الملك الأمويّ وهارون الرشيد العباسي عاش ابن المبارك، إذ ولد في سنة (118 هـ)، ومات سنة (181 هـ) وبذلك يكون قد عمّر (63) عامًا، ولكم كانت حياته تلك حياة كريمة مباركة!

**والده:** كان المبارك -والد عبد الله- تركيّاً، وإليه كان ابن المبارك ينزع في الشبه، وشبه الأتراك كان بيناً فيه.

**والدته:** وكانت والدته عبد الله بن المبارك خوارزمية<sup>(1)</sup>.

قال العباس بن مُصعبٍ في «تاريخ مرو»: كانت أم عبد الله بن المبارك خوارزميةً، وأبوه تركيّاً، وكان عبدًا لرجلٍ تاجرٍ من همذان، من بني حنظلة، فكان عبد الله إذا قدم همذان يخضعُ لوالديه ويُعظّمهما.

(1) نفسه.



وألقِ السمع إلى هذا الذي يحكي الأئمة عن أبيه في تلك الفترة: إنه كان يعمل في بُستانٍ لمولاه، وأقام فيه زماناً، ثم إنَّ مولاه جاءه يوماً وقال له: أريدُ زماناً حلواً، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها زماناً، فكسره فوجدَه حامضاً، فحرد عليه وقال: أطلبُ الحلوَ فتحضر لي الحامض! هاتِ حلواً، فمضى - وقطع من شجرةٍ أخرى، فلما كسره وجدَه أيضاً حامضاً، فاشتدَّ حرُّه عليه، وفعل كذلك دفعةً ثالثة، فقال له بعد ذلك: أنتَ ما تعرفُ الحلوَ من الحامض؟ فقال: لا، فقال: كيف ذلك؟ فقال: لأنَّني ما أكلتُ منه شيئاً حتى أعرَفَه، فقال: ولم لم تأكل؟ قال: لأنَّك ما أذنتَ لي، فكشَفَ عن ذلك فوجدَ قوله حقاً، فعظُم في عينه وزوَّجَه ابنته، ويُقال: إنَّ عبد الله رَزَقَه من تلك الابنة، فمَنَّتْ عليه بركة أبيه<sup>(1)</sup>.



وكان ابن المبارك إذا قدم همدان أحسن إلى ولد موالي أبيه، الذين كان والده يخدمهم!!

فسبحان الله يعطي ويمنع ويغني ويفقر، ويعز ويذل يرفع أقواماً ويخفض آخرين، كلُّ يوم هو في شأن!

(1) وفيات الأعيان (3/ 34).



كان ابن المبارك طلاباً للعلم، نادر المثال في ذلك، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه<sup>(1)</sup>.

**وقال أبو أسامة الحافظ:** ما رأيت رجلاً أطلب للعلم في الآفاق من ابن المبارك.. هو أمير المؤمنين في الحديث.

وليس أدل على ذلك من أنه حين عزم على طلب العلم وكانت سنّه إذ ذاك عشرين سنة! كان أول شيوخه هو الربيع بن أنس البكري -أحد صغار التابعين وعالم مرو في زمانه-، وكان الربيع سجيناً في سجن «مرو» وظل حبساً فيه ثلاثين سنة<sup>(2)</sup>.

فكيف لقيه ابن المبارك؟ لقد تحيل ودخل إليه إلى السجن، فسمع منه نحواً من أربعين حديثاً، فكان ابن المبارك يقول: ما يسرنى بها كذا وكذا.

وإنها والله مهمة عالية سامقة، تجعلني أزيل العجب من آخرة ابن المبارك التي تبوأ بها مكانة الإمامة والقدوة في العلماء لا في العامة فقط؛ إذ من كانت هذه بدايته فلا عجب أن تكون تلك

(1) انظر: موسوعة أقوال الإمام أحمد في رجال الحديث وعلمه (2/ 283) السيد أبو المعاطي النوري وآخرون، ط. عالم الكتب.

(2) انظر في سيرته: طبقات ابن سعد (7/ 102)، والسير (6/ 169-170)، وتهذيب التهذيب (3/ 239).



نهايته، وإن كان قد بدأ العلم متأخرًا وهو ابن عشرين! أخذ ابن المبارك إذاً عن العلماء في بلده، ثم ارتحل إلى أصقاع الدنيا وأكثر من الترحال والتطواف في حواضر الإسلام المشهورة بالعلم والعلماء في عصره، فلم يدع يمنًا، ولا شامًا، ولا مصرًا سواهما إلا أتاه.

حتى صار إمام الدنيا، قال أبو إسحاق الفزاري: ابن المبارك إمام المسلمين، وعن إسماعيل بن عيَّاش قال: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك.

وملأت أحاديثه الآفاق، قال ابن مَعِين: كان ثقةً متثبتًا، وكانت كتبه التي حَدَّثَ بها نحوًا من عشرين ألف حديث، وقال يحيى بن آدم: كنت إذا طلبتُ الدقيقَ من المسائل فلم أجدهُ في كتبِ ابن المبارك أيسر منه.

وقد كان الإمام ابن المبارك ينشد العلم حيث رآه ويأخذه حيث وجدته، لا يمنعه من ذلك مانع، فقد كتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وتجاوز ذلك حتى كتب العلم عمن هو أصغر منه.

بل عمن يستبعد الناس أن ينتفع عنه، ومن ذلك أنه مات له ابن فعزاه مجوسي فقال: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع، فقال بن المبارك: اكتبوا هذه.



إِنَّ «المعلومة» رِيَّ طالب العلم وزهاب حرّ عطشه! فأتى  
وجدّها تعلّمها وقيدّها ولا يحتقر شيئاً منها، مهما رآه قليلاً، وإن  
كان رِيَّ العلم يخرج من أظفاره! فإنه لا يدري أي الكلمات التي  
كتبها ينفعه الله بها!

ولقد بلغ بعبد الله بن المبارك ولعه بكتابة العلم مبلغاً جعل  
الناس يعجبون منه، فقد قيل له مرة: كم تكتب؟ قال: لعل الكلمة  
التي أنتفع بها لم أكتبها بعد.

وقد تعجب قوم لكثرة طلبه الحديث فسألوه: إلى متى تسمع؟  
فقال: إلى الممات.

ولم يكن ابن المبارك يهتم بالجانب الكمي في جمع العلم  
فحسب، بل كان اهتمامه يتوجّه أيضاً إلى الانتقاء النوعي له، دافعه  
في ذلك أمانة العلم والاستبراء للدين، لذلك كان التّثبت العلمي  
هو المنهج الذي التزم به ابن المبارك وأخضع له كل ما كان يصل  
إليه من أحاديث، حيث كان يتحرّى ما يقبل منها وما يردّ من  
خلال إسنادها.

كما حرص على دراسة الصّحيح من أحاديث رسول الله ﷺ  
والاشتغال بها على غيرها، حيث قال: «لنا في صحيح الحديث  
شغل عن سقيمه».



وكيف لا؟ وهو صاحب الكلمة الذائعة الشهيرة: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وكان ثمرة هذا الجهد أحاديث كثيرة تملأ الصحاح والمسانيد والسنن والمعاجم، ومصنفات كثيرة مباركة خلفها هذا الإمام العظيم منها:

كتاب الزهد والرقائق، وكتاب الجهاد، وله مؤلفات أخرى لم تطبع بعد.



بقي الإمام عبد الله بن المبارك عمره في هذا إلى أن مات؛ طلب علم، وهمة في غزو، وإنفاق على الإخوان، وتجهيزهم إلى حج، أو جهاد<sup>(1)</sup>، على نحو لا يستطيعه سواه، حتى لقد قال شيخ الإسلام شعيب بن حرب: لو جهدتُ جهدي أن أكونَ في السنة ثلاثة أيَّامٍ على ما عليه ابنُ المبارك؛ لم أقدر<sup>(2)</sup>.

توفي الإمام المبارك عبد الله بن المبارك في مدينة هيت بمحافظة الأنبار بغرب العراق سنة (181 هـ).

---

(1) السير (8/398).

(2) تذكرة الحفاظ (260-29/6).



رَحْمَةُ اللَّهِ رَحْمَةٌ واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.



وفي سيرة ابن المبارك عبر وعظات كثيرة تستحق الإشادة،  
نعجز أمام الوقوف عندها كلها لكثرتها وتشعبها، ويلفت نظرنا  
منها أن المطالع لسيرة ابن المبارك يشعر بحركة دائمة لا تسكن،  
ودأب متواصل لا يقرّ، فعلم وعمل، وتجارة وجود، وحج وجهاد،  
وبطولات وعبادة... إلخ، وهذه هي حياة المسلم الحقيقية التي  
ينبغي أن يكون عليها، الجدّية والمحافظة على وقته وعمره، فالمسلم  
لا يعرف تضييع الأعمار سهلاً، ولا ترك النفس فارغة عن شغل  
هملاً.

نعم إنّ المرء ليعجب أشد العجب، وهو يجمع هذه السيرة  
العطرة من بين الكتب، فيجد صاحبها قد ترجم ضمن حفاظ  
الحديث، وفقهاء المذهب الحنفي، وذكر في طبقات الصوفية، وفي  
سائر أبواب العلم من كتب التراجم التي تختلف في مشاربها وتجتمع  
على جميل مناقبه وعظيم شمائله، وصدق ابن العماد إذ يقول عنه: «عدّ  
بعضهم ما جمع من خصال الخير فوجدها خمساً وعشرين فضيلة!»<sup>(1)</sup>،

---

(1) شذرات الذهب (1/ 296).



ولهذا أفرد بعض الأئمة ترجمته بمؤلفات، وبعضها في مجلدات!

**وصدق ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:** كلما كانت النفوس أكبر والهمة أعلى كان تعب البدن أوفر وحظه من الراحة أقل والزمن يمضي وحظك منه ما كان في طاعة الله.

ومن اللافت للنظر في سيرة هذا الإمام كذلك أنه كان حنفي المذهب، قد تلقى الفقه عن إمام الأحناف أبي حنيفة النعمان، وهو معدود في تلامذته.

وهذا يحدونا إلى أن نجيب عن التساؤل الذي يرد على أذهان كثير من طلاب العلم، ألا وهو: هل على طالب العلم اتباع مذهب فقهي معين والالتزام به ليتفقه، أم يغنيه الأخذ بالراجح من الأقوال في كل المسائل؟

وقد أجبت عن هذا السؤال بتفصيل في كتابي «شجرة العلم»، وأجمل لك القول -يا طالب العلم- في هذه المسألة بأن طالب الفقه الذي لا يتمذهب لا يصل، ومن الشائعات العلمية التي تبناها فريق مشهور: «دعوة المتفقيين إلى التفقه من الدليل، بعيداً عن المذاهب الأربعة»، بحجة نبذ الجمود والبعد عن التعصب!!



وقد ثبت عند أهل التحقيق أنّ هذه الدعوة غير قابلة للتطبيق، وخير دليل على ذلك أن نتائجها - إلى يوم الناس هذا - غير موجودة أو غير محمودة، فالذين حاولوا التفقه في الشريعة، على هذه الطريقة، ما حصدوا إلا الشتات وضياع الأوقات، ولم تنتج هذه الدعوة رغم الجهود التي بذلت في سبيلها شيئاً مذكوراً، فلا هي خرّجت فقيهاً بمعنى الكلمة، ولا هي أبرزت مجتهداً يتعامل مع الواقع المتغير بمنهجية ثابتة.

وليست المذهبية هنا العصبية لواحد من الأئمة المتبوعين.

ولكن المذهبية المقصودة هي التدرج في مراقبي الصعود على نهج مذهب معين ابتغاء الوصول، وهى - رغم كل ما يثار حولها من مخاوف - الطريق المأمونة التي عبّدها قبلنا الفحول المحققون، وأنا أعدّ كلّ ما سوى المذهبية فوضى علميّة بكلّ معنى.





المحافى بنُ عمران

رأس الأثرياء

وياقوتة العلماء





## المعافى بنُ عمران رأس الأثرياء وياقوتة العلماء

إذا امتدح عالمٌ عالمًا فقال فيه: «لم يُر مثله»، فلا نحسب المدموحَ إلا إمامًا من الأئمة العظام، وإلا لما قيل فيه هذا!

فكيف لو كان المادحُ أحد الأئمة؟ فمن نحسب ذلك الممدوح؟ هل بقي إلا أن يكون إمام الأئمة!

وقلائل أولئك الذين قال فيه أئمةٌ - لا علماء عاديّون - إنهم «لم ير مثلهم»، وقليل أيضًا أولئك الذين وصفوا بهذا اللقب: «إمام الأئمة».

ومن هؤلاء الأقلّين: شيخ الإسلام أبو مسعود المعافى بنُ عمران الموصلي<sup>(1)</sup>.

وحقّ له، ولهم، ما قالوه فيه، فقد جمع هذا الإمامُ جملة من الشمائل العزيزة الكريمة، على المستويين العلمي والشخصي، جعلته جديرًا بهذا اللقب.

(1) أخباره في: طبقات ابن سعد (7 / 487)، الجرح والتعديل (8 / 399)، تاريخ بغداد (13 / 226)، والسير (9 / 80 - 86) وغيرها.

وناهيك عن رجل يمتدحه سفيانُ الثوري -وهو بالمكانة التي لا تخفى- فيسميه: «ياقوتة العلماء»، ومعلوم أن الياقوت نادر الوجود، وكذلك قصد سفيان أن مثل المعافي بن عمران نادر الوجود.

ويدرك المطلع على حياة «المعافي» سرَّ هذا المديح الغالي؛ إذ يرى رجلاً جمع العلم والعمل، والفقه والأدب، والغنى والزهد، والتواضع والكرم، فتذهب عن المطالع دهشة التعجب من المدح، ويكسوه بريق الإعجاب بالممدوح.

فأي رجلٍ كان المعافي؟

لا نمدنا المصادر بكثير من أخباره، لكنَّ ما بين أيدينا منها كافٍ في الإخبار عمّا وراءه، وهذه نبذة عنه، مفيدة:

ولد الإمام الثقة «المعافي بن عمران» بمدينة الموصل، في سنة (121هـ)، وأخذ العلم عن علماء بلده، وتخصص في الحديث الشريف، يجمعه ويدرسه على أيدي المتخصصين، ولم يكتف بعلماء بلده -وهم كثرة كاثرة- فحين أيقن أنه جمع ما عندهم من العلم خرج يرحل طلباً للمزيد، فأخذ يتنقل في البلاد طلباً للحديث عند أهله المعروفين به، وهذا شأن ذوي الهمة العالية؛ لا يكتفون بالغنيمة الباردة العاجلة، بل يسعون في تحصيل ما تطاله أيديهم وإن كابدوا في سبيل ذلك المشاق، وأجهدتهم الأهداف، وأضنتهم



الغاية، فلا يحجزهم ذلك عن بذل وسعهم:

كُلَّ يَوْمٍ لَكَ احْتِمَالٌ جَدِيدٌ

وَمَسِيرٌ لِّلْمَجْدِ فِيهِ مُقَامٌ

وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ كِبَارًا

تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

وَكَذَا تَطْلُعُ الْبُدُورُ عَلَيْنَا

وَكَذَا تَقْلَقُ الْبُحُورُ الْعِظَامُ

هكذا النفس حينما تسمو غاياتها وتنبل أهدافها فإنها تَرْتَقِي مَطَالِعَ الْجُوزَاءِ! وَيَتَعَبُ الْجِسْمُ فِي تَحْقِيقِ غَايَاتِهَا وَمَطَالِبِهَا، وَخَيْرُ مَنْ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ هُمْ أئِمَّةُ الْحَدِيثِ، فَأَخْبَارُهُمْ فِي هَذَا لَا تَحْصَى، وَمِنْهُمْ -إِمَامُنَا- الْمُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍاءَ، قَالَ أَبُو زَكْرِيَا<sup>(1)</sup>: «وَالْمُعَاوِيَةُ رَجُلٌ جَلِيلٌ الْقَدْرُ وَالْخَطَرُ فِي الْعِلْمِ وَعِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفَهْمِ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ، وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْحُكَمَاءِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، رَحَلَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَى الْأَمْصَارِ، فَكَتَبَ عَمَّنْ أَدْرَكَ مِنْ عُلَمَاءِ الْحِجَازِ، وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَأَهْلِ الْكُوفَةِ، وَأَهْلِ الشَّامِ، وَمِصْرَ، وَالْجَزِيرَةِ، وَالْمَوْصِلِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْكِتَابِ،

(1) صاحب «تاريخ الموصل».



كثير الشيوخ جداً، أخبرت عن ابن أبي نافع، أخبرني أبي وأبو عبد الله الأغر أن المعافى قال: لقيت ثمانئة شيخ<sup>(1)</sup>.

ثمانئة شيخ! لا غرو فلقد رحل في الحديث إلى البلدان النائية<sup>(2)</sup>!

لقد رحل إلى أراضي الإسلام الواسعة وحواضرها المعروفة بالعلم، فلقي علماءها، وأخذ عن شيوخها، وجمع ما في صدورهم ودواوينهم من حديث رسول الله ﷺ، ونقله إلى الأجيال التي تلتها، وما تزال الدنيا تنتفع بترائه إلى يومنا، وسيبقى إلى أن تقوم الساعة، فأية بركة عمر وعلم هذه؟



كان شيخ الإسلام «المعافى بن عمران» رَحِمَهُ اللهُ تعالى ثقة خيراً فاضلاً، صاحب هدي وسنة.

وهو معدود في أسخياء العالم وكرمائه، فقد كان يعطي العطاء الجزيل ويجود بالمال الكثير، الكافي، الدائم، فقد كان واسع الغنى كثير الشراء، وقد ذكروا أنه لشدة كرمه وسخائه كان لا يأكل وحده.

(1) إكمال تهذيب الكمال (11 / 255).

(2) تاريخ بغداد (15 / 303).



وكان يكرم أهل العلم بماله غاية الإكرام ويخصهم بجزيل عطاياه، قال الهيثم بن خارجة: ما رأيت رجلاً آدب من المعافى بن عمران، وبلغنا أن المعافى كان أحد الأسخياء الموصوفين، أفنى ماله الجودُ والحقوق، كان إذا جاءه مَغْلُهُ، أرسل منه إلى أصحابه [يعني العلماء والمحدثين] ما يكفيهم سنة، وكانوا أربعة وثلاثين رجلاً<sup>(1)</sup>.

**قال بشر الحافي:** كان المعافى صاحب دنيا واسعة وضياع كثيرة، قال مرة رجل: ما أشد البرد اليوم، فالتفت إليه المعافى، وقال: أستدفأت الآن؟ لو سكت، لكان خيرًا لك<sup>(2)</sup>.

وما ذكره بشر يقصد به أن هذا المال والثراء لم يمنعه أن يتعلم العلم ويتفقه فيه ويعمل بعلمه ذاك في أحواله جميعاً، ثم ضرب مثلاً من حاله في فضول الكلام -التي لا يرتفع العاملون إلى مقام الاحتراز منها إلا بعد أدائهم الفرائض وإتيانهم النوافل وفعلهم المستحبات- يريد أنه بلغ من العمل قمته.

وعلق الذهبي على هذا الموقف بقوله: قول مثل هذا جائز، لكنهم كانوا يكرهون فضول الكلام، واختلف العلماء في الكلام المباح، هل يكتبه الملكان، أو لا يكتبان إلا المستحب الذي فيه أجر،

(1) تاريخ الإسلام (4/ 978).

(2) السير (9/ 84).

والمذموم الذي فيه تبعة؟

والصحيح كتابة الجميع؛ لعموم النص في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ثم ليس للملكين اطلاع على النيات والإخلاص، بل يكتبان النطق، وأما السرائر الباعثة للنطق، فالله يتولاها<sup>(1)</sup>.

وقد أنفق المعافي ماله كله في هذه السبيل المرضية فما جزع على فقده، قال بشر بن الحارث: «من ابتلي في زوجة أو مال أو ولد فتلك المنزلة الشريفة، ثم قال: لقد رأيت المعافي أصيب بماله، وكان يذكر، فقال: لا تذكره لي، وقتل ابنه فصبر واحتسب، وما رأي

(1) ومن العلماء من ذهب إلى أنَّ الملائكة تعلم ما في النية والنفس والقلب، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿كَرَامًا كَثِيرًا ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: 11-12]. قال البغوي: «﴿كَرَامًا﴾ على الله ﴿كَثِيرًا﴾ يكتبون أقوالكم وأعمالكم، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ من خير أو شر»، وقال ابن أبي العز: «... ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أنَّ الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية؛ لأنها فعل القلب، فدخلت في عموم: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾، وقال السفاريني: «وظاهر النص: أنها يكتبان أفعال العباد من خير، أو شر، أو غيرهما، قولاً كان أو عملاً أو اعتقاداً، همّاً كانت أو عزمًا أو تقريرًا، فلا يهملان من أفعال العباد شيئاً في كل حال وعلى كل حال»، وللتفصيل والاستزادة راجع الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (19/ 245، 246)، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز: (273).



جزعاً قط، فهذا ممن سمع العلم فأنْتَفَعَ به، والحديث فأخذ به»<sup>(1)</sup>.  
ولم يعدمه فقدان المال أخلاقه فعن رباح بن الجراح العبدي  
قال: ربما أتى المعافى بقصعة، فيأكل هو وأصحابه حين خف ماله،  
أفناه الكرم والحقوق»<sup>(2)</sup>.



لقد كان «المعافى» إلى جوار هذا الغنى والشراء معروفاً بالورع  
والزهد، فعلى الرغم من أن ماله حلال، خالص، طيب إلا أنه زهد  
فيه وزهد في متعه وملذاته!

فقد أنفق «المعافى» رَحْمَةُ اللَّهِ مَالَهُ كُلَّهُ على العلماء وطلبة العلم،  
ووسّع عليهم بما أعطاهم منه، أما هو فلم يختص نفسه من ماله  
بقليل أو كثير، وهذا علي بن حرب الطائي يحكي عن حاله الذي  
رآه عليه فيقول: «رأيت المعافى أبيض الرأس واللحية، عليه قميص  
غليظ وكمه يبين منه أطراف أصابعه»<sup>(3)</sup>.

---

(1) إكمال تهذيب الكمال (11/ 254 وما بعدها)، مغلطي، ت. أبو عبد  
الرحمن عادل بن محمد، أبو محمد أسامة بن إبراهيم، ط. الفاروق الحديثة  
للطباعة والنشر.

(2) إكمال تهذيب الكمال (11/ 255).

(3) تاريخ الإسلام (4/ 978).

هذا هو الزهد الحقيقي، ورب الكعبة؛ أن تزهد فيما تملك،  
وأن تزهد في الدنيا بقلبك وهي بيدك، فإنّ بعض من لم يفهم  
الإسلام ظنّوه دعوة إلى الفقر وخلوّ اليد من المال، وراحوا يصوِّرون  
ذلك للنّاس ويحبّبونه إليهم! بحسن قصد أو سوءه، وهو لا ريب  
خطأ على الإسلام وافتراء عليه فمن فعل ذلك فقد كذب على الله  
ونبيه ودينه!

إنّ تحسين الفقر وتزيينه للنّاس جُرم، وفعل هذا التزيين على  
أساس من الشرع هو كبيرة من الكبائر!

ولله در العلامة محمد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ إذ يقول: «كل دعوة  
تحبب الفقر إلى الناس، أو ترضيهم بالدون من المعيشة، أو تقنعهم  
باهون في الحياة، أو تصبرهم على قبول البخس، والرضا بالدنية،  
فهى دعوة فاجرة، يراد بها التمكين للظلم الاجتماعي، وإرهاق  
الجماهير الكادحة في خدمة فرد أو أفراد وهى قبل ذلك كله كذب  
على الإسلام، وافتراء على الله».

لقد ملك أئمة الإسلام المأل -وقبلهم أصحاب رسول الله  
ﷺ- بل وملكه رسل الله وأنبيأؤه -داوود وسليمان وأيوب...  
إلخ- وهؤلاء خيرة الدنيا وصفوتها، فلم نعلم أنّهم ألقوه من



بيوتهم وخزائنهم في عرصات الطريق يتبرأون منه، نعم نفضوه من قلوبهم، لكن بقي في أيديهم ينفعون به أنفسهم ويعينون به غيرهم في سبيل الجنة ودرجاتها العالية، ونعم المال الصالح للعبد الصالح<sup>(1)</sup>!

هل كان «المعافى» إذاً عالماً محدثاً فقيهاً، وثرياً غنياً، وكريماً سخياً، وكفى؟ لا، بل كان -إضافة إلى هذا كله- حليماً؛ من أثبت الناس قلباً، وأربطهم جأشاً، وأصبرهم على مصيبة، وأمكنهم على رؤية الخير المستتر وراءها، حتى قيل: إنه كان في الفرح والحزن واحداً؛ يعنون بذلك أنه ما كان يجزع عند مصيبة، بل كان يظهر هادئ البال، ثابت الجنان، قوي النفس، يتصرّف في الأمر على إحاطة كاملة برؤية الشرع الكريم وأحكامه، وكان كذلك عند الفرح!

فقد ذكروا أن الخوارج قتلت ولدين من أبنائه، فبلغه خبر مقتلها وعنده جماعة من أصحابه، فما ظهر عليه الجزع، حتى أكرم وفادتهم، وبعدهما انتهوا قال لهم: «آجركم الله في فلان وفلان»<sup>(2)</sup>!

(1) تقدم تحريجه.

(2) تاريخ الإسلام (4/ 978).



وقدم إليه الناس يعزونه فيها فقال لهم: إن كنتم جئتم تعزوني، فلا تعزوني، ولكن هنتوني؛ فهناؤه، وما برحوا من عنده -هم أيضاً- حتى غداهم، وطيبهم بالمسك!

لقد كان المعافي إماماً في العلم، إماماً في العمل، حتى إن علماء زمانه جعلوه ميزان أهل بلده وناحيته؛ لا يأتيهم أحدٌ إلا وسألوه عن المعافي؛ فإن أحبه وأثنى عليه بذلوا له ما يطلب وقدموه وأكرموه، وإن كان غير ذلك نبذوه ورفضوا أن يعطوه من العلم شيئاً، فامتنحوهم به.

ففي إكمال تهذيب الكمال عن يونس قال: «امتنحوا أهل الموصل بالمعافي، فإن ذكره يعني بخير، قلت: هؤلاء أصحاب سنة وجماعة، ومن عابه قلت: هؤلاء أصحاب بدع<sup>(1)</sup>.

ولذلك كان أهل الموصل -بلده- يفتخرون به على الناس<sup>(2)</sup>. وقال الأوزاعي -وقد اجتمع عنده المعافي وابن المبارك وموسى بن أعين-: هؤلاء أئمة الناس، ولكن لا أقدم على الموصلي أحداً<sup>(3)</sup> يعني المعافي.

(1) إكمال تهذيب الكمال (11 / 254).

(2) إكمال تهذيب الكمال (11 / 255).

(3) إكمال تهذيب الكمال (11 / 254).



وكذلك قال عيسى بن يونس المحدث الكبير، فقد ذكر محمد بن عبد الله بن عمار قال: كنت عند عيسى بن يونس، فقال: أسمعت من المعافى؟ قلت: نعم، قال: ما أحسب أحدًا رأى المعافى وسمع من غيره يريد بعلمه الله - تعالى -<sup>(1)</sup>.

يريد أن من سمع منه اكتفى بما سمع فيه الكفاية والغاية، إلا إذا كان يطلب العلم استكثارًا لطلب الدنيا، أو لحب الظهور بغرائبه.

هذه بعض شمائل المعافى رَحِمَهُ اللهُ التي ذكرها العلماء، ولم أذكر جميع ما ذكروه منها، وربما لم يذكر العلماء جميع شمائله واكتفوا ببعضها، وإذا كان الأمر كذلك فنعود إلى السؤال: أي إنسان كان «المعافى»؟

فلا غرو امتدحه المؤرخون وامتدحه العلماء بل قبلهم جميعًا امتدحه الأئمة، ومنهم وكيع بن الجراح وسفيان الثوري وبشر بن الحارث، والأوزاعي ويحيى بن معين وغيرهم من أئمة الإسلام الكبار في العلم والعمل.

---

(1) السير (9/ 83).



**ومما قالوا فيه:** كان «المعافي» من أئمة العلم والعمل، قل أن ترى العيون مثله<sup>(1)</sup>.

**قال حرب بن إسماعيل:** قال أحمد بن حنبل: معافي بن عمران، شيخ له قدر - جعل يعظم أمره - وكان رجلاً صالحاً<sup>(2)</sup>.

**وقال أحمد بن يونس:** كان سفيان الثوري يقول: «المعافي بن عمران ياقوتة العلماء».

وهذا بشر بن الحارث «الحافي» يقول عنه: إني لأذكر المعافي اليوم، فأنتفع بذكره، وأذكر رؤيته فأنتفع.

وبشر هو من هو في الزهد والورع والعمل بالعلم يقول هذا عن المعافي!

**بل إنه ليسأل:** نراك تعشق المعافي؟ فيقول: وما لي لا أعشقه، وقد كان سفيان الثوري يسميه الياقوتة؟<sup>(3)</sup>.

وينقل -أيضاً- عن ابن المبارك أنه كان يقول: حدثني ذاك الرجل الصالح -يعني المعافي بن عمران- قال: وكان الثوري يقول له: أنت معافي كاسمك، وكان يسميه: الياقوتة.

(1) السير (81/9).

(2) الجرح والتعديل (8/1735).

(3) السير (80/9).



**قال:** وكان الثوري يَمْتَحِنُ أهل الموصل به، قال بشر: وكان المعافى مَحْشُوءًا بالعلم والفهم والخير<sup>(1)</sup>.

فسبحان من خلق مثل هؤلاء من بني الإنسان!



صنف شيخ الإسلام «المعافى بن عمران» في الزهد، والسنن، والفتن، والأدب وغير ذلك<sup>(2)</sup>.



توفي هذا الجبل رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (185 هـ)<sup>(3)</sup>، في خلافة هارون الرشيد<sup>(4)</sup>، عن نحو (60) عامًا<sup>(5)</sup>، وقد أوصى أولاده بوصية نافعة عظيمة، كما يقول عنها الذهبي - تكون نحوًا من كراس<sup>(6)</sup>.

وقد ظهر أثرها - مع أثر تربيته إياهم - في أولاده، فكان منهم

(1) التكميل في الجرح والتعديل (1/ 59)، ابن كثير ت. د. شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، ط. مركز النعمان.

(2) السير (9/ 82).

(3) تاريخ الإسلام (4/ 978)، وذكر اختلافًا في تاريخ وفاته؛ هذه السنة، وقبلها بسنة، وبعدها بسنة.

(4) إكمال تهذيب الكمال (11/ 255).

(5) الأعلام (7/ 260).

(6) السير (9/ 80).



العلماء الأماجد وانظر ترجمة ابنه عبد الكبير في تاريخ الإسلام  
للذهبي<sup>(1)</sup>، فنعلم الرجل هو؛ لم يضيع أبناءه، حين يضيعهم كثيرون  
بحجة أنهم انشغلوا عنهم بالعلم!.



وبعد، هذه أنسام أخبار سلفنا الصالح تفوق أنفاس الربيع،  
وتضارع نور البدر ولألاءه في الليل السطيع، فأين منها حالنا  
اليوم؟

ولا بد لك -وقد مرَّ بسمك خبر هذا العالم الرحالة- من  
إشارات تقف عندها؛ لتستفيد بها، فمن ذلك:

(1) أن تبصر كم من الأوقات والأعمار قضاها هؤلاء في طلب  
العلم، بعيدين عن الأهل والولد، والزوجة والبلد، متفرغين  
لطلب العلم وحفظ الدين.

وقارن هذه الحال بحال أهل زماننا من تفريط في الدين وعدم  
حرص على تعلمه.

(2) مدى تحملهم للصعاب، سيما وسائل السفر، وانظر  
لتقاعس أبناء عصرنا عن الارتحال ولو بالسيارات التي صارت

---

(1) تاريخ الإسلام (5/ 623).



الآن أسوأ سبل السفر في ظل وجود الطائرات بأنواعها المختلفة، لتدرك علو هممهم في الصبر والتحمل، وتعلم غلاء العلم عليهم وعلى قلوبهم، إذ ركبوا في تحصيله الصعب والذلّول، وقطعوا البراري والقفار، وامتطوا من أجله المخاطر والبحار، ولقوا ما لقوا من الشدائد والأهوال ما الله به عليم.

(3) صقل تلك المعاناة لنفوسهم، فعزّ العلم عندهم، ورعوه حق رعايته، ولذلك خرجوا أئمة أبحاراً في كل علم من العلوم، ولم يجد الزمان بأمثالهم، لما لم يستنّ الناس بسننهم<sup>(1)</sup>.

وقارن بين هذا وبين حال طلبة العلم في عصرنا ممّن يدرسون دراسة أكاديمية أو من دونهم، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ :

«فوازن -رعاك الله- بين الدراسة التي أثمرتها هذه الرحلات التي عرّكت الطلاب الراحلين عرْكَاً طويلاً، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم! يدرسون فيها أربع سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسة صحفية فردية، لا حضور ولا سماع، ولا مناقشة ولا اقتناع،

---

(1) منطلقات طالب العلم (ص 57) بتصرف كثير.



ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسي، ولا تصحيح لأخطائهم ولا تصويب ولا تشذيب لمسالكتهم، ويتسقطون المباحث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة) ثم يسعون إلى تلخيص تلك المقررات، ثم يسعون إلى إسقاط البحوث غير الهامة من المقروءات، بتلطفهم وتملقهم لبعض الأساتذة، فيجدون ما يسرهم وإن كان يضرهم، وبذلك يفرحون.

وبعد ذلك يتعالون بضخامة الألقاب، مع فراغ الوطاب، ويوسعون الدعاوي العريضة، ويجهلون العلماء الأصلاء بآرائهم الهشة البتراء، وينصرون الأقوال الشاذة لتجانسها مع علمهم وفهمهم، ويناهضون القواعد المستقرة، والأصول الراسخة المتوارثة، ولم يقعدوا مقاعد العلم والعلماء، ولم يتذوقوا بصارة التحصيل عند القدماء! ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين!!

ويشهد المراقب للحال العلمية اليوم: كثرة متزايدة في الجامعيين والجامعات، وفقراً متزايداً في العلم وأهله، وضحالة في الفهم والمعرفة، ونقصاً كبيراً مشهوداً في العمل بالعلم! وهذه مصيبة من أدهى المصائب! والله المرجو أن يلهم المنوط بهم أمور التعليم في البلاد الإسلامية أن يتبصروا بالأمر، ويتداركوا هذا



الخطر قبل تأصُّله وإزمانه، واستفحال آثاره.

**ثم يقول:** ولا أتحدث طويلاً عن المبتعثين والراجلين اليوم من شبابنا، إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداء للإسلام وأهله، فإنَّ الناجي من براثن مكائدهم الخفية والظاهرة في العقيدة والخلق والتفكير والسلوك قليل، وكم من أبنائنا وشبابنا من وقع في حبائلهم، وذهب في سبلهم، ورضيهم قادة وسادة، ونزع - بالتالي - من ديار الإسلام إليهم، وتوطن بلادهم مسكنًا ودارًا، واختارهم على أهله أهلًا وجارًا، وهو يظن بنفسه أنَّه يحسن صنعًا، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الكفر بعد الإيمان<sup>(1)</sup>.



---

(1) صفحات من صبر العلماء (ص 109، 110).





صَاحِبُ بَنِ أَحْمَد  
التَّاجِرُ الثَّرِي  
وَالْعَالَمُ الْمَلِي



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ التَّاجِرُ الثَّرِيُّ وَالْعَالِمُ الْمَلِيٌّ

ومن العلماء الأثرياء: دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ، المحدث، الحجّة، الفقيه، الإمام، أبو محمد السجستاني ثم البغدادي، التاجر، ذو الأموال العظيمة<sup>(1)</sup>.

والدَّعْلَجُ معناه: الشابُّ الحَسَنُ الوجه النَّاعِمُ البدن، وله معانٍ<sup>(2)</sup>.

كان مولد «دَعْلَجٍ» سنة (259هـ) أو قبلها بقليل، وكان تاجراً يجوب الآفاق، فنفعه الله بذلك نفعاً عظيماً؛ إذ سمع ما لا يوصف كثرة من كتب الحديث، بالحرمين، والعراق، وخراسان، والنواحي كافة.

لقد كان دَعْلَجُ صاحب أموال جزيلة، أنفق أكثرها في العلم وأهله، ومن العجيب أنّ هذه الأموال التي كانت لكثرتها تعباً في أجلة وتجعل بداراً لم تصرفه عن العلم والسعي فيه، فيا له من

(1) السير (30/16)، الذهبي، ت. الأرناؤوط وآخرين، ط. الرسالة.

(2) تاج العروس (5/569)، الزبيدي، ط. دار الهداية.



صاحب همّة! ويا له من مجتهد صَبَّار!

إننا نتصور ما يكون عليه رجلٌ غنيٌّ مليٌّ؛ إنّه يطلب الراحة لا ريب!

خاصّة مع تعب التطواف في البلاد!

لكن «دَعَلَج» يَعْلَمُنا أنّ اللذة والراحة ليست في امتلاك الأموال الطائلة والثروة الواسعة، فما الثروة إلا طاقة يجدد بها المرء العهد مع الهمة، ولئن بذل شيئاً من عمره في طلب المال، فهو باذله أجمع فيما هو أفضل وأجل وألذّ وأكمل، هو باذله في العلم، تطلّاباً له واجتهاداً في تحصيله، وقد فعل!

وقد أفاد ذلكم الإمام من هذه الرحلات التجارية الكثير، فتتلمذ على جيل من العمالقّة، فيهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، والعباس بن الفضل الأسفاطي، وأبو مسلم الكجي، ومحمد بن غالب التمتام.

وفيههم هشام بن علي السيراقي، وبشر بن موسى، ومحمد بن إبراهيم البوشنجي، ومحمد بن عبد الرحمن السامي، وإمام الأئمة ابن خزيمة.



لقد شرع دَعَلَج يطوّف البلاد؛ يلقي علماءها ويسمع منهم، حتى سمع من محمد بن ربح البزاز وغيره ببغداد، ومن عثمان بن سعيد الدارمي وغيره بهراة، ومن علي بن عبد العزيز وغيره بمكة، ومن محمد بن عمرو قشمرّد وغيره بنيسابور، ومن عبد العزيز بن معاوية القرشي بالبصرة، ومن محمد بن أيوب البجلي بالرّي، وعدد كثير غير هؤلاء، في غير هذه البلاد<sup>(1)</sup>.

لقد طوّف -إِذَا- ببلاد خراسان، وبالرّي، وحلوان، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة<sup>(2)</sup>.. إلخ! فسبحان الله الذي يؤتي العزائم، ويرشدّها إلى سواء القصد، ويعينها على قصدها!

إنه لتأتيه «الثروة» معها الثقل والوهن والراحة والكسل، فلا يغرّه ذلك بالاكتفاء والقنوع بدعوى التفرّغ للملذات الحياء، أو اقتناص الفرص التي فاتته في حياته الماضية، أثناء طلبه الكفاية من أرزاق الدنيا!

لم يكن «دعلاج» بذى الثروة التي تصنع به ثروته هذا، بل إنها تحمله على السمو حملاً، لكانها اجتمعت ثرواته وأمواله فكانت

---

(1) تاريخ الإسلام (8/ 30)، الذهبي، ت بشار، ط دار الغرب الإسلامي.  
 (2) تاريخ بغداد (8/ 387)، الخطيب البغدادي، ت بشار، ط دار الغرب الإسلامي.



وقودًا في همته وعزيمته؛ تؤزّه إلى ما هو أسمى وأغلى، فلا غرو أن صار «شيخ أهل الحديث في عصره»<sup>(1)</sup> كما يصفه الحاكم، فيأخذ عنه العلم جيل تدين له كافة الأجيال التي جاءت من بعده؛ إذ حدث عنه الأئمة: الدارقطني، وابن جميع الغساني، وأبو عبد الله الحاكم، وابن رزقويه، وأبو القاسم بن بشران، وعلي بن أحمد البادي، وأبو علي بن شاذان، وأحمد بن أبي عمران الهروي، وأبو إسحاق الإسفراييني، وأبو عمر بن حيويه، وخلق من العظماء والكبراء سواهم<sup>(2)</sup>.

وهؤلاء أغلب أئمة الشأن، وعلى كتب كثير منهم فيه المعتمد، وما اجتمعوا على دعلج إلا لأنه صار ثقة ثبتًا.

وكان الدارقطني -الإمام الكبير ذو الشهرة التي طبقت الآفاق- يخدمه، حتى إنه رتب له مسنده، وكان هو المصنف لكتبه، يقول الدارقطني عن ذلك: صنف لدعلج المسند الكبير، فكان إذا شك في حديث ضرب عليه، ولم أر في مشايخنا أثبت منه<sup>(3)</sup>.

(1) تاريخ دمشق (17/ 279).

(2) تاريخ الإسلام، (8/ 30).

(3) تاريخ بغداد (8/ 387 - 388).



ويكفيك فيه شهادة الدارقطني هذه، وقبلها تتلمذه له، وهو من هو!

وقال الخطيب البغدادي: «كان ثقة، ثبَّتًا»<sup>(1)</sup>.

وقال أبو العلاء: قال عمر البصري: «ما رأيت ببغداد ممن انتخب عليه أصح كتباً من دَعْلَج»<sup>(2)</sup>.



كان «دَعْلَج» من الأئمة الذين تلقوا الحديث على طريقته الأصيلة؛ صيدلانياً طبيباً؛ لم يكن بالصيدلاني يعرف الحديث ويعالج الإسناد وينقل الرواية فحسب كشأن كثير من المحدثين، بل كان محدثاً فقيهاً ذا قدرة على الاستنباط وأخذ الأحكام من الحديث،

فهو مثال حي لقوله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ»<sup>(3)</sup>

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) رواه البخاري (79)، ومسلم (2282).



وقد ترجمه تلامذته فذكروا أنه ثقة ثبت فقيه، هكذا تعديله عندهم؛ بالفقه والحديث معاً، بل يقدم لقب الفقيه في ترجمته على لقب المحدث، فهذا أبو عبد الله الحاكم يقول عنه: «دعَلَجَ الفقيه شيخ أهل الحديث في عصره»<sup>(1)</sup>.

بل لقد بلغ «دَعْلَجَ» في الفقه منزلة الفتوى؛ إذ «أول ارتحاله كان إلى نيسابور، فأخذ مصنفات ابن خزيمة، وكان يفتي على مذهبه»<sup>(2)</sup>.

وهو مترجم في طبقات الشافعية؛ ترجمه السبكي ضمن فقهاء المذهب، فقال: «الْفَقِيه المَعْدَل»<sup>(3)</sup>.

وترجمه ابن الملقن في «العقد المذهب في طبقات حملة المذهب»<sup>(4)</sup>. وفي ذلك عبرة أيما عبرة لطالب الحديث، فهو وإن كان محموداً لا ريب على كثرة مروياته، وسعة اطلاعه على الأسانيد، وامتلاكه إجازات الشيوخ، إلا أن ذلكم المدح يعظم إذا ضمَّ إلى الرواية

(1) السير (31 / 16).

(2) نفسه (31 / 16).

(3) طبقات الشافعية الكبرى (3 / 291)، للسبكي، ط هجر.

(4) العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص 236)، لابن الملقن، ط دار الكتب العلمية.



الدراية، وجمع إلى معرفة الحديث وحفظه فهمه وفقهه، فنعمًا المحدث  
يكون فقيهاً، حتى لا يكون الأمر على ما قاله الأديب الفقيه الشافعي  
كمال الدين أبو الفضل الأدفوي (ت 748 هـ):

إنّ الدروس بمصرنا في عصرنا

طبعت على لغط وفرط عياط

ومباحث لا تنتهي لنهاية

جدلاً ونقل ظاهر الأغلاط

ومدرس ييدي مباحث كلها

نشأت عن التخليط والأخلاط

ومحدث قد صار غاية علمه

أجزاء يرويها عن الدمياطي

وفلانة تروي حديثاً عالياً

وفلان يروي ذاك عن أسباط

والفرق بين غريهم وغزيرهم

وأفصح عن الخياط والخناط



والفاضل النحرير فيهم دابه

قول أرسطاطاليس أو بقراط

وعلم دين الله نادت جهرة

هذا زمان فيه طي بساطي

ولى زماني وائقضت أوقاته

وذهابه من جملة الأشراف

وهذا كلام يقال فيمن همته فقط أن يجمع علومًا ويحوي  
محفوظات دون فقه أو فهم، وقد قيل: حديث يتداوله الفقهاء خير  
من حديث يتداوله الشيوخ، ولأم بعضهم الإمام أحمد في جلوسه  
إلى الشافعي فقال: اسكت، فإن فاتك حديث بعلو تجده بنزول لا  
يضررك في دينك ولا في عقلك، أو في فهمك، وإن فاتك عقل هذا  
الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة، ما رأيت أحدًا أفقه في  
كتاب الله من هذا الفتى القرشي، قلت: من هذا؟ قال: محمد بن  
إدريس الشافعي.

أما إن اجتمعا -العلم والفهم- فنعمًا هما، ونعمًا الجامع لهما،  
فذلك الخير كل الخير.





خَلَفَ دَعْلَجَ بعده من المصنّفات العلمية ما استفاد منه تلامذته وأفادوا الدنيا من ورائهم، منها مسنده الذي رتبته الدارقطني تحت نظره وبإشراف منه، ومصنّف فيه حديث شعبة، وثالث فيه حديث مالك، وله أيضًا «مسند المقلّين»<sup>(1)</sup>.



كان عمل «دَعْلَجَ» التجارة، وقد درّت عليه مالا وفيرا ورزقا مديدا، حتى قيل: لم يكن في الدنيا أيسر منه من التجار، رَحِمَهُ اللهُ<sup>(2)</sup>. وقد نفعته التجارة مرات؛ نفعته في التوفّر على العلم؛ حيث رُزِقَ وكُفِيَ.

ونفعته في التطواف على العلماء والرحلة للرواية عن المسنين، في شتى النواحي، بيسر وسهولة، حتى صار بحرّا في الرواية والدراية.

ونفعته في إعانة غيره من الطلاب، ثم العلماء على مشاق الطريق؛ إذ كانت له صلوات وصدقات ووقوف على العلم وأهله. يقول عنه تلميذه أبو عبد الله الحاكم: «له صدقاتٌ جاريةٌ على

---

(1) الرسالة المستطرفة (73).

(2) السير (16 / 34).



أهل الحديث بمكة، وبغداد، وسجستان»<sup>(1)</sup>.

في هذه البلاد وغيرها كان لهذا العالم الغني الميسور أهل صلة من العلماء والفقهاء، يمدّهم بما أمده الله به، يعرف لهم به حقهم، ويعينهم به على علمهم ومسئولياتهم، فيؤدي ما عليه لهم من حق ويشركهم في الأجر، ولا عجب فالمؤمنون بعضهم لبعض نصيحة، متوادّون، وإن بعدت منازلهم وأبدانهم!

يقول الإمام المحدث الثقة المسند أبو عمر بن حيويه: أدخلني دعلج بن أحمد داره، وأراني بدرًا من المال معبّأة، فقال لي: خذ منها ما شئت، فشكرته، وقلت: أنا في كفاية وغنى عنها<sup>(2)</sup>.

وله في وصل العلماء بالهبات والعطاءات حيل طريفة وطرق ظريفة، منها ما حكى الدارقطني قال: بلغني أنه كان يبعث بمسنده إلى ابن عقدة؛ لينظر فيه، فيجعل بين كل ورقتين دينارًا<sup>(3)</sup>.

وإنه إذ يصل العلماء في زمانه ويكفي أهل العلم في أوانه لا يفكر في صلة تنفق فتقطع، أو صدقة تعطى فتنتهي، بل يذهب إلى ما هو أبقي من ذلك وأدوم، فأنشأ وقوفًا محبسة على أهل العلم،

(1) نفسه (31 / 16).

(2) تاريخ الإسلام (8 / 31).

(3) السير (32 / 16).



تدرّ لهم المال فيدوم ما دامت الوقوف قائمة، قال الخطيب: كان دَعْلَج من ذوي اليسار، له وقوف على أهل الحديث<sup>(1)</sup>، نعم وقوف، على العلماء، وهو في الحياة يرعاها.  
وفي هذا عظات للمنفقين.

فيا أيها المنفق! لا تنتظر بصدقتك الجارية حتى تقضي فتدعها في يد غيرك ينفقها عنك بعد رحيلك، أيّا كان ذلك الغير وشدة ثقتك به، بل احرص أن تعمل ذلك بنفسك وأنت على قيد الحياة، وأن تستمرّ على الوفاء به حتى تأتيك الوفاة، وأوص من يبقون بعدك بالإتمام؛ فإن فعلوا كان خيرًا، وإلا فقد كتب أجرك إلى قيام الساعة، كاملاً؛ فإن «لكل امرئ ما نوى»<sup>(2)</sup>.

ويا أيها المنفق! كن ذكيًا في اختيار وقفك.

نعم يطلب إلى صاحب الوقف -وفقه الله- أن يكون ذكيًا غاية في الذكاء، وإلا فليسأل الأذكياء.

إنّ وقفك «أو صدقتك الجارية» هي عمرك الحقيقي، وعملك

(1) نفسه (31/16).

(2) متفق عليه؛ رواه البخاري (1)، ومسلم (1907).



النافع، وابْنُك الخالد، فلا تتخذ قرارَكَ بشأنه في لحظة ولا ما فوق ذلك، -نعم انوه الآن بإخلاص، واعقد العزم عليه فوراً بصدق- ثم تروّ في التنفيذ والاختيار حتى تقع على النافع فعلاً، الذي يستفيد منه الخلق بحق، لا تجر وراء الذائع الشائع الذي يعمل كل أحد، كن نادراً، وقدر ما يندر ما تقوم به يعمّ نفعه ويكثر درّه الحسنات عليك.

وكذا كن ذكياً في إدارته وحسن نظره وتصريفه.

إنّ «دعلاج» هذا الإمام العَلَم يعلمنا كل ذلكم بموقفه ذاك حسنَ النظر، وحسنَ الاختيار، وحسنَ الإدارة؛ فهو يختار أن يضع أمواله في العلماء، ويجعل من بعضها وقفاً عليهم، ويعمل ذلك أثناء حياته، بنفسه، ليقوم عليه بحسن الإدارة وإصلاح المسيرة ما حيي! فله درّه!

وإنها للفتة ينبغي أن يتبها لها المسورون من أهل الفهم؛ إننا نتمنى على أغنياء الأمة أن يتولّوا رعاية العلماء من الناحية الماديّة؛ ليسروا لهم مهمتهم، ولأن كثيراً منهم يعاني ظروفاً إن لم تقطعه عن مواصلة المسيرة فهي تبطئ به، لا ريب.



ولا يمكن أن نطلب من العالم تغيير مسار الأمة بإيقاظ غفلتها، وقيادة صحوتها، وتوجيه مسيرتها وهو يصبح ويمسي يفكر في تأمين لقمة عيشه، لنفسه ولأولاده!

سيما ونحن في زمان يدبر فيه ويخطط لإنهاك طلاب العلم الشرعي والدعاة والعلماء مادياً، حتى صار جلهم في أدنى مستويات الفقر!

والأصل أن يوجد وقفٌ إسلامي ينفق منه على العلماء -وطيلة حياة الأمة والواقفون يفعلون ذلك مشكورين مأجورين- لكنّ الدول نهب الأوقاف وصادرتها وتركت العلماء كلاً مستباحاً لكل من يملك قوّتهم؛ ليتحكم بسببه في مواقفهم! لكن هيهات! فهل يهبّ أولو الفضل والسعة لإنقاذ ملح البلد وعماد الأمة وقوامها؟

إنّ «دعلاج» في هذا الموقف يلخص لنا الدرس الأعظم في الحياة، بوجه غاية في الوضوح والظهور، حين يتوجّه بالكفالة والرعاية لعلماء الأمة دون غيرهم؛ ليعرّفنا أنهم العنصر الرئيس في مجال الإصلاح العام، الذي يتبعه كل إصلاح، فبصلاح العالم يصلح العالم.



وإضافة إلى إكرامه العلماء كانت لدعلج أفضال على عامة الناس تظهر خصائله العظيمة وشمائله الكريمة، يكشف عن بعض ذلك ما نقله أبو بكر الخطيب قال: حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَدَّادُ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالْقُرْآنِ وَالصَّلَاحِ، عَنْ شَيْخِ سَمَاءٍ، فَذَهَبَ عَنِّي حَفْظَ اسْمِهِ، قَالَ: حَضَرْتُ يَوْمَ جُمُعَةٍ مَسْجِدَ الْجَامِعِ بِمَدِينَةِ الْمَنْصُورِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا بَيْنَ يَدَيَّ فِي الصَّفِّ حَسَنَ الْوَقَارِ، ظَاهِرَ الْخُشُوعِ، دَائِمَ الصَّلَاةِ، لَمْ يَزَلْ يَتَنَفَّلُ مَدْخُلَ الْمَسْجِدِ إِلَى قَرَبِ قِيَامِ الصَّلَاةِ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَ: فَعَلَتْنِي هَيْبَتُهُ وَدَخَلَ قَلْبِي مُحِبَّتَهُ، ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَمْ يَصَلِّ مَعَ النَّاسِ الْجُمُعَةَ، فَكَبَّرَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ حَالِهِ، وَغَاظَنِي فَعْلُهُ!

فلما قضيت الصلاة تقدّمت إليه، وقلت له: أيها الرجل ما رأيت أعجب من أمرك؛ أطلت النافلة وأحسنتها وتركت الفريضة وضيعتها؟

فَقَالَ: يَا هَذَا! إِنْ لِي عَذْرًا وَبِي عِلَّةٌ مَنَعَتْنِي عَنِ الصَّلَاةِ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ عَلَى دِينٍ، اخْتَفَيْتُ فِي مَنْزِلِي مَدَّةً بِسَبَبِهِ، ثُمَّ حَضَرْتُ الْيَوْمَ الْجَامِعَ لِلصَّلَاةِ، فَقَبِلَ أَنْ تَقَامَ التَّنْفِثُ فَرَأَيْتُ صَاحِبِي الَّذِي لَهُ الدِّينُ عَلَيَّ وَرَائِي، فَمِنْ خَوْفِهِ أَحْدَثَ فِي ثِيَابِي، فَهَذَا



خبري، فأسألك بالله إلا سترت عليّ وكتمت أمري، قَالَ: فقلت: وَمَنِ الَّذِي لَهُ عَلَيْكَ الدِّينُ؟ قَالَ: دَعْلَجُ بْنُ أَحْمَدَ.

قَالَ: وَكَانَ إِلَى جَانِبِهِ صَاحِبٌ لِدَعْلَجٍ قَدْ صَلَّى وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، فَسَمِعَ هَذَا الْقَوْلَ وَمَضَى فِي الْوَقْتِ إِلَى دَعْلَجٍ فَذَكَرَ لَهُ الْقِصَّةَ.

فَقَالَ لَهُ دَعْلَجٌ: امْضِ إِلَى الرَّجُلِ وَاحْمِلْهُ إِلَى الْحِمَامِ وَاطْرَحْ عَلَيْهِ خَلْعَةً مِنْ ثِيَابِي، وَأَجْلِسْهُ فِي مَنْزِلِي حَتَّى أَنْصَرَفَ مِنَ الْجَامِعِ، فَفَعَلَ الرَّجُلُ ذَلِكَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ دَعْلَجٌ إِلَى مَنْزِلِهِ أَمَرَ بِالطَّعَامِ فَأَحْضَرَ فَأَكَلَ هُوَ وَالرَّجُلُ، ثُمَّ أَخْرَجَ حَسَابَهُ فَنَظَرَ فِيهِ، وَإِذَا لَهُ عَلَيْهِ خَمْسَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ: انْظُرْ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ فِي الْحِسَابِ غُلْطٌ أَوْ نِسِي لَكَ نَقْدَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، فَضَرَبَ دَعْلَجٌ عَلَى حَسَابِهِ وَكَتَبَ تَحْتَهُ عَلَامَةَ الْوَفَاءِ، ثُمَّ أَحْضَرَ الْمِيزَانَ وَوَزَنَ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ وَقَالَ لَهُ: أَمَّا الْحِسَابُ الْأَوَّلُ فَقَدْ حَلَلْنَاكَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِيهِ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَقْبَلَ هَذِهِ الْخَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَتَجْعَلَنَا فِي حَلٍّ مِنَ الرُّوْعَةِ الَّتِي دَخَلَتْ قَلْبَكَ بِرُؤْيَاكَ إِيَّانَا فِي مَسْجِدِ الْجَامِعِ<sup>(1)</sup>.

لله تلك الشَّائِلُ وَالْكَرَمُ!

(1) تاريخ بغداد (9/ 366).



ومن ذلك أيضًا أن أصحاب الحاجات والضوائق ومن نزلت به نازلة كانوا يأتونه فيجدون عنده الفرج، ذكر الخطيب البغدادي عن أحمد بن الحسين الواعظ قال: أودع أبو عبد الله بن أبي موسى الهاشمي عشرة آلاف دينار ليتيم، فضاقت يده وامتدت إليها<sup>(1)</sup>، فأفققها، فلما بلغ الغلام مبلغ الرجال أمر السلطان بفك الحجرة عليه وتسليم ماله إليه، وتقدم إلى ابن أبي موسى يحمل المال؛ ليسلم إلى الغلام.

قال ابن أبي موسى: فلما تقدم إلي بذلك ضاقت علي الأرض بما رحبت وتحيرت في أمري لا أعلم من أي وجه أغرم المال! فبكرت من داري وركبت بغلتي وقصدت الكرخ، لا أعلم أين أتوجه! فانتهدت بي البغلة إلى درب السلولي، ووقفت بي على باب مسجد دعلج بن أحمد، فثنيت رجلي ودخلت المسجد فصليت

---

(1) تصرف ولي اليتيم في أموال اليتيم في مصلحة الولي، وقضاء حاجاته، وتنمية تجارته، ونحو ذلك، لا يجوز، لأن ذلك ليس من الإصلاح لليتيم، وليس من قربانها بالتي هي أحسن، أما إذا أنفقها ليحفظها لليتيم، بنية القرض؛ لكونه يخاف عليها إذا بقيت من التلف، أو السرقة، ونحو ذلك، ولم يجد ثقة يعمل في مال اليتيم، فهذا - والحالة هذه - يعتبر من الإصلاح، والحفظ لمال اليتيم، إذا كان الولي مليوناً، ليس على مال اليتيم خطر في بقاءه في ذمته.



خلفه صلاة الفجر، فلما سلم انفتل إلى ورحب بي وقام وقمت معه ودخل إلى داره، فلما جلسنا جاءته الجارية بائدة لطيفة وعليها هريسة، فقال: يأكل الشريف، فأكلت وأنا لا أحصل أمري، فلما رأى تقصيري قال: أراك منقبضاً، فما الخبر؟ فقصصت عليه القصة وأنني أنفقت المال، فقال: كل فإن حاجتك تقضى.

ثم أحضر حلواء فأكلنا، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا قال: يا جارية! افتحي ذلك الباب، فإذا خزانة مملوءة زبلاً<sup>(1)</sup> مجلدة، فأخرج إليّ بعضها وفتحها، إلى أن أخرج النقد الذي كانت الدنانير منه، واستدعى الغلام والتخت<sup>(2)</sup> والطيّار<sup>(3)</sup>، فوزن عشرة آلاف دينار، وبدرها، وقال: يأخذ الشريف هذه، فقلت: يثبتها الشيخ علي، فقال: أفعل، وقمت وقد كاد عقلي يطير فرحاً، فركبت بغلتي وتركت الكيس على القربوس<sup>(4)</sup> وغطيته بطيلساني، وعدت إلى داري وانحدرت إلى دار السلطان بقلب قوي وجنان ثابت، فقلت: ما أظنّ إلا أنه قد استشعر فيّ أني قد أكلت مال اليتيم واستبددت به

---

(1) الزبل جمع زبيل كأمير: القفة أو الجراب أو الوعاء (القاموس).

(2) التخت: الكرسي أو المقعد.

(3) الطيّر: ميزان الدراهم.

(4) القربوس: حنو السرج، قال الأزهري: وللسرج قربوسان (انظر اللسان).



والمال، فقد أخرجته.

فأحضر قاضي القضاة والشهود والنقباء وولاة العهود، وأحضر الغلام وفكّ حجره وسلّم المال إليه، وعظّم الشكر لي والثناء عليّ.

فلما عدت إلى منزلي استدعاني أحد الأمراء من أولاد الخليفة -وكان عظيم الحال- فقال: قد رغبت في معاملتك وتضمينك أملاكي ببادوريا<sup>(1)</sup> ونهر الملك<sup>(2)</sup>، فضمنت ذلك بما تقرر بيني وبينه من المال، وجاءت السنة ووفّيته، وحصل في يدي من الربح ما له قدر كثير.

وكان ضماني لهذه الضياع ثلاث سنين، فلما مضت حسبت حسابي وقد تحصل في يدي ثلاثون ألف دينار، فعزلت عوّض العشرة آلاف التي أخذتها من دعلج وحملتها إليه وصليت معه الغداة، فلما انفتل من صلاته ورآني نهض معي إلى داره، وقدم المائدة والهريسة، فأكلت بجأش ثابت وقلب طيب، فلما قضينا

---

(1) بادوريا: ناحية من كورة الاستان بالجانب الغربي من بغداد (ياقوت).

(2) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى يقال إنه يشتمل على ثلاث مئة وستين قرية (ياقوت).



الأكل قال لي: خبرك وحالك! فقلت: بفضل الله وبفضلك<sup>(1)</sup>، قد أفدت بما فعلته معي ثلاثين ألف دينار، وهذه منها عشرة آلاف دينار عوض الدنانير التي أخذتها منك، فقال: يا سبحان الله! والله ما خرجت الدنانير عن يدي ونويت أخذ عوضها.

**فقلت له:** أيها الشيخ! إيش هذا المال حتى يهب لي عشرة آلاف دينار، فقال: نشأت وحفظت القرآن وسمعت الحديث، وكنت أتبزّز<sup>(2)</sup>، فوفاني رجل من تجّار البحر، فقال لي: أنت دعلج بن أحمد؟ فقلت: نعم، فقال: قد رغبت في تسليم مالي إليك؛ لتتجر به، فما سهل الله من فائدة كانت بيننا وما كان من جائحة كانت في أصل مالي، وسلم إلي بارناجات بألف ألف درهم، وقال لي: ابسط يدك ولا تعلم موضعاً ينفق فيه هذا المتاع إلا حملته إليه واستبنت فيه الكفاءة، ولم يزل يتردد إليّ سنة بعد سنة؛ يحمل إلي مثل هذا، والبضاعة تنمي.

---

(1) هذا القول لا يجوز، والصواب أن يقول: بفضل الله ثم بفضلك؛ لما ثبت في المسند والسنن أن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، -رواه أحمد (23313)، وأبو داود (4980) وصححه الألباني فيه-، فنهى مطلقاً عن واو التشريك.

(2) البزاز: مَنْ يَتَجَرُّ فِي الثِّيَابِ.



فلما كان في آخر سنة اجتمعنا فيها قال لي: أنا كثير الأسفار في البحر فإن قضى الله علي بما قضاه على خلقه فهذا المال لك، على أن تصدق منه وتبني المساجد وتفعل الخير، فأنا أفعل مثل هذا، وقد ثمر الله المال في يدي، فأسألك أن تطوي هذا الحديث أيام حياتي<sup>(1)</sup>.

ليس هذا -الجود على أهل العلم وذوي الضائقات- عمل دعلج فحسب، فقد جاء في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب، أنه دخل الشام، وممر بالثغور الشاميّة، ووقف بطرسوس داراً على المجاهدين في سبيل الله تعالى، ووقف عليها وقفاً، وكان كثير المعروف والصدقات<sup>(2)</sup>.

لقد استفاد «دعلج» من ماله -إذن- وأفاد غيره، على خير ما يكون!

وصدق رسول الله ﷺ في قوله: «نعم المال الصالح للعبد الصالح»<sup>(3)</sup>.

(1) تاريخ بغداد (9/ 366).

(2) بغية الطلب في تاريخ حلب (7/ 3531)، لابن العديم، مكتبة الثقافة الدينية.

(3) رواه أحمد (4/ 197)، وغيره، وصححه الألباني.



لقد أكرمه الله بالمال فعرف كيف يكرم به نفسه في الدنيا والآخرة ويسوق الكرامة إلى غيره.

ويظهر أنّ «دعلج» لم يخلف وارثاً؛ إذ وقفت في السير على قول أبي ذر الهروي: سمعت أن معز الدولة أول ما أخذ من المواريث مال دعلج، خلف ثلاثمائة ألف دينار<sup>(1)</sup>، إن لم يكن ذلك غصباً، فإن معز الدولة هذا كان شيعياً بويهياً وهو أول من تسلط على الخلافة في بغداد بعد ضعف شأنها في أواخر عهد الدولة العباسية سنة (334 هـ).

ثم وقفت على قول أبي عبد الله الحاكم: «كان السلطان لا يتعرض لتركه، ثم لم يصبر عن أموال دعلج»<sup>(2)</sup>!

ولكن لئن كان ذلك الظالم قد اعتدى على أمواله واغتصبها، إلا أنه ترك أوقافه<sup>(3)</sup>، فلم يغصبها كما غصب ما خلفه من أموال، فبقيت صدقة جارية عليه بالخير إلى ما شاء الله.



(1) السير (16 / 34).

(2) نفسه.

(3) نفسه.



وكان «دعلج» قد اختار أولاً الإقامة في مكة المكرمة؛ رغبة في جوار البيت، وخدمة زائريه، ومحبة في نفعهم بما يستطيع، فاشترى بمكة دارَ العباسية بثلاثين ألف دينار<sup>(1)</sup>، وجاور بها مدة، لكنَّ حادثة وقعت له وقتئذٍ جعلته يحجم عن إتمام قصده، ويقصُّ أبو العلاء الواسطي أن دعلجاً سئل عن مفارقتة مكة، فقال: خرجت ليلة من المسجد، فتقدم ثلاثة من الأعراب، فقالوا: أخُ لك من خراسان قتل أخانا، فنحن نقتلك به! فقلت: اتقوا الله، فإن خراسان ليست بمدينة واحدة، ولم أزل بهم إلى أن اجتمع الناس وخلَّوا عني<sup>(2)</sup>.

وتحوَّل بعدها إلى بغداد، فأقام بها، وطاب له المقام هناك، حتى كان يقول: ليس في الدنيا مثل داري، وذلك لأنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا ببغداد مثل محلة القطيعة، ولا في القطيعة مثل درب أبي خلف، وليس في الدرب مثل داري<sup>(3)</sup>.

وفي عام (351 هـ) توفي دعلج بن أحمد بن دعلج المعدل، هذا

(1) السير (34 / 16).

(2) المنتظم (7 / 10) ابن الجوزي، دار صادر.

(3) تاريخ بغداد (8 / 389).



العلم الكبير<sup>(1)</sup> الذي ملأ زمانه علمًا وفقهًا، وملأه كذلك جودًا وسخاء وكرمًا، وهو ابن أربع أو خمس وتسعين سنة، وشاء الله أن يكون العام الذي شهد موته هو نفس العام الذي شهد موت شيخ القراء والمفسرين أبو بكر النقاش ببغداد، ومحدث الكوفة أبو جعفر بن دحيم، ومسند بغداد ميمون بن إسحاق صاحب العطاردي.

رحم الله الجميع وألحقنا بهم على خير.  
وإنّ في حياة «دعلج»، هذا التاجر العالم، والثري المحدث، والمليّ الفقيه لعبراً لأولي الأبصار؛ في همته وترحاله، وفي بره وإفضاله!

ومن هذه العبر: استغلال الممكن من الأسباب، فهذا -دعلج- رجل وظّف إمكانياته في تحقيق هدفه، فنعماً ما فعل؛ إذ استوضح الهدف، وسدّد إليه القصد والعزم، واستغلّ كل إمكانياته للوصول إليه!

وأول خطوات تحقيق هدفك -يا طالب العلم- أن تحدّد

---

(1) للنظر في سيرة «دعلج» والاستزادة من أخباره، راجع: تاريخ بغداد (387 / 8 - 392)، والسير (30 / 16)، وتاريخ الإسلام الطبقة (54)، والمنظم (7 / 10 - 14)، ووفيات الأعيان (2 / 271 - 272) وغيرها.



هدفك، وأن يكون على أساس نقاط قوتك، ثم تضعه على رأس أولوياتك واهتماماتك، وتصوّب إليه كل عزمك وتسعى إليه بكلّ همتك، لا تدّخر في سبيل ذلك أي شيء قد يساعدك على تحقيق هذا الهدف! وَضَعْ نصب عينيك أن هدفك عظيم، ومن ثمّ فالتضحيات أيضًا لأجله -بالتحلي أو التخلي- يجب أن تكون عظيمة، فإنه:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ  
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ  
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا  
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

واحذر، وقد سعيت إلى هدف غالٍ، أن تنسيك مغامم الطريق  
أو مغارمه هدفك الذي تسعى فيه!  
واستعن بالله -أخي- ولا تعجز!





القاصر بالله  
رأس الخلفاء  
والفقيه المصنف





## القادر بالله رأس الخلفاء والفقيه المصنّف

التاريخ بالنسبة لأئمة أمة هو مجال اعتزازها وموطن القدوة فيها، ومن ثم يعمد أعداؤها إلى تشويهه في محاولة منهم للقضاء على أسوة الأمة، فيفسد عليها صنع حاضرها، فإنه لا حاضر لأمة تحتقر ماضيها، ولا مستقبل لأمة تهمل حاضرها، ومن ثم فقد تعرض التاريخ الإسلامي من قبل أعدائنا لأكبر قدر من الغزو الفكري، وركز هؤلاء الأعداء على تشويه تاريخ الأمة الإسلامية، وقد نجح عملهم هذا في حصاد أهدافه إلى حد كبير، فأعرض المسلمون عن تدبره، وربما ابتعدوا عن تذكره، وعدوا ذكره عيباً أو شيئاً.

إنّ تاريخ الأمة الإسلامية تاريخ حافل بالأجداد، وهو بلا شك إذا تدبرته الأجيال كان باعثاً لهم على النهوض والتمسك بالمبادئ والآداب والقيم التي جعلت الأجداد يحوزون هذا المجد والفخار، ويصلون إلى هذا المستوى الراقى في بناء الأمة والحضارة، ويبحثون عن السر الذي رفعهم إلى هذا المستوى، وأنه هو إيمانهم بالله وتمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل الله، ومن ثم يسعون لانتشال



أنفسهم من الوضع المتردّي الذي وصلوا إليه، وأمامهم الصورة الجليلة والقدوة الممتازة في شخص رسولنا الكريم ﷺ الذي أخرج الله به الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والأهواء وتحكم الطواغيت إلى التوحيد والعدل والأمن والطمأنينة، ومن الفقر وضيق الحال والشتات إلى الغنى وسعة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله.

وكذا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين حملوا الراية وآزروه ونصروه، وأيضًا بقية الأجيال من السلف الصالح من العلماء والزعماء والقادة والمصلحين والدعاة إلى الحق.

والنماذج الممتازة في التاريخ الصالحة للقدوة ليسوا أفرادًا يمكن حصرهم، ولكنهم أجيال وأجيال، في مجالات الحياة كافة؛ العسكرية والسياسية والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا لا يوجد في تاريخ أية أمة أخرى؛ لما لهذه الأمة من خاصية الاستمساك بالمنهج الرباني.

والتاريخ الإسلامي هو الذي يسجل هذه الصور السامقة ويوضح دور الأمة وأثرها وفضلها على البشرية، ولذلك لا نستغرب إذا ركز الأعداء في غزوهم الفكري على التاريخ



الإسلامي حتى ناله كثير من التشويه والتحريف والتجهيل والتزييف والتفسير الخاطئ لأحداثه ومزاحمته بتواريخ الأمم الجاهلية حتى يبدو حلقة صغيرة أو كمًّا مهملاً في تاريخ البشرية.

ولقد قام على تشويه التاريخ الإسلامي في العصر الحديث جيش بل جيوش من أذئاب الاستشراق والتنصير ودوائر البحث ومكاتب المخابرات في الدول الغربية، واستطاعوا أن يجندوا مجموعة من ضعاف النفوس والمغربين والجهلة وضحايا الغزو الفكري في العالم الإسلامي لمساعدتهم ونشر أفكارهم بين المسلمين<sup>(1)</sup>.

ولم يتعرّض منصب في تاريخ الإسلام للتشويه والتزييف مثلاً تعرّض منصب الخليفة؛ فادّعت على الخلفاء الدعاوى وروّجت عنهم الأكاذيب، وصوّر الخليفة بصورة العايب اللاهي الذي لا همّ له إلا معاقرة الخمر ومضاجعة النساء وحضور الحفلات الراقصة ومنادمة الشعراء والأدباء في مجالس الليل!

وليس الأمر كذلك، بل ساءهم أن تعرف الأمة تاريخها

---

(1) وسائل الغزو الفكري في دراسة التاريخ، مقال: محمد بن صامل السلمي، مجلة البيان، عدد (20).



وتنقّب فيه عن قدواتها، فإذا هي تتخذ من هؤلاء الخلفاء أسوة ومثلاً يحتذى في مجالات الدين والدنيا، فإنهم كانوا -فعلاً- كذلك؛ والأمثلة على هذا لا تقف تحت الحصر، وفي هذه السطور نلتقي بواحد من هؤلاء الخلفاء العظام، قدوة طيبة في مجال الملك والحكمة معاً، فهو خليفة من الخلفاء الذين كانوا على بسطة عظيمة من حكم وإدارة الدولة، وهو أيضاً عالم من العلماء الذين آتاهم الله العلم والحكمة، وهو الخليفة القادر بالله، أبو العباس، أحمد بن الأمير إسحاق، أحد خلفاء بني العباس، ورأسهم.

كان الخليفة «القادر بالله» من جلة الخلفاء وأمثلهم<sup>(1)</sup>، بل هو رأس الخلفاء الذين أتوا بعده جميعاً؛ وقد طلب العلم حتى تفقه، وصنّف، وناهيك بأن الشيخ تقي الدين ابن الصلاح عدّه من الفقهاء الشافعية، وأورده في طبقاتهم<sup>(2)</sup>!

لم يكن القادر ابن خليفة، إنما كان أبوه أميراً من الأمراء، بينما كانت الخلافة في أعمامه، فلما خلع الناس «الخليفة الطائع» بعثوا في طلبه من مكان إقامته، وولوه الخلافة فكان بها خليفاً؛ يذكره

---

(1) السير (15/ 127).

(2) طبقات الشافعية (1/ 324) ابن الصلاح، وانظر: طبقات الشافعية (2/ 310) الإسنوي.



الحافظ ابن كثير فيقول: كان الخليفة «القادر بالله» من خيار الخلفاء، وسادات العلماء، في ذلك الزمان<sup>(1)</sup>.

ولد «الخليفة العالم» سنة (336)، وتوفي سنة (422)، فكان عمره (87) سنة، وهو عمر لم يبلغه أحد من الخلفاء على الإطلاق! وبويع له بالخلافة سنة (381)، واستمر فيها حتى وفاته، فدامت بذلك خلافته (41) عامًا، وهذه المدة من أطول المدد في الخلافة.

كان «القادر» خليفة مهيبًا، وعالمًا وقورًا، وعابدًا متأهلًا، وكان من الستر، والديانة، والسيادة، وإدامة التهجد بالليل، وكثرة البرّ والصدقات، وحسن الطريقة، على صفة اشتهرت عنه وعرفه بها كلُّ أحد، مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد<sup>(2)</sup>.

قال عنه ابن كثير: - وقد كان حليماً كريماً، محباً لأهل العلم والدين والصلاح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان على طريقة السلف في الاعتقاد، وله في ذلك مصنفات كانت تقرأ على الناس، وكان أبيض، حسن الجسم، طويل اللحية، عريضها،

(1) البداية والنهاية (11/ 331).

(2) السير (15/ 127).



يخضبها، وكان يقوم الليل، كثير الصدقة، محباً للسنة وأهلها، مبغضاً للبدعة وأهلها، وكان يكثر الصوم ويبرّ الفقراء من أقطاعه؛ يبعث منه إلى المجاورين بالحرمين، وجامع المنصور، وجامع الرصافة<sup>(1)</sup>.

ويذكر المؤرخون أنّ «الخليفة العالم» كان قائماً بحق منصبه الذي بوّاه الله، وكان كذلك قائماً بحق العلم الذي وهبه الله إياه، يخدم العلم بمنصبه ويسخره لتحقيق الأهداف النبيلة.

وقد كانت الخلافة قبل «القادر بالله» مطمع الفرق من الديلم والأتراك، فلما وليها أعاد جدّتها، وجدّد ناموسها، وألقى الله هيبتها في قلوب الخلق، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها.

كما أنّه عمل في نفسه ودولته بموجب علمه الذي تعلّمه، ولنعم ما علم وعمل، حتى وصفه صاحب ذيل تجارب الأمم الروذراوري رحمه الله قائلاً: -«سلك من طريق الزهد والورع ما تقدمت فيه خطاه، فكان راهب بني العباس حقاً، وزاهدهم صدقاً، ساس الدنيا والدين، وأغاث الإسلام والمسلمين، واستأنف في سياسة الأمر طرائق قويمه، ومسالك مأمونة، لم تعرف منه زلة، ولا

---

(1) البداية والنهاية (15/ 637).



ذمت له خلة، فطالت أيامه، وطابت أخباره، وأقفيت آثاره،  
وبقيت على ذريته الشريفة أنواره»<sup>(1)</sup>.



طلب «القادر» العلم، وجدّ في طلبه، وهياً الله له الفقيه  
الشافعي والحافظ الصادق الرّحال محمد بن يوسف ابن بشر  
الهروي<sup>(2)</sup>؛ فتنقه على يديه، وبلغ في الفقه درجة جعلت المؤرخين  
يسجّلونه في فقهاء الشافعية، وترجم في طبقاتهم، وكان أيضاً على  
علم عظيم باعتقاد الصحابة والتابعين، وكان لذلك أثره العظيم في  
مستقبل حياته سلوكاً وعملاً، ظهر في سياسته وخلافته كما ظهر في  
مؤلفاته ومصنّفاته.



ألّف «الخليفة أبو العباس» مصنّفات كثيرة، ظهر خلالها فضله  
ووضح بها قدره وعلمه، منها:

كتابه «فضائل الصحابة»، وهو كتاب في علم أصول الدين،

---

(1) ذيل تجارب الأمم (3/ 207، 208) الروذراوري.

(2) راجع ترجمته في وفيات الأعيان (2/ 75)، والسير (15/ 105)،  
وشذرات الذهب (2/ 328)، وغيرها.



على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، بين فيه فضل أصحاب النبي ﷺ، وأورد مناقبهم.

وله أيضًا: كتاب عن فضائل عمر بن عبد العزيز.

وكتاب عن إكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن.

ورسالة بين فيها الاعتقاد الصحيح، وقد احتفل العلماء والعامّة برسالته هذه فكانت تقرأ كلّ جمعة، في حلقة أصحاب الحديث، بجامعة المهدي، وبحضرة الناس.

ويذكر ابن كثير أنّه صنف قصيدة فيها فضائل الصحابة، وغير ذلك<sup>(1)</sup>.

ومن الواضح في أسماء هذه الكتب أنّها تدور في فلك التأليف بمجال الاعتقاد، ولعلّ هذا بسبب ما كان يشغل زمانه من قضايا، فقد برزت على ساحة العلم والواقع وقتها فرقُ المعتزلة والشيعة وشغلت الناس كثيرًا، لا سيما ولم يكن مرّ وقتٌ طويلٌ على محنة خلق القرآن التي كان المعتزلة رأسها وأسّها، وأيضًا كان دعاة الحاكم بأمر الله العبيدي قد انبثوا من مصر وغيرها في أطراف

---

(1) البداية والنهاية (11/331).



الدولة الإسلامية يدعون الناس إلى دينهم!  
وهكذا ينبغي على العالم أن تشغله قضايا زمانه ويعي الواقع  
المعاصر له، إذ لا ينبغي أن يكون العلماء والدعاة بأطروحاتهم  
وأحاديثهم في وادٍ، وأن تكون الأمة بجراحها وآلامها في وادٍ آخر!  
نعم التخصص مطلوب، بل لا بد منه لكي يُتقن الإنسان فنًّا  
أو مجالًا، لكن ليس معنى ذلك أن ننزل عما يشغل الناس، وإلا  
ضاعوا وحوسبنا على ضياعهم، وكما يطلب من العالم التوازن بين  
واجب النفس وواجب الأمة، يطلب إليه كذلك التوازن بين  
متطلبات التخصص والاهتمام بتسخير بعض منها في خدمة  
القضايا التي تشغل الجماهير.

ومن تأمل سيرة النبي ﷺ وجد شيئًا كثيرًا في معرفته بواقعه  
وأحوال زمانه، بل وفي خبرته بطبائع الأشخاص وميولهم، وكذلك  
كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومثلهم علماء السلف مع ما كان في هذا  
الزمان من قلة الأخبار، وصعوبة الاتصال، وندرة وسائل المعرفة  
والاطلاع!

وفي القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾  
[الأنعام: 55]، وآيات غيرها كثيرة تحرّض المؤمنين على التبصّر



بزمانهم، وتحصّ أهل العلم على تقديم الحلول الإسلامية الصحيحة لقضايا الناس.

وفي السنة نراه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجعل وجهة صحابته في الهجرة بلاد الحبشة، معزّزاً ذلك بقوله: «إِنَّ فِيهَا مَلَكًا لَا يَظْلِمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ»<sup>(1)</sup>، وهذا يدل على معرفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأحوال الأمم في زمانه.

ومن قول بعض السلف: «رحم الله امرأ عرف زمانه فاستقامت طريقته».



كان القادر رَحِمَهُ اللَّهُ من أكثر الخلفاء رفضاً لفكر التشيع والرفض، كيفما كان شكله ونوعه؛ لإدراكه بعلمه خطره الجسيم الذي يهدد الأمة، فهو في هذا الباب قدوة للخلفاء والعلماء.

فألف القادر المصنّفات في الردّ على المبتدعة بغية تخضيد شوكتهم، هذا بحكم علمه، أما بحكم منصبه فقد اتخذ إجراءات عملية كان من أثرها أن محافكة الاعتزال، ونقص التشيع من بغداد وسائر أنحاء الدولة وتواری.

---

(1) أخرجه البخاري (3659).



لقد رصد حركة نشطة للدعوة إلى التشيع، فأمر بعمل محضر يتضمن الكشف عن حقيقة نسب العبيديّة -حكام مصر وقتها- وأنهم حقيقة منسوبون إلى ديصان بن سعيد الحرمي، لا إلى آل البيت عليهم السلام، ودعوتهم -كنسبتهم- ليست من الحق في شيء، وأن الحاكم بأمر الله هذا هو وسلفه أرجاس أنجاس، خوارج، أدياء، وأنهم كفار زنادقة، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، ولهذا عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية.

وقد أشهد القادر العلماء على ذلك المحضر، فشهدوا جميعاً<sup>(1)</sup>، ثم أمر ببثّه ونشره في الناس.

وأمر الخليفة ببث السنّة في جميع أنحاء خلافته، وبعث فيما بعث إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي في الهند بذلك، فامثل ابن سبكتكين لأمر أمير المؤمنين القادر، واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خراسان وغيرها، حتى إن الحاكم -العبيدي الرافضي- بعث إلى السلطان محمود داعياً يدعوه إلى طاعته، فما كان من السلطان إلا أن خرق كتابه وبصق عليه،

(1) السير (132/15)، والمنتظم (82/15 - 83).



وعمل على بث السنة بممالكه، بل هدد بقتل الرافضة، والإسماعيلية، والقرامطة، والمشبهة، والجهمية، والمعتزلة، وأمر بأن يلعنوا على المنابر، وأبعد جميع طوائف أهل البدع، ونفاهم عن ديارهم، وصار ذلك سنة في الإسلام<sup>(1)</sup>.

وقد شجعت مواقف القادر الخطباء والعلماء على الوعظ والتصنيف والتأليف في كشف زيف هؤلاء المدّعين، فقام الخطباء بتبصير الناس بحقيقتهم، لا سيما وقد عزل خطباء الشيعة وولى خطباء السنة<sup>(2)</sup>، وجازى العلماء جزاء حسناً ومالاً عظيماً على جهودهم في التأليف في هذا الغرض، ولما صنف الإمام «علي بن سعيد الاصطخري» كتاب «الرد على الباطنية»، أجرى عليه القادر جناية سنّية<sup>(3)</sup>.

وأيضاً استتاب من خرج عن السنة من المعتزلة والرافضة ونحوهم<sup>(4)</sup>.

ولما وقعت الفتنة العظيمة الطويلة بين الشيعة والسنة ببغداد، وقتل فيها جمع كبير، حتى كاد أن يقتل فيها علماء الإسلام كالشيخ

(1) السير (135 / 15)

(2) البداية والنهاية (626 / 15).

(3) البداية والنهاية (352 - 346 / 11).

(4) الصواعق المرسلة (1286 / 4).



أبي إسحاق الاسفرائيني وغيره، وحين بلغ ذلك الخليفة غضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنة، فحرّقت دور كثيرة من دور الشيعة، وانكسر الروافض<sup>(1)</sup>.

وجرت فتنة أيضًا بمسجد براثا، وضربوا الخطيب السني بالآجر، حتى كسروا أنفه وخلعوا كتفه، فانتصر لهم الخليفة وأهان الشيعة وأذّهم، حتى جاؤوا يعتذرون مما صنعوا، وأن ذلك إنما تعاطاه السفهاء منهم<sup>(2)</sup>.

لقد وقف القادر في هذه الفتن إلى جوار أهل السنة حتى نصرهم، وأعزهم الله به، كما يملئ عليه دينه وعلمه الذي تعلّمه.

وهكذا ينبغي أن يتفطن المسلم -حاكمًا ومحكومًا- لما يتهدد دينه من مخاطر وما يدهمه من خطوب، نحن في غنى عن الإشارة إلى الخطر الداهم الذي يتهدد بلاد المسلمين اليوم من قبل الشيعة، في إيران، والبحرين والجزيرة، ولبنان، وغيرها من بلاد المسلمين، ويزداد الأمر سوءًا بغفلة المسلمين عن دينهم فضلًا عن قدرتهم على دفع الشبهات عن أنفسهم، الأمر الذي يستدعي جهودًا كبيرة

(1) البداية والنهاية (11 / 389).

(2) البداية والنهاية (15 / 626).



من آحاد المسلمين، وحكامهم على سواء، فهل لهذا الخطر من قادر بالله، يوقف زحفها من جديد؟

وإن كان يطمئنا -رغم كل ذلك- أن الله تعالى يدبر لدينه ولا يدعه، فإن من أعظم نتائج الحروب التي تشهدها الأجيال الحالية تصحيح الاعتقاد بشأن الروافض، والتعرف بوسائل وأدلة عملية على خبثهم ومفارقتهم دين الإسلام بالكلية، وكنا قديماً نستغرب مثل ما أسنده اللالكائي عن الحسن بن عمرو أنه قال: قال طلحة بن مصرف: لولا أني على وضوء لأخبرتكم ببعض ما تقول الشيعة!



استتاب القادر فقهاء المعتزلة، كذلك، ف تبرأوا من الاعتزال والرفض، وأخذت خطوطهم بذلك، وأنهم متى خالفوا أحل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم<sup>(1)</sup>.

الحق أن الفضل يرجع إلى الخليفة القادر في حفظ دولة الإسلام من خطر المعتزلة، والحد من فكر الروافض، في عهده والعهود التي تلتها، إلى زمن طويل، وذلك بفضل ما قام به من أعمال، وقد كانت الوثيقة القادرية أعظم أعماله في هذا الشأن، فماذا عنها؟

---

(1) السير (15 / 134)، والعبر (3 / 98).



الوثيقة القادرية - أو الاعتقاد القادري -: هي وثيقة أصدرها الخليفة القادر بالله سنة (408)، وقد حددت المعتقدات التي يجب على المسلمين اعتقادها من عقيدة أهل السنة والجماعة، وحذرت من معتقدات أهل البدع من سائر الفرق.

وكانت قد انتشرت إذ ذاك دعوة الملاحدة المنافقين، وكان هذا مما دعا القادر إلى إظهار السنة، وقمع أهل البدع، فكتب الاعتقاد القادري، وأمر باستتابة من خالف ذلك من المعتزلة وغيره<sup>(1)</sup>.

وقد أورد نصّ هذه الوثيقة -الفريدة في مصدرها- ابن الجوزي في المنتظم، والذهبي في تاريخ الإسلام، وغيرهما من العلماء.

وتكررت قراءة هذه الوثيقة على العلماء والفقهاء، وفي كلّ مرة تقرأ فيها كانت تؤخذ خطوطهم بموافقة ما سمعوه.

وبهذه الوثيقة<sup>(2)</sup>، إضافة إلى ما ذكرنا، تتضح لنا الجهود العظيمة التي بذلها هذا «الخليفة العالم» للدين من خلال منصبه.



(1) نقض التأسيس (331/2) ابن تيمية.

(2) وإن كان فيها بعض ما ينكر، انظر: تاريخ الإسلام (9/494).



في ذي الحجة من سنة (422) مات الخليفة القادر بالله، وكان ذلك في أول أيام التشريق، وصلى عليه ابنه القائم بأمر الله، وكان عمره (87) وما علم أحدٌ من خلفاء هذه الأمة بلغ هذا السن، حتى ولا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد بارك الله ذرية القادر ومكّن لدولته، حتى إن كل من جاء بعده من الخلفاء في بغداد والقاهرة كانوا من ذريته<sup>(1)</sup>، وهذا من بركة العمل بالشرع في المنصب والدولة - رحمه الله ورضي عنه -، وأيضا فأحفاده اليوم بالآلاف.



---

(1) إعلام الناس بحسن سيرة خلفاء بني العباس، عدة مقالات، منشورة بمنتدى فرسان السنّة.



أبو الفضل ابن  
حنزابة

**الوزير الأكمل**

**والإمام الحافظ**





## أبو الفضل ابن حنزابة الوزير الأكمل والإمام الحافظ

هذه سيرة وزير سليل وزراء، وهو مع ذلك عالم حافظ إمام مفيد من العلماء الباحثين<sup>(1)</sup>، فترنو إلى وزارته الأبصار، ويتطلع إلى علمه النظّار.

وهو الوزير أبو الفضل جعفر، ابن الوزير الكبير أبي الفتح الفضل بن جعفر، ابن الفرات البغدادي، المعروف بـ «أبو الفضل ابن حنزابة»<sup>(2)</sup>، وزر لكافور الإخشيدي في مصر<sup>(3)</sup>، مدة إمارته، ثم استقل كافور بملك مصر واستمر على وزارته، ولما توفي كافور استقل بالوزارة وتدير المملكة لأحمد بن علي بن الإخشيد بالديار المصرية والشامية<sup>(4)</sup>.

(1) الأعلام (2/ 126).

(2) حنزابة - بكسر الحاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي وبعد الألف باء موحدة مفتوحة ثم هاء - وهي أم أبيه الفضل بن جعفر، وكانت جارية، وفي اللغة: الحنزابة، المرأة القصيرة الغليظة، انظر: فوات الوفيات (1/ 292)، وتاريخ الإسلام (8/ 699).

(3) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (1/ 352)، السيوطي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار إحياء الكتب العربية.

(4) وفيات الأعيان (1/ 346)، ابن خلكان، ت. إحسان عباس، ط. دار صادر.



وطلب الحديث وجدّ في طلبه سماعاً من علماء بلده ورحلة إلى غيرها، فسمع ببغداد واجتاز بدمشق وسمع بها<sup>(1)</sup>، حتى صار إماماً فيه، حافظاً له، وكان معتنياً بالحديث غاية الاعتناء، ويبذل في تحصيله كلّ غالٍ ونفيس، حتى ليذكر الخطيب أن الوزير أبا الفضل قال: إنه سمع مجلساً من أبي القاسم البغوي، ولم يكن عنده، فكان يقول: من جاءني به أغنيته<sup>(2)</sup>.

وقد وظف منصبه لخدمة العلم فاستدعى العلماء وقصده الأفاضل من البلدان الشاسعة، وكان عنده عدة وراقين، يوفر لهم ما يعينهم على مهمتهم، ولو أدى ذلك إلى طلب من بلد بعيد، أو تكلف ذلك مالاً كثيراً.

وأنفق مالاً جزيلاً على الحفاظ أبي الحسن علي، المعروف بالدارقطني، لما ورده من العراق.

وكان محباً لأهل العلم يعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال الحسن بن أحمد السبيعي: قدم علينا الوزير جعفر بن الفضل إلى حلب، فتلقيه الناس، فكنت فيهم، فعرف أني محدث، فقال لي:

---

(1) تاريخ دمشق (72 / 141).

(2) تاريخ الإسلام (8 / 699).



تعرف إسنادًا فيه أربعة من الصحابة؟ قلت: نعم؛ حديث السائب بن يزيد، عن حويطب، عن عبد الله بن السعدي، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في العمالة.

فعرف لي ذلك، وصار لي عنده منزلة<sup>(1)</sup>.



ولم يكن «الإمام الوزير» بالجامع الذي يفوته معنى ما يجمع، ولا بالحافظ الذي يخفى عليه فقه ما يحفظ، بل في كلامه على الحديث ما يدل على حدة فهمه ووفور علمه<sup>(2)</sup>.

علا كعب الوزير أبو الفضل في العلم حتى صار به أشهر وأعرف من الوزارة، فحدث عنه علماء كبار ونقاد فحول، منهم: الدارقطني -جاءه إلى مصر؛ من العراق<sup>(3)</sup>-، والحافظ أبو محمد عبد الغني المصري، وطائفة، بل أسند عنه شيوخ كبار يتقدمونه كثيرًا في العلم والحديث كحمزة بن محمد الكناني الحافظ، فإنه -مع علو كعبه- روى عنه<sup>(4)</sup>.

(1) تاريخ الإسلام (700 / 8).

(2) حسن المحاضرة (1 / 353).

(3) تاريخ بغداد (8 / 156).

(4) تاريخ الإسلام (8 / 699).



وكان الوزير أبو الفضل محباً للعلم، يقدّمه على الوزارة  
-وعلى كلّ شيء- ولا يقدّم شيئاً عليه أبداً، قال السلفيّ: كان ابن  
حزابة من الحفاظ الثقات، المتبجّحين بصحبة أصحاب الحديث،  
مع جلالة ورياسة، يروي ويملي بمصر في حال وزارته، ولا يختار  
على العلم وصحبة أهله شيئاً<sup>(1)</sup>.



أملى الوزير أبو الفضل الحديث بمصر، وبسببه خرج  
الدارقطني إليها، فإن ابن حزابة كان يريد أن يصنف مسنداً،  
فجاءه الدارقطني، وأقام عنده مدة، فلم يزل عنده حتى فرغ من  
تأليفه، وحصل له منه مال كثير<sup>(2)</sup>.

وقد ورث العلماء عن أبي الفضل مسانيد تحوي ألوف  
الأحاديث، قال ابن طاهر: رأيت عند الحبال كثيراً من الأجزاء  
التي خرجت لابن حزابة، وفي بعضها الجزء الموفي ألفاً من مسند  
كذا، والجزء الموفي خمسمائة من مسند كذا، وكذا سائر المسندات<sup>(3)</sup>.

---

(1) السير (485 / 16).

(2) تاريخ دمشق (142 / 72).

(3) السير (487 / 16).



وروى عنه الدَّارَقُطْنِيُّ في كتاب «المديح» وغيره أحاديث<sup>(1)</sup>.

وله مصنّفات في أسماء الرجال والأنساب، وقد جعل مطالعة أنساب العرب علمه، وقصر على الاعتناء بها نفسه، فهو يدرس أنساب أهل البادية ويتعلّمها، ويبحث عنها بجهدهِ ويتفقّدها<sup>(2)</sup>.  
وله من المصنّفات غير ذلك.

وهذا شأن من لم يضيّع عمره عبثاً، بل شغله بكلّ مفيد نافع.



وابن حنّابة متعبّدٌ، مشتهرٌ بالعبادة؛ كان يصوم النهار، ثم يفطر، ثم ينام، ثم ينهض في الليل، ويدخل بيت مصلاه فيصفّ قدميه إلى الفجر<sup>(3)</sup>.

**يقول الذهبي:** وبلغنا أن أبا الفضل كان يفطر وينام نومة، ثم ينهض ويتوضأ ويصلي إلى الغداة<sup>(4)</sup>.

(1) تاريخ بغداد (8 / 156).

(2) شرح معاني شعر المتنبي (2 / 51) ابن الإفيلي.

(3) تاريخ دمشق (72 / 142).

(4) تذكرة الحفاظ وذيلوله (3 / 152)، الذهبي، ت. زكريا عميرات، ط. دار الكتب العلمية.



وهو -أيضاً- كثير الإنفاق في وجوه الخير، أنفق أموالاً عظيمة في البر وأنواع المعروف، لا سيما على أهل الحرمين، فقد كان كثير الإحسان عليهم<sup>(1)</sup>.

وقد اشترى ثلاث شعرات من شعر النبي ﷺ بهال عظيم، وأوصى إذا مات أن توضع في كفنه فلما غسّل جعلت فيه<sup>(2)</sup>.



توفي «ابن حنزابة» رَحِمَهُ اللهُ في سنة (391 هـ)، ودفن بالمدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقيل: بمصر، والأول ذكره الذهبي في السير، ولم يذكر غيره.

قال الحافظ ابن عساكر في كتابه العظيم تاريخ دمشق: ولم يزل في أيام عمره يصنع أشياء من المعروف عظيمة، وينفق نفقات كثيرة على أهل الحرمين من الأشراف وغيرهم، إلى أن تمّ له أن اشترى بالمدينة داراً إلى جانب المسجد، من أقرب الدور إلى القبر، ليس بينه وبين القبر إلا الحائط وطريق في المسجد، وأوصى أن يدفن فيها،

(1) تاريخ دمشق (72/ 142).

(2) للاستزادة من أخباره، انظر: ابن خلكان (1/ 110) والسير (16/ 487-488)، والنجوم الزاهرة (4/ 203)، وتاريخ بغداد (7/ 234)، وحسن المحاضرة (1/ 199)، وغيرها.



وقرر عند الأشراف ذلك فسمحوا له بذلك وأجابوه إليه، فلما مات وحمل تابوته من مصر إلى الحرمين، خرجت الأشراف من مكة والمدينة لتلقيه والنيابة في حمله، إلى أن حجّوا به وطافوا ووقفوا بعرفة، ثم ردوه إلى المدينة ودفنوه في الدار التي أعدها لذلك<sup>(1)</sup>. وفي سيرة «الوزير العالم» عبر، منها أن بمستطاع المرء نيل المعالي، في الدنيا والدين معاً، لا تعارض، وأيضاً لا استحالة، قد فعلها أقوام، وصحاحهم معاً.

لكن كيف؟

وليست الوزارة كالخلافة؛ تأتي الخليفة وراثته، على طبق من ذهب! بل هي دراية وعلم، عمل ونشاط، جدّ وإقبال، خبرة سنوات وعراك عقود! ومثلها -وأشد- العلم.

وهذا ابن حنابة، سعى للوزارة وإمامة الحديث، فاجتمعتا له، وحصلهما، فكان وزيراً فاضلاً بارعاً كاملاً، وكان عالماً محدثاً ثقة فقيهاً حافظاً.

وهذه عاقبة من أدرك هدفه، وعرف طريقه، وتعلّم بم يكون

---

(1) تاريخ دمشق (72 / 142).



الإقبال والإدبار، فعمل بموجبه!

فإن كنت تبغي أن تكون شيئاً مذكوراً - وأرجو من الله لك أن تكون - فاعرف هدفك، ثم أقبل عليه ولا تدبر.

تدري بم يكون الإقبال والإدبار؟

متى يقبل عليك ما تطلبه، حتى لتكون أوثق بها هو بعيد عنك  
أنه آتيك أكثر من ثقتك بنوال ما هو في يدك!  
ومتى يدبر عنك ما تحذره حتى لتكون آمن لما هو محيط بك  
تظن أنه مهلكك، أكثر من أمانك لما هو بعيد منك تظن أنه لا  
يطالك؟

تدري بم؟

أما الإقبال فبالنشاط والتواضع، فكن نشيطاً؛ أقبل على ما  
تبغي، خذ الأمر بقوة، استكمل أدواته بجِد، تيقّظ لما تهدف وتغلب  
على الخمول والكسل.

وتواضع في أخلاقك - لا في طموحاتك -؛ تعلّم من الكبير،  
واستفد من الصغير، سل من هو فوقك، ومن هو مثلك، ومن هو  
دونك، وقيد إفاداتك عن كلّ من تلقى عنده شيئاً يحقق بغيتك،  
وتقبله منه بقبول حسن، واشكر الله عَزَّوَجَلَّ - أولاً - على توفيقه ثم  
اشكره على ممن أفادك على ما علمك.



واعلم أن من التواضع سؤالك عما يغيب عنك إن كنت به جاهلاً، أو غير متحقق فتقارن علمك بعلم غيرك لتتيقن مما تعلم، واعلم أن التواضع أفضل العبادة والعلم.

بهذا -النشاط والتواضع- يكون الإقبال، وبهما أوصيك. وأحذر الإدبار، وسببها: الكسل والترفع، فالكسل يُلْزِمُكَ مكانك لا تبرحه، وربما رجع بك القهقري، والترفع يوردك المهلكة، ولا يدعك تتعلم شيئاً، فإن تعلّمت وترفعت عدت بعد العلم جاهلاً، وكان علمك عليك لا لك، وعسى أن يقول الناس: فلان عالم، وهو مكتوبٌ عند الله -عَزَّجَلَّ- من الجاهلين.

فأقبل -أخي!- بنشاط وتواضع، واحذر الترفع والكسل؛ تصل، وتيسر ليسرى، وفقك الله لما تريد.

ولعل من المفيد -في النهاية- أن أذكرك بيتين من الشعر مأثورين عن ابن «حنزابة» -ولم يؤثر عنه غيرهما-، فيهما ينبّه على أنّ بعض الراحة -على نيّة المواصلة- لا تضرّ؛ فلا ريب أنّ النفس تمل وتسلل إليها السّامة، ولذا تحتاج إلى شيء من الترويح بين وقت وآخر، فلا يحبط المرء كلال نفسه ولا يهزمه ملاها، بل يتفأل؛ فما بعد الراحة إلا اشتداد السير وما وراء الإجمام إلا العون



على تحمل المشاق وطرق الصعاب.

وكذا يلفت عظيم المهمة إلى ألا تحبطه حوادث الدهر ونوائبه  
-وقد أصابت أبا الفضل مراراً<sup>(1)</sup>-؛ فإنها تطل -في الغالب-  
أفاضل الناس -وما عساها تفعل بالصعاليك؟- كالريح إذا  
اشتدت عواصفها كان الشجر العالي أكثر شيء عرضة لها.

### وهذان البيتان هما:

من أخل النفس أحيائها وروحها  
ولم يبت طاوياً منها على ضجر  
إنَّ الرياح إذا اشتدت عواصفها

فليس ترمي سوى العالي من الشجر<sup>(2)</sup>

فاقتحم الباب، وتوكل على الله، ولا تكثر الالتفات إلى  
الحوادث والبكاء على الأطلال، وتذكر: من عاش خلف الأبواب  
في كنفه فلما غسّل، ومن اقتحم ودخل عاش أبد الدهر ملكها.



(1) الأعلام للزركلي (2 / 126).

(2) البيتان من "زهر الأكم في الأمثال والحكم" (3 / 97)، اليوسي، ت. د.  
محمد حجي، د. محمد الأخضر، ط. دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.



ابن حزم الأنديلسي

الوزير... الذي جده

الإسلام في القرن

الخامس



## ابن حزم الأندلسي الوزير الذي جدد الإسلام في القرن الخامس

هذه سيرة رجل من أكثر الناس حظاً في الحياة؛ أرفعهم منصباً، وأغناهم ثراء؛ اشتغل في شبابه بالوزارة، في عهدٍ كان ربيعَ دولة الإسلام في الأندلس، وتقلّب في أعظم نعيم العيش وأرغده، حتى كانت سررَ الملك مهادّه، وحدائقُ قصور الحكم ملاعبه، وحاضرة الدنيا يومئذ محلّ إقامته؛ فأعرض عن الرياسة وترك الوزارة، وودّع الملاعب والمغاني، وتفرغ لتحصيل العلوم والفنون! ولئن ارتاح باله من كدّ العيش والسعي وراء الرزق بسبب ما كان فيه والده، ثم ما كان هو فيه من منصب ومال، فإنه ما لبث أن وظّف هذا كله في التفرغ للعلم وتحصيله، والتأليف فيه والتصنيف، حتى لنراه بعد أمدٍ قصير يبرز جميع الأقران، ويسبق من كان أمامه في الرتبة بمراحل، ويحوي صدره علماً تعجز العصبة أولو الفهم من الأئمة عن جمعه وقراءته ووعيه.

على أنّ هؤلاء جميعاً من أبناء الفقراء الذين طلبوا العلم فلم يشغلهم عن طلبه شيء من الرغائب، وكان بعضهم في حرصه على



طلبه يهرب من عدَمٍ محقق، أما هو فكان كل ما حوله من المتع  
والملذات يغري بالترف والدعة والكسل؛ لقد كان وزيراً وأبوه من  
الوزراء، فنشأ في بيت نعيم وترف وجلالة ووجاهة، فغالب ذلك  
كله، وتعلم حتى كان أحد أعلام الأندلس، بل أحد أعلام الإسلام  
ورواده؛ ووصل إلى رتبة «مجتهد مطلق»، وقيل عنه: «إمام حافظ»  
بل: «مجدد القرن الخامس».

فسبحان الملك!

من رجل في مثل موضعه؛ يعيش بين الجواري الحسان،  
وتعزفه القيان، ويرفل في حلل النعيم، فإذا هو ليس همّه وغاية مناه  
وصل غانية أو طول عناق، إنما مناه ما يقول هو عنه:

مناي من الدنيا علوم أبثها

وأنشرها في كل بادٍ وحاضر

دعاء إلى القرآن والسنن التي

تناسى رجال ذكرها في المحاضر

لا غرو إذاً أن كان صاحبنا هو ... ابن حزم الأندلسي « أبو

محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم<sup>(1)</sup>.



**سألني صديقٌ يومًا: من هو ابن حزم؟**

**أصدقكم:** لم أستطع جوابه؛ إنَّ من العسير على من يعرف ابنَ حزم حقًّا أن يجيب بتعريفه في كلمات، أو جمل، أو حتى في ورقات؛ ولو أن الحكمة العربية تقول: من أخصب تحيّر، إلا أنها بشأن مثل ابن حزم تنقلب لتكون: من أخصب تحيّر!

وقد طفت بذهني في مآثر الرجل الكبير أودّ الظفر بما يقرب إلى صاحبي ما أريد قوله:

- فرأيت صورة المحلّي تبرز أمامي في أجزاءه الاثني عشر؛ فقلت: هذا ابن حزم، ولو عرّفته به لكان عظيمًا، وهل في كتب الإسلام في العلم مثل المحلّي؟

(1) للاستزادة من أخبار ابن حزم راجع: السير، للذهبي ج 18، وجذوة المقتبس، للحميدي، البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ج 6، وغيرهم في القديم، وفي الحديث: كتاب «ابن حزم... حياته وعصره آراؤه وفقهه» للعلامة محمد أبو زهرة، وكتاب «ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي»، وهو أطروحة للماجستير للدكتور عبد الباقي السيد عبد الهادي الظاهري، وسيرة ابن حزم، لـ سهير فضل الله، وكتاب «ابن حزم خلال ألف عام» لـ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.



وكيف لا ؟

أليس المحلّي الكتاب الذي أفاض ابنُ حزم خلاله في شرح  
فقه الصحابة والتابعين، وأخرج من ذلك كنوزاً نافعة، وكشف عن  
معين لا ينضب مأوه، ولا ينقطع ورّاده<sup>(1)</sup>، واستعرض فيه آراء  
الفقهاء والمجتهدين جميعاً، وساق أدلتهم مستوفاة، قبل أن ينقض  
عليها، مبدئياً رأيه فيها؛ مبدداً غمام خطئها، وجازماً بالصواب منها،  
وربما خالف آراء الفقهاء جميعاً، وبالاطلاع على المحلّي يجزم  
المنصف أن ابن حزم كان مجتهداً مطلقاً صاحب مذهب يتبع!

أليس المحلّي أشمل كتب الفقه لمقاصده، حتى كان درجاً «إلى  
التبحر في الحجاج، ومعرفة الاختلاف، وتصحيح الدلائل المؤدية  
إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن،  
والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، وتمييزها مما  
لم يصح، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار، وتمييزهم من  
غيرهم»<sup>(2)</sup>؟

أليس المحلّي أعظم الكتب الفقهية التزاماً للأثر، وتحرياً  
للأخبار، حتى إنه ليضم (12903) رأياً من آراء السلف، نسبها  
ابن حزم إلى 546 عالماً من علماء السلف، منهم من نسب إليه أكثر

(1) ابن حزم (ص 4)، أبو زهرة.

(2) المحلّي (1/ 169)، المنيرية.



من (600) رأي، ومنهم من لم ينسب إليه سوى رأي واحد، بالإضافة إلى (250) مسألة نسبها إلى جماعة من الصحابة، لم يعرف لهم فيها مخالف<sup>(1)</sup>؛ ومنها نفائس انفرد باستخراجها والكشف عنها، فكان المحلّي بذلك من دواوين الإسلام المهمة، وثروة لا يُستغنى عنها.

هذا وهو لم يكمله، فكيف به لو أكمله<sup>(2)</sup>؟

أليس المحلّي كتاب ابن حزم، مجدد الإسلام في قرنه الخامس، الذي يتحتم أن يعرف المجددون له من قدر كتابه ما عرف العز ابن عبد السلام، حين قال: «ما رأيت في كتب الإسلام مثل «المحلّي»، و«المجلّي»<sup>(3)</sup>، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين؛ في جودتها، وتحقيق ما فيها، بل ونقل عنه أنه قال: «لم تطب نفسي بالإفتاء حتى صار عندي نسخة المغني»<sup>(4)</sup>.

أليس المحلّي.. أخرجني من تفكيري صوت صديقي يستفهمني:

ألم تسمعني؟ سألتك: من هو ابن حزم؟ فشردت!

(1) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي، (ص96)، د. عبد الحليم عويس رَحِمَهُ اللهُ.

(2) الكلام حول تكملة المحلّي؛ هل هي لابن حزم أيضًا، أو لولده أبي رافع؛ كلام طويل الذيل، فليرجع إليه في المقدمات التحقيقية للكتاب.

(3) «المحلّي»، و«المجلّي»، كلاهما لابن حزم، والأول شرح فيه الثاني.

(4) المقصد الارشد (2/ 18)، لابن مفلح، مكتبة الرشد.



نظرت فوجدت بسمه رقيقة ترسم على وجهه، ذكّرني نعيم  
الأنس ببستان ابن حزم الخصب، وأنا فيه بعد أتحير؛ ما الذي  
لصديقي أتحير؟

فرأيت صورة ابن حزم تبرز أمامي؛ فإذا صورة العالم، الإمام،  
الجليل، المحدث، الفقيه، مجدد القرن الخامس، فخر الأندلس،  
صاحب التصانيف الممتعة في المعقول والمنقول، والسنة، والفقه،  
والأصول، والخلاف، التي تبلغ مئات؛ فابن حزم هو أكبر علماء  
الإسلام تصنيفاً وتأليفاً بعد الطبري!

\*\*\* رأيت صورة الواله، الذي كتب في الحبّ وأصوله  
وأعراضه وصفاته، حتى حير العشاق والمحبّين؛ كيف خبر الكلام  
ذلكم الخبر، وسبر الأغوار ذلكم السبر؟

حتى وُصف كتابه «طوق الحمامة» بأنه «أروع كتاب درس  
الحب في العصر الوسيط، في الشرق والغرب، في العالمين المسيحي  
والإسلامي، وأنه غير مسبوق في التراث العربي الإسلامي، فضلاً  
عن جسارة مؤلفه وصراحته، وجمعه في المعالجة بين التحليل  
النفسي، والواقع التاريخي، والتجربة الذاتية»<sup>(1)</sup>.

(1) مقدمة كتاب طوق الحمامة (ص 9-10) بقلم، الدكتور الطاهر أحمد  
مكي، نقلاً عن كتاب ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي (374)، د.  
عبد الحليم عويس، الزهراء للإعلام العربي.



فهل يكتب عن «العشق والعشاق، والإلف والألأف، كتابة من ذاق طعم الحب، وعرف ما تعتلج به نفس المحبِّ، وما يختلج في ثنايا صدره من لواعج العشق»<sup>(1)</sup> إلا محبٌّ وحبیب؟

وذلك بأرقى عبارة، وأنقى لفظ، وأصون أدب، وأسمى حياء.

\*\*\* رأيت صورة الباحث والكاتب والمؤلف، الذي أربت كتبه على (400) كتاب، والمحدث المجيد الحافظ، الذي يحوي صدره من الأحاديث والآثار ما يعجز عنه فئام من الحفاظ، عالم الملل والنحل؛ قديمها وحديثها، المجادل فيها، المناظر، قوي العارضة، شديد المعارضة، الذي ذاد عن حياض الإسلام هجمات اليهود والنصارى، ورد افتراءاتهم، وأوضح دسائسهم، وقد كانوا في الجوار يومئذ، فألقمهم حجراً، وأعوزهم إلى الحجة لدينهم عند عامتهم! وهو في ذلك كله بليغ العبارة، بالغ الحجة، أريب!

\*\*\* رأيت صورة الشاعر الثائر، الذى يقارب بشعره فحول الشعراء، ويمتاز نثره بالبراعة في المعنى، وجودة الخيال، ونصاعة اللفظ وإشراق الأسلوب، ويجمع فيما كتب من نثر فني بين جودة التعبير وحسن التصوير، وسلامة المعنى، وعمق التفكير،

---

(1) في الكلام قبسات من كتاب ابن حزم (8)، أبو زهرة.



وبراعة الاستهلال، وجودة الخيال، يصف خلجات النفوس  
ونبضات القلوب في عبارات فياضة بالأحاسيس وصور بيانية  
رائعة، حتى إنه ليعد في الصف الأول بين النثرين، ولم يكن تنثره  
ضجة ألفاظ، بل كان معنى جميلاً عميقاً، في دياجة أنيقة مشرقة<sup>(1)</sup>.  
أكتمه ويكشفه شهيق

يلازمني وإطراق طویل  
ووجه شاهداتُ الحزن فيه

وجسمٌ كالخيالِ ضنّ نحيل  
وأثبت ما يكون المرء يوماً  
بلا شك إذا صحّ الدليل.

\*\*\* رأيت صورة «الوزير» الذي وزر أربع مرات، فكان ذا  
حظوة ومكانة عند من وزر لهم .. «ابن الوزير» فقد تولى أبوه  
الوزارة -أيضاً- لثلاثة من الملوك: المنصور ابن أبي عامر، وابنه  
المظفر، وابنه عبد الرحمن شنجول، وهؤلاء من أعظم ملوك  
الأندلس، وكان ذا حظوة لديهم... فهو إذاً الوزير ابن الوزير؛ مما  
كان له أعظم الأثر في رفاهية حياة الأسرة؛ سكنى في قرطبة  
حاضرة الأندلس، ملاصقاً للزاهرة؛ قصر الحكم؛ وجاهاً عريضاً

---

(1) نفسه.



توفّره الوزارة، وثناء وغنى، فارتاح البال من كد العيش، والسعي وراء الرزق، فنشأ وعاش طويلاً في تنعم ورفاهية، حتى إن الأسرة امتلكت قرية بأسرها هي قرية «منت ليشم» المعروفة بـ «مونتيخار» حالياً، وهي عزبة قريبة من ولبة، وهي القرية التي قضى ابن حزم بها آخر أيامه.

العالم، والمحِب، والمناظر، والشاعر، والوزير، بل والثائر، كل هؤلاء رأيَتهم في شخص ابن حزم؛ فهالني أن تجتمع كل هذه الصور في شخص واحد، وأكبرت أن يعبر عن هذه الصور كلها كلمة أو كلمات، أو جملة أو عبارات!

**وتساءلت:** أتى لي بالتعبير عن هذه النفس الكبيرة في علوها، العظيمة في شرفها؟

ولو لم يذكر له من منقبة أو فضيلة إلا أنه الصادع بالحق -بعد ما تبين له- في ميادين الحق والكفاح، كما كان يصدع بالحق -بعد ما تحقق له- في ميادين العلم والكتاب والصفاح؛ لكفى!

لقد كان ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ عالماً حراً؛ تمذهب أول أمره بمذهب مالك وعایش بيئة المالكية العامرة في أرض الأندلس، ثم تحول عنه إلى مذهب الشافعي وتبحر فيه وناضل عنه حتى وسم



به، واطَّلَعَ في أثناء ذلك على مذهب أبي حنيفة. لكنه لم يرض لنفسه ودينه أن يتبع واحدًا من هذه المذاهب -مع إجلاله لأصحابها- بعدما رُزِقَ واسعَ الاطلاع على السنن والآثار، وحوى صدره الدليلَ وقلبه الحججَ والبراهين، إلى جوار ما كان يجمعه من فنون جمّة ويشارك فيه من علوم كثيرة، مع ثقافة متشعبة في العديد من المجالات، وإلمام بعلوم اللغة والأدب، واطلاع مستمر على الكتب والمؤلفات المختلفة؛ لقد كان واسع الاطلاع جدًّا على كتب ومصنفات ودواوين، ربما لم يسمع باسمها كثير من علماء زمانه، وفرتها له مكتبة زاخرة بالنفائس ورثها عن أبيه، بل قيل: «ما دخل الأندلس رجلٌ أكثر اطلاعًا من ابن حزم، بل ما يساويه، في الاطلاع، في تاريخ الإسلام، إلا قلائل، وفوق كل ذي علم عليم»<sup>(1)</sup>.

هذا كلّهُ إلى جانب ما كان يتمتع به من ذكاءٍ مفرطٍ وذهنٍ سيّالٍ.

فما ملك -بعد هذا كله- إلا أن يسلك طريق «نبد التقليد وتحرير الاتباع»، ليأخذ من هذه المذاهب ما وافق الحقّ الذي تبين له، ويترك ما قامت الحجة لديه بأنه ضعيف أو مرجوح، وقد تكلم

---

(1) مقال «منهج ابن حزم الأندلسي الظاهري» موقع الشيخ محمد الأمين بقلمه، ولعله تفريغ محاضرة.



ابن حزم بهذا، وأشاعه، حتى عرف عنه، فنفرت عنه القلوب، ووقعت به الندوب، وثارَت ضده الحناجر، حتى استُهدف لفقهائه وقته، وناظره مقدمو القوم وأئمتهم، فأفحمهم ابنُ حزم حين أبان عن بليغ الحجة، وقوة العارضة، وكان في المناظرة كما يقول ابن حيان: «يصك معارضه صك الجنادل».

فماذا فعل القوم وجاهه؟

لقد «تَمَلَّأُوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو منه .. ولم يبقَ عالم يخالفه إلا ناظره فغلبه بالحجة وأفحمه بالمحجة، فأوجد ذلك شيئاً في قلوبهم عليه، وكان -إلى جوار ذلك- ذا حدة ظهرت كثيراً في جدله، حتى قيل عنه: «لسان ابن حزم في المغرب كسيف الحجاج في المشرق».

وقد طفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره: قريته، تلك التي امتلكها أجداده!

بقي بها حتى مات في عام (456هـ)، وقد جاوز التسعين؛ مكباً على العلم، مقبلاً على تدريسه، وهذا هو الذي أسعده، وأفرحه، وملاً قلبه، ونفى غيظه، كما يعبر عن ذلك فيقول: «غازني أهل الجهل مرتين من عمري؛ أحدهما: بكلامهم فيما لا



يحسنونه أيام جهلي، والثاني: بسكوتهن عن الكلام بحضرتي، فهم  
أبدًا ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

وسرني أهل العلم مرتين من عمري؛ أحدهما: بتعليمي أيام  
جهلي، والثاني: بمذاكرتي أيام علمي<sup>(1)</sup>.

ولعل هذا يفسر لنا قناعته بالنفي، وزهده في الرئاسة، ولزومه  
منزله مكبًا على العلم وتعليمه، فلم يحاول الفرار، أو الكرار! حتى  
صار فوق ما كان، بل ربما استفاد من هذه المعركة الحامية فوظف  
حقدًا وحسدًا وضراءها وضراءها في المضيِّ قدمًا نحو ما يريد  
ويصله بما ينفعه، وكيف لا؟ وهو القائل: «لكل شيء فائدة، ولقد  
انتفعت بمحكّ أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقد طبعي،  
واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سببًا  
إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استشارتهم ساكني، واقتداحهم  
كامني، ما انبعثت لتلك التواليف<sup>(2)</sup>.

**الحق أنه لو قيل:** إن ابن حزم كان عالم الأندلس غير مدافع،  
ما عدا هذا القائل الحقيقة قيد أنملة، بل أزيد: كان ابن حزم ولا  
يزال أحد أعلام علماء الإسلام المعدودين.

---

(1) الأخلاق والسير (ص 68)، ابن حزم، دار المشرق العربي، القاهرة.

(2) نفسه (ص 111).



لكن .. أهكذا يقابل الرأي والفكر والنظر؟

بالبطش والقوة والقهر والنفي!

**ولنعلم ما قيل:**

بلاء ليس يعدله بلاء

عداوة غير ذي حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه

ويرتع منك في عرض مصون

ربما كان هذا بحد ذاته الذي جعل ابن حزم لا يقنع بموقفهم،

ولو تكاثرت أعدادهم، وامتد سلطانهم؛ إذ نظر إليهم وإلى نفسه؛

فرأى حجتهم السطوة والسلطة وأما هو فحجته العلم والدليل

والرأي ولذا حمل علمه هذا وجادل عنه من خالفه؛ اقتناعاً بما يقوله

واستناداً «إلى العهد الذي أحذه الله على العلماء: {لتبيننه للناس ولا

تكتُمونه}، فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ولا بتدريج،

بل يصك به من عارضه صك الجنادل، وينشقه إنشاق الخردل»<sup>(1)</sup>!

فلم يكن ليرجع -وهو كذلك- عن رأيه، بل هو سائر في

ذلك غير مرتدع ولا راجع، ييث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده،

من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة، الذين لا يخشون فيه الملامة؛

---

(1) السير (201/18).



يحدثهم ويفقههم ويدارسهم، حتى كمل من مصنفاته وقر بعير<sup>(1)</sup>!  
تلك الكتب التي أحرقت في عهد المعتضد بن عباد، فلم  
توهن عزيمة ابن حزم وراح يعزي نفسه في مصابه بها بقوله:  
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي  
تضمنه القرطاس بل هو في صدري  
يسير معي حيث استقلت ركائي  
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري  
دعوني من إحراق رقٍّ وكاغِدٍ  
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري  
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة  
فكم دون ما تبغون لله من ستر  
انقلب الدهر على ابن حزم إذًا؛ أدبرت عنه لذاته، وتوالت  
عليه فجائعه، فصدق فيه قوله:  
هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا  
فجائعه تبقى ولذاته تفنى

---

(1) نفسه.



إذا أمكنت فيه مسرة ساعة  
تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا

**ولا عجب فهذا شأن أولي الفضل:**

ذو الفضل كالنَّبر طَوَّرًا تحت ميفعة  
وتارة في ذرى تاج على ملك



لقد تعجبت كثيرًا لهذه المقابلة: «فكر وسيف»، أو «لسان  
وقوة»، وتفكرت في أسبابها طويلاً؛ أتساءل: ما عساه يكون وراءها  
من أسباب خفية؟

**يقول البعض:** هو حسد العلماء.

**وأقول:** ربما.

**ويقول آخر:** هو التعصب المذهبي!

**وأقول:** ربما.

**وأنا أقول:** العلماء فقط؟

فهذه الأسباب كلها تتعلق بهم لا بغيرهم!  
صحيح أن ابن حزم غلبهم، وقبح أقوالهم، وأظهر عجزهم،  
وطعن - كما أشاعوا - في أئمتهم.



لكن أفليس للملوك في ذلك يد؟ خاصة إذا تأملنا استجابة الملوك السريعة بإبعاد ابن حزم، فمنذ متى كان الملوك في طاعة العلماء لهذا الحد، حتى نراهم لا يكتفون بالنفي، بل يزيدون عليه هدم دوره، ومصادرة أمواله، بل وأحرقت كتبه في حاضرة المملكة؛ «إشبيلية»، وفرض عليه ألا يغادر بلدة أجداده «منت ليشم»، وألا يُفتي أحداً بمذهب مالك أو غيره، بل توعد من يدخل إليه بالعقوبة!! إن هذا الشيء عجاب!

أكلّ هذا لأجل فقهاء حاسدين، أو متعصبين، أو مغلوبين، أو حتى منتفعين من مناصبهم؟ ألا نجيل النظر في الأحوال لنرى، علّ النظر يرتد إلينا بشيء مقنع؟

فلا فعل!

يلفتني في الأحوال أن ابن حزم كان وزيراً أمويّاً، وكان والده كذلك؛ حتى إنه ليشار في ترجمته إلى « اتجاهاه للحزب الأموي وعمق ولائه لأمرائه وخلفائه»، وكل ذلك كان سبباً في حب ابن حزم، بل تعصبه، لبني أميّة؛ أصحاب لواء الخلافة بالأندلس.

ويُلفتني في الأحوال أيضاً أن الفترة التي عاش فيها ابن حزم -فترة ملوك الطوائف- كان أبرز خصائصها ضياع وحدة المسلمين



وانقسامهم إلى فئات متناحرة، مما كان له أثره في ضعف شوكة الإسلام وضياع هيئته في الجزيرة، فوصل ذلك الأثر إلى أن ملوك الأندلس تعهدوا بدفع جزية سنوية للملوك النصارى، مما أزعج كثيرًا من الأحرار علمائهم -ومنهم ابن حزم- وعامتهم، وكان ذلك الوضع المخزي يشبع القلوب حينًا إلى راية الخلافة الزاهية الزائلة التي كانت يومًا رمز الوحدة والعزة والهيبة!

ويُلفتني أيضًا في هذه الأحوال أن ملوك إشبيلية -أكبر ممالك الطوائف في الأندلس- قررت استغلال هذا الحنين الجارف إلى الخلافة بشيء زائف، فاستغلوا وجود شبه كبير في الخلق بين بائع حصر يدعى «خلف الحصري» وهشام المؤيد بالله آخر خلفاء بني أمية، فأشاعوا بين الناس أنهم عثروا على الخليفة هشام -وذلك بعد اثنتين وعشرين سنة من موته، وكان الناس في شك من أمر موته- وأنهم ينوون إرجاع عهد الخلافة الزاهر!

وكانت خدعة شبيهة هشام هذا صنيعة قاضي إشبيلية محمد بن إسماعيل (ابن عبّاد) بهدف تقوية أمره به وإنعاش دولته، وقطع أطماع ملوك الطوائف عنها، بل زاد فكتب ابن عبّاد إلى ملوك الأندلس يرغبهم في طاعة المؤيد هشام المزعوم، وأقام نيفًا وعشرين



سنة، يُحْطَب له على المنابر ويُدعى بأمير المؤمنين، وحجابه من آل  
عباد يحكمون البلاد على الحقيقة، ومات -الحصري- في أيام  
المعتضد، فأخفى موته إلى أن أحكم أمره، ثم أظهر ذلك سنة  
(451هـ)<sup>(1)</sup>.

ذلك الهراء لم يكن ليرجع على ابن حزم!  
فها هو الصَّفديُّ ينقل في «أعيان العصر» عن أبي محمد بن  
حزم قال: «أُنذِرنا الجفلي لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم،  
فرأيت أنا وغيري نعشاً، وفيه شخص مكفَّن، وقد شاهد غسله  
رجلان شيخان حكمان من حكام المسلمين من عدول القضاة،  
وخارج البيت أبي رحمه الله تعالى وجماعة من عظماء البلد، ثم صلَّينا  
عليه في ألوف من النَّاس، ثم لم نلبث إلا شهوراً نحو التسعة، حتى  
ظهر حيّاً، وبويع بالخلافة، ودخلت إليه أنا وغيري وجلست بين  
يديه، وبقي كذلك ثلاثة أعوامٍ غير شهرين وأيام، حتى لقد أدى  
ذلك إلى توسوس جماعة لهم عقولٌ في ظاهر الأمر، إلى أن ادعوا  
حياته، وزاد الأمر حتى أظهروا بعد ثلاث وعشرين سنة من موته

---

(1) انظر ترجمة هشام المؤيد بالله، في موقع المعرفة -موسوعة على الشابكة.



على الحقيقة إنساناً - يريد خلفاً الحصري - قالوا: هو هذا، وسفكت بذلك الدماء، وهتكت الأستار، وأخلت الديار، وأثيرت الفتن<sup>(1)</sup>.

لذلك يحملني التأمل على القول أن الأمر لم يكن عن حسد علماء، أو تعصب فقهاء فحسب، بل كان ذلك الظاهر هو الرماد، ووميض الجمر من تحته كان خشية الملوك لسان ابن حزم الذي ما يفتأ يتحدث بهم عند العامة، فيزري بمواقفهم، خاصة معايرته إياهم بسبب استعانتهم - بعضهم على بعض - بملوك النصارى واستنصارهم بهم، حتى إنه ليقول: لو يعلم هؤلاء الحكام أن في عبادة الصليب مصلحة لهم لعبدوه، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه<sup>(2)</sup>.

وهو لا يفتأ يكشف للناس أكاذيبهم، في أمر الخلافة وغيرها، ويجرّض العامة على الخروج عليهم، والسعي لتحقيق حنينهم المستمر للخلافة التي كانت - وفيها الأمل أن تعود - تحمي دينهم وتحميهم.

(1) أعيان العصر (1/ 226).

(2) انظر: فقه التمكين (ص 147)، الصلابي، نقلاً عن دول الطوائف (ص 406)، محمد عبد الله عنان.



ويؤيد ذلك التفسير أن موقف هؤلاء الفقهاء -ومعهم الملوك- من ابن حزم قد ظهر مبكراً، حتى قبل أن يجتهد بانفرادٍ عن المذاهب؛ حين كان على مذهب الشافعي، فما إن تمذهب به، وعرف عنه، وناصر آراءه، حتى بدت ردة الفعل عنيفة، وليست ردة فعل من يتعصب لمذهب على آخر!

أو يكون تمذهب ابن حزم بمذهب الشافعي ومخالفته مذهب مالك فقط -وإن كان مذهب سائر الأندلسيين رسمياً وشعبياً- سبباً لعداوة فقهاء الأندلس له؟

ولعل عبارة أبي مروان ابن حيان تفصح بوضوح، عما أريد قوله، وهذا نصُّها: «ومال -أي ابن حزم- أولاً إلى النظر على رأي الشافعي، وناضل عن مذهبه، حتى وسم به، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ»!

دار الكلام بخاطري سريعاً كالبرق، وتساءلت بعده: هل هذا يفي بتعريف ابن حزم لدى صديقي؟

فلم ألبث أن انتهت على هزات خفيفة بمنكبي، كأنني أحلم، وصديقي تعاتبني عيناه؛ أكل هذا لسؤال سألتكه، أتراك لا تعرف



الجواب، أم ما لك تتمنّع؟

ابتسمت بدوري وبادرت: ما جهلت، ولا تمنّعت، إنّما أحاول  
أن أمدّ يدي لأقطف لك شيئاً من بستانه، يغنيك في تعريفه،  
فيستعصي على نفسي أن أقول لك بشيء فيه: هذا هو ابن حزم،  
فتكون رأيت شيئاً منه، ولم تره كلّ، فلا تقدره وقتئذ حقّ قدره!

أيا صديقي السائل!

إنك سألتني: من هو ابن حزم؟

وجوابي لك: ابن حزم؛ هو ابن حزم.

أخي القارئ! هذه صورة ابن حزم، انطبعت في ذهني أنا،  
نتيجة قراءاتي في كتبه، وقراءاتي عنه، وأحسبها لا توفيه حقه،  
فلست أزعم بها، ولا أحلّ لأحد أن يزعم فيها أنها ترجمة لابن  
حزم!



هذا شيء -أو كما قلت: انطباع- من سيرة ابن حزم؛ الوزير  
ذي المناصب، الثريّ ذي الغنى، الذي هجر ملذات الجاه ومتع  
الحياة، إلى متعة ولذة رآها أعظم وأكبر من كل هاتيك الملذات.



وعودًا على بدء؛ يجدر بنا أن نسوق هذا الخبر نختم به هذه  
العبر، لعله يجد من يقفوا الأثر:

ناظر ابن حزم علماء عصره؛ ومن ناظر أبا الوليد الباجي  
مقدم المالكية في زمانه؛ فغلبه، وكان أبو الوليد فقيرًا بينما ابن حزم  
من علمنا؛ فقال الباجي - كأنه يعتذر بذلك عن هزيمته - أمام ابن  
حزم: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معان  
عليه؛ تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته أنا، وأنا أسهر على قنديل من  
قناديل الحرس».

**فقال ابن حزم:** «هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنما طلبت  
العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، أما أنا فلم أرج  
إلا علو القدر في الدنيا والآخرة»<sup>(1)</sup>.

يا لله على هذه النفس الأبية؛ «نشأ بين النساء وعرف من  
أسرارهن ما لم يعرفه أحد.. وحفظه الله من الحرام فنشأ بينهن  
عفيًا.. لكن نفسيته استوت بين الرجال صعبة المراس خشنة

---

(1) نفح الطيب (2/ 282)، المقري، وانظر: مناظرات في أصول الشريعة  
الإسلامية بين ابن حزم و الباجي، دكتور عبد المجيد تركي، دار الغرب  
الإسلامي.



القياد»<sup>(1)</sup>.

هذه النفس التي صنعت رجلاً استفاد منه كل من جاء بعده، حتى العز ابن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم، بل وجميع من خالفوه قد استفادوا منه، ولشدة تأثيره في قارئه وفي واقعه سمّوه منجنيق الغرب أو منجنيق المغرب.

ولعل السؤال الذي يرد على الذهن وجاه هذا الخبر هو: كيف استطاع ابن حزم النجاة من هذا، أو الترفع عنه؟

**والجواب:** قد أعانه على ذلك أمران:

**الأول:** أن والده رَحِمَهُ اللَّهُ وكل به رقيبات عليه.. وما أصعب رقابة النساء!

**والثاني:** أن الذي تولى رعايته في صباه هو أبو علي الفاسي وكان رجلاً متواضعاً عفيفاً فغرس العفة في ابن حزم، فلم يكشف إزاره على حرام قط منذ سن البلوغ»<sup>(2)</sup>!



---

(1) من مقال: «ابن حزم»، عبدالله عمر خياط، عكاظ (13 / 8 / 1435 هـ - 11 يونيو 2014 م).

(2) نفسه.



أمّا بعد، ففي سيرة ابن حزم فوائد فرائد، أهمّها:

أنّ بإمكان العالم التمهّر بفنون عديدة، لا بفنّ واحد، فليطرح  
-طالب العلم- عن باله التفكير بالاستحالة وعدم الإمكان،  
وليخل الفتور والعجز، وليسرج دابته ويشد عزيمته ويتخذ أهبتّه  
ويضنّي ويسهر لأجل غايته؛ يصل بإذن الله.

إن من الشائعات التي ترسخت في أذهان العالمين أخيراً القول  
إن عصر العلماء الموسوعيين انتهى بلا رجعة ولم يعد بالإمكان أن  
يكون لدينا عالم متبحر في فنون العلم المختلفة من تفسير وعلومه  
وحديث وعلومه ولغة وعلومها وبقية علوم الشريعة!

ويعلمون ذلك بأن العلوم قد تقسّمت وتجزّأت فاتسعت  
بحورها وأنهاها وكثرت مجاريها وقنواتها ولم يعد إلى الإمام بها من  
سبيل!

وهذه دعوى خطيرة، سلم لها كثيرون، فحملت نتائج ضارّة  
وتسببت في خسائر فادحة، لعل من أضرّها ما اتجه إليه البعض من  
القول بتجزؤ الاجتهاد! وهو قول قديم معروف مشهور.

ثم وجدنا من العلماء وطلاب العلم -حديثاً- من ذهب إلى



القول بالتخصص - لا في علم من العلوم - بل في كتاب واحد من كتب هذا العلم!

ولا أدري كيف يصح التخصص دون شمولية!

أو كيف يقبل الاجتهاد ممن لا يحسن إلا جزءاً من العلم والفقهاء!

وقد تسببت هذه الدعاوى في وقوع خسائر فادحة، لا تقل في فدحها عن الخسائر التي نجمت عن القول بإغلاق باب الاجتهاد الذي تبناه البعض في الفقه والبعض الآخر في الحكم على الأحاديث!

خسرنا بها عقولاً كبيرة ضاقت عن السعي والإنتاج، وهمماً عالية أخذت جذوة نشاطها تلکم الدعاوى.

وفي واقعنا المعاصر أمثلة تجاوزت هذه الدعاوى ولم تلتفت إليها؛ فكان أن ضربت المثل لكنهم قلة قليلة، ولولا تلك الشائعة لكان لنا - إن شاء الله - واقع أفضل.

ولست أدعو هنا إلى فوضى التبديد، وفي الذهن ضوابط الموسوعية حتى لا يحصل الإفراط في مقابل التفریط.



**والخلاصة:** العالم الموسوعي حقيقة، ممكنة، سهلة، لمن سعى إليها بجهد واجتهاد.

وكن رجلاً ناهضاً ينتمي \*\*\* إلى نفسه عندما يسأل  
فلست الثياب التي ترتدي \*\*\* ولست الأسامي التي تحمل  
ولست البلاد التي أنبتك \*\*\* ولكنما أنت ما تفعل

وهذه فائدة جليّة في حياة ابن حزم، وثمّ فوائد أخرى لا  
يعدمها المتأمل في سيرة عالم هو رأس في علوم الإسلام، متبحر في  
النقل، عديم النظر، ورجل كان في الفقه الإسلامي ظاهرة غير  
مسبوقة، وربما غير ملحقة<sup>(1)</sup>.



(1) التقيت ابن حزم ثلاث مرات؛ في كتابي «صفعات قادت إلى الخيرات»  
متناولاً سبب تحوّل ابن حزم إلى طلب العلم، وتوجهه إلى ساحته، ومنافسته  
فيه، حتى صار أحد الأئمة، ومجدد القرن الخامس. ثم هنا في كتابي: «علماء  
أغنياء أثروا العلم على الملذات»، وهو هذا، وأخيراً في كتابي «ملوك بلا  
تيجان» متناولاً مواقفه في الصدع بالحق، وإصراره على محاكمة الملوك إلى  
أحكام الشريعة، وفي النفس شوق إلى الاجتماع به مرات ومرات، فبعيد أن  
لا يجد الطالب جديداً في حياة ذلك الجبل كلما طالعها.



ابن هبيرة

أمثل

وزراء الإسلام





## ابن هبيرة أَمَثَلُ وَزَرَاءِ الْإِسْلَامِ

هذا حديث عن وزير فقيهه، وإمام محدّث، ملأ الدنيا بعلمه وفقهه كما ملأها بمنصبه ووزارته، حتى قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان من أمثال وزراء الإسلام، وكان له من العناية بالإسلام والحديث ما ليس لغيره»<sup>(1)</sup>.

والحديث عن هذا الوزير العالم يملأ النفس إشراقاً ونوراً، ويبعث في الروح عزيمة ومضاء، ذلك لأنه صعد من قاع عالمه إلى قمته ليس له من حامل إلا العلم، تحدوه إليه همة عالية وعزيمة ماضية لا يقف دونها شيء، فإذا شخصٌ كان لا يجد رغيّف خبز يعبر به نهر دجلة إلى الشاطئ الآخر لحضور درس العلم؛ يصير إمام زمانه ووزير دهره، فجمعت له إمامة الدنيا والدين معاً.

إنه الوزير العالم، والإمام العادل، صاحب السيرة الحسنة في الوزارة، جَمَّ الفضائل، وافر الحُرمة، كبير الشأن، دائم العدل، مؤلف المصنفات الرائقة، والمؤلفات الرائعة، عون الدين، أبو

(1) مجموع الفتاوى (4/ 23).

المظفر، يحيى بن محمد بن هبيرة، الشيباني، المعروف بالوزير ابن هبيرة<sup>(1)</sup>، أحد أعيان الفقهاء الصالحين.



ولد ابن هبيرة سنة (499)، وكان مولده بقرية بني أوقر، وهي قرية قريبة من بغداد، وقد قدر الله تعالى لهذا الصبي الكريم والدًا بصيرًا بواقع الفضل، عارفًا بمقامات الخير وخير المقامات، رغم أنه كان جنديًا عاديًا بقرية أوقر تلك، فقد أثر أنه كان يحث ابنه على تحصيل العلم والأدب وإدراك الفوائد، بل كان يمضي به صغيرًا إلى بغداد ويحضره إلى مجالس العلم، بل كان يقصد به إلى صدور المجالس<sup>(2)</sup>!

ولهذا نهض الصبي بعد وفاة أبيه -وقد خلفه وراءه صغيرًا- يكمل مسيرة التعلم غير آبه بفقر أو حاجة؛ إذ مات والده ولم يترك له شيئًا<sup>(3)</sup>، فورد بغداد في صباه، فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات والروايات، وسمع الحديث من أربابه في عصره، وأخذ

(1) انظر: الإفصاح عن معاني الصحاح (21/7)، والذيل على طبقات الحنابلة

(251/1) ابن رجب، والمتنظم (214/10)، ووفيات الأعيان (230/6).

(2) الفخري في الآداب السلطانية (312).

(3) العبر (173/4).



اللغة والأدب عن روادهما، وشارك في علوم كثيرة، حتى مهر في علوم الإسلام؛ الحديث، والفقه، واللغة والعروض، والأدب<sup>(1)</sup>.

لقد جمع العلم وحواه، وهو الخبير كيف يكون تحصيله، ولعل من المفيد أن نشير إلى شيء من تجربته في التحصيل، تدل عليه كلماته الذهبية التي سطرها في بعض كتبه، وهو قوله: «يَحْصُلُ العلم بثلاثة أشياء:

**أحدها:** العمل به؛ فإن من كَلَّف نفسه التكلم بالعربية دعاه ذلك إلى حفظ النحو، ومن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلَّم.

**والثاني:** التعليم؛ فإنه إذا علَّم الناس كان أدعى إلى تعليمه.

**والثالث:** التصنيف؛ فإنه يخرج به إلى البحث، ولا يتمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك الذي صنف فيه»<sup>(2)</sup>.

لقد سلك ابن هبيرة هذا المسلك فطلب العلم أول حياته، ثم لما تمكن ورسخت قدمه علَّم وصنف، فنفع الله به وبقي ذكره إلى يومنا هذا.

(1) انظر ذيل طبقات الحنابلة (3/ 251)، والبداية والنهاية (12/ 250).

(2) ذيل طبقات الحنابلة (1/ 273، 274).



هذا عن مسلكه في العلم فماذا عن مسلكه في التربية والأدب؟

إنَّ سيرة ابن هبيرة لتُظهر لنا بجلاء أن العلماء السابقين كانوا يتلقَّون -عن شيوخهم- السلوك، كما يتلقَّون العلوم: فيذكر أنه صَحِبَ أبا عبد الله محمد بن يحيى الزبيدي الواعظ الزاهد، من حديثه، وأخذ عنه التَّأْلُه والعبادة، وانتفع بصحبته حتى إن الزبيدي كان يركب جملاً ويعتم بإزار ويلويها تحت حنكه وعليه جبة وهو مخضوب بالحناء، فيطوف بأسواق بغداد ويعظ الناس، وزمام جملة بيد أبي المظفر ابن هبيرة، فكان ابن هبيرة يمسك بجملة هذا الواعظ يمشي به وهو يطوف على الناس يعظهم، وكلما وصل الزبيدي موضعاً، أشار أبو المظفر بمسبحته ونادى برفيع صوته: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»<sup>(1)</sup>.

وهذا مسلكٌ عظيم قد أهمله جُلُّ المسلمين اليوم في مجال طلب العلم، كان من أثره ذلك الشقاق والنزاع، بل والانتكاس الذي نراه في صفوف العاملين للإسلام اليوم!

---

(1) الذيل (1/ 251).



إنَّ التَّربيةَ الإسلاميَّةَ هي الأساسُ المتينُ الذي بنيتَ به وعليه حضارةُ المسلمين، بل إنَّ المتابعَ لحركة المدِّ الإسلاميِّ ليدرك أنَّ اللهَ فتحَ على المسلمين من آفاق الأرض بفضل السلوك والخلق أضعاف ما فتحه عليهم بالسيف والسنان!

ولذا وجب على العاملين في مجال التعليم وواضعي مناهج الطلب أن يعنوا بجانب التربية عنايةً كبيرة، ويولوه اهتماماً عظيماً، لا أبالغ إن طالبت أن تكون أعظم من العناية بمسألة العلم نفسه، فإنَّ العمل هو ثمرة العلم وغايته، وعلم بلا عمل كشجرة شوك، لا نفع فيها، وإنه لمكتوبٌ على باب العلم: إذا أنعم الله عليك بعلمٍ فليُرِّ عليك أثره، وإلا فلا تتعنى. ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري على اليبس

**ما زلت أقول:** إن «قضية العلم» لم يكشف عنها -إلى اليوم- كشفاً حقيقياً، كاملاً، وذلك في عدة جوانب، وهذا الجانب أحدها، فقد نَمَت لنا في مجال العلم أجيالٌ غفيرة، لكنَّها مائلة العود، خالية من رابط وثيق يربطها بجوهر هذا الدين في جانب السلوك والخلق، فأقواهم من الإسلام وأفعالهم أفعال من لم يسمع به قط،



وهؤلاء يضررون ولا ينفعون!

والحل في العودة إلى التربية الإيمانية الخالصة؛ لنخرج من التيه  
والخذلان والوهن الذي نحياه، وليس هذا نافلة أو تطوعاً بل  
ضرورة ملحة، وفرضاً محتماً، بل هو أولى الضرورات والمحتمات  
وما ينبغي أن تتجه إليه الجهود لأنه هو طريق الخلاص!



وقصة ابن هبيرة مع العلم والوزارة -معاً- قصة تدلّ على  
سعة فضل الله تعالى الذي يرزق المرء بكرمه الواسع من حيث يرى  
أنّه ضيق عليه، فإنّ ابن هبيرة لما مات والده ولم يترك له شيئاً وكان  
يطلب العلم أمضه الفقر واحتاج إلى موردٍ للكسب، ولهذا التحق  
بالخدمة السلطانية فحصل على وظيفة كاتب، ثم ترقى حتى صار  
مشرفاً على الخزانة، ثم رقي حتى صار صاحب ديوان الزمام، وهو  
ديوان يُعنى بالشؤون المالية المدنية والعسكرية، وفيه تُحفظ  
السجلات.

وذلك كله في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله<sup>(1)</sup>.

---

(1) ينظر: الكامل (9/ 363، 364)، والبداية والنهاية (12/ 225)، والذيل  
على طبقات الحنابلة (1/ 253).



وقد جاءت ترقية «ابن هبيرة» في تلك الوظائف الرفيعة خلال وقت قصير، وذلك لما لوحظ فيه من الأمانة والنصح والقيام بالعمل في جودة وإتقان.

وفي سنة (544 هـ) عينه المقتفي وزيراً، واستمر فيها طوال عهده، ثم شطراً كبيراً من عهد ابنه المستنجد بالله<sup>(1)</sup>.

فسبحان الوهاب الكريم الجواد، ها هو الصبي الذي كان في مطلع حياته شديد الفقر، حتى إنه كان لا يجد رغيف الخبز ليعبر به نهر دجلة<sup>(2)</sup>، قد صار وزيراً تأتيه الأموال من كل ناحية؛ ليصرفها كيف يشاء!

ولندرك أهمية العلم إلى جوار المنصب، دعنا نتساءل: أين صرف الوزير العالم تلك الأموال؟ ومنها أمواله الخاصة التي لا شك أنها من الكثرة فوق الوصف، سيما وأنه كان في بداياته يسأل الله المال وسعة الرزق؛ كما أخبر عن حاله بقوله -أثناء الوزارة-: «والله لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا؛ لأخدم بما رزقنيه منها العلم وأهله»<sup>(3)</sup>!

(1) السير (20 / 426).

(2) السير (20 / 428).

(3) التاج المكلل (200 و 201).



فها قد صدقه الله ورزقه، فما عمل في أمواله؟

لقد كانت السنة تدور على ابن هبيرة، وعليه بعض الديون؛ لما يبذله من أموال طائلة في سبل الخير ووجوه البر، حتى إنه لكثرة جوده وصدقاته لم تجب عليه زكاة قط<sup>(1)</sup>!

**وقد قال في ذلك أحد الشعراء:**

يَقُولُونَ يَحْيَى لَا زَكَاةَ لِمَالِهِ

وَكَيْفَ يُزَكِّي الْمَالَ مَنْ هُوَ بَاذِلُهُ

إِذَا دَارَ حَوْلُ لَا يُرَى فِي بَيُوتِهِ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا ذِكْرُهُ وَفَضَائِلُهُ؟<sup>(2)</sup>

بل إن ابن هبيرة لهذا السبب مات -حين مات- مُعْدَمًا، واضطر ورثته أن يعرضوا مصنفاته والكتب التي بخط يده -فضلاً عما اقتناه- للبيع<sup>(3)</sup>!

فلله درّه من جواد منفق!

وإذا كانت مواقف ابن هبيرة مع المال معجبة، فإن سيرته في

(1) المنهج الأحمد (2/ 304).

(2) تاريخ ابن خلدون (3/ 516).

(3) ذيل طبقات الحنابلة (3/ 283).



الوزارة هي الأخرى كانت غاية في العجب!

لقد استدعي إلى إيوان الخليفة؛ ليقبله الوزارة، فمشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلهم بين يديه وهو راكبٌ إلى الإيوان في الديوان، وكان ذلك تقليدًا عظيمًا لمن يتولى الوزارة، وكان يومًا مشهودًا<sup>(1)</sup>، فما إن تقلد الوزارة حتى بدأ الإصلاح الذي يمليه عليه علمه، من أول يوم، شكلاً وموضوعاً، لقد أبطل قول الناس في الوزير: سيد الوزراء، وأوصاهم ألا يقولوا ذلك في ألقابه، وقد نظر ابن هبيرة في ذلك إلى معنيين:

**الأول:** أن الله سمى هارون وزيراً.

**والثاني:** أنه جاء عن النبي ﷺ أن وزيره من أهل السماء: جبريل، وميكائيل، ومن أهل الأرض: أبو بكر، وعمر<sup>(2)</sup>.

**فإذا قيل:** سيد الوزراء، فقد يُتَوَهَّم دخول هارون، وأبي بكر، وعمر في هؤلاء الوزراء، ولا يمكن أن يكون سيِّداً لهم، ولا يجوز أن يكون هو -أو غيره- كذلك!

(1) انظر: المقصد الأرشد (3/ 109)، وشذرات الذهب (4/ 264)، وكشف الظنون (2/ 1127).

(2) ضعيف؛ انظر ضعيف سنن الترمذي (3680).



ويذكر لهم أنّ النبي ﷺ قال: «إن الله اختارني، واختار لي أصحاباً، فجعلهم وزراء وأنصاراً»<sup>(1)</sup>.

**ويقول:** «ولا يصلح أن يقال عني إني سيد هؤلاء السادة!»<sup>(2)</sup>.

فسبحان ربي! كان يتنبه بثاقب علمه - إضافة إلى شديد اتباعه وورعه - لهذه المسائل الدقيقة<sup>(3)</sup>.

وذلك من تواضعه رَحْمَةُ اللَّهِ؛ لم يطغعه المنصب ولم ينسه ما أفاده العلم.

فلا عجب إذن أن نسمعه يندم ويتأسف على دخوله الوزارة<sup>(4)</sup>، ويرجو السلامة والنجاة مما دخل فيه، ويذكر أنها أمانة وأنها حسرة وندامة يوم القيامة، وهذا من خشيته الله تعالى، وإلا فنعمًا المنصب يكون فيه القويّ الأمين، ينفع به دينه وأمته، ولأجل

(1) ضعيف؛ انظر: السلسلة الضعيفة (7 / 36).

(2) انظر: الفخري في الآداب السلطانية (228) ابن الطقطقي، الذيل على طبقات الحنابلة (1 / 253).

(3) أضواء على سير العلماء، محاضرة صوتية للشيخ محمد صالح المنجد، بموقع طريق الإسلام.

(4) السير (20 / 429).



هذا تطلب المناصب وتَسأل، ولا تترك لمن لا يتقي فيها ربّه ولا يؤدي فيها حقّه.

ثم نظر في بطانته فقرب خيار الخلق من العلماء والصالحين فكانوا بطانته؛ يستشيرهم ويأخذ بعلمهم ورأيهم، بل وظفهم بالوظائف المختلفة، وبذل لهم جاهه وأمواله يعملون فيهما بمقتضى العلم في النَّاس، حتى عم الخير وشاع العدل وارتفع الحق وانتفع النَّاس بالشرع في عهده غاية الانتفاع.

وقد أصلح ما أفسده من كانوا قبله، وعمل في منصبه بالعدل وأشاعه في النَّاس، وجاد عليهم بفضول أموال الدولة التي لا يضر خزانتها إنفاقها، ولا ينفعها حبسها،

لقد تقلد الوزارة فجعل مجلسها مجلساً علمياً، وبالع في إكرام العلماء وولاهم المناصب وارتفع به أهل السنة غاية الارتفاع، ولم تزل مجالسه مشحونة بالعلماء والمذاكرة حتى توفي<sup>(1)</sup>.

وقد أعز الله به السنّة وأمات البدعة، وقمع شر الرافضة، كيف لا وهو من يحفظ كلامه العجيب: «والله لا نترك أمير المؤمنين

---

(1) الذيل على طبقات الحنابلة (1/258).



علي بن أبي طالب مع الرافضة، بل نحن أحق به منهم»<sup>(1)</sup>؟

وكانت أخلاقه رَحْمَةُ اللَّهِ قبل الوزارة حسنة، فلما ولي ارتقت وازدانت، وشاهد ذلك أنه لما مات رَحْمَةُ اللَّهِ خرج في جنازته ما لم ير في جنازة غيره في عصره، كما قال ابن الجوزي<sup>(2)</sup>، ولا غرو فقد عرف عنه العلم الغزير وله تاريخ حافل بالأراء السديدة، والاستنباطات العجيبة من الكتاب والسنة، وأيضًا قد بلغ درجة عظيمة من الإحسان لمن أساء إليه أو ظلمه<sup>(3)</sup>.

ومن أجل ذلك كله كان ابن هبيرة وزيرًا محبوبًا من عامة الخلق، لأنه سار فيهم بسيرة العدل، ووفى المنصب والعلم حقهما، ومن كان على مثل هذه الدرجة من العلم والعدل والسماحة يحبه الناس بلا شك.

لقد ضرب لنا ابن هبيرة في وزارته مثلاً عملياً على كل مسلم أن يحتذي به؛ فهو قدوة عظيمة لكل من اشتغل بمنصب أو اعتلى كرسيًا في الدولة!



(1) ذيل طبقات الحنابلة (2 / 156).

(2) المنتظم (10 / 216).

(3) السير (20 / 428).



لم يشغل الوزير ابن هبيرة منصبه ذاك عن العلم والتصنيف ومذاكرة العلماء، بل قد باشر ذلك بقوة، فكان مكبًا - مع أعباء الوزارة - على العلم وتدوينه<sup>(1)</sup>، ومن ثمَّ أثرت عنه مصنّفات إِبَّان تولى الوزارة منها شرحه العظيم على كتاب الجمع بين الصحيحين، لأبي عبد الله الحميدي الأندلسي؛ «الإفصاح عن المعاني الصحاح»<sup>(2)</sup>، وهو مطبوع في ثمانية مجلدات، وكَفَى به شاهدًا على أصالة ابن هُبَيْرَة في الحديث والفقه واللُّغة، على الرغم من أنه لم يصلنا كله، بل هو منقوصٌ عما ألفه عليه صاحبه!

ويرجّح الأستاذ عبد المنعم فؤاد، محقق الكتاب، أنّه لم يصل إلينا من مؤلّفات ابن هبيرة سوى أجزاء من كتابه «الإفصاح عن المعاني الصحاح»، ويرجع الأستاذ المحقق السبب في ذلك إلى أنّ أعداءه سعوا إلى محو ذكراه بما ترك من علم ينتفع به بعد وفاته بمحو مصنّفات<sup>(3)</sup>، وينقل عن الحافظ ابن رجب قوله في «ذيل طبقات الحنابلة»: «فلما بيعت كتبه بعد موته اشتراها بعض الأعداء

---

(1) السير (20 / 427).

(2) طبع في أوقاف قطر، بتحقيق الأستاذ فؤاد عبد المنعم أحمد، ثم نشرته دار الوطن، وهو في (8) مجلدات.

(3) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإفصاح (1 / 14).



فغسلَهَا»<sup>(1)</sup>.

ومن مصنفات الإمام الوزير ابن هبيرة، -بعد الإفصاح-:  
«العبادات الخمس» وهو كتاب في الفقه على مذهب الإمام أحمد،  
و«المقتصد» وهو كتاب في النحو، كما قام باختصار كتاب «إصلاح  
المنطق» لابن السكيت<sup>(2)</sup>.

وله إلى جوار ذلك أرجوزات في المقصور والمدود وأرجوزة  
في الخط<sup>(3)</sup>.

فلم تكن الوزارة لتشغله عن طلب العلم والتأليف  
والتدريس، بل البرّ بالعلماء.

وقد ظهرت مكانة ابن هبيرة العلمية بعد توليه الوزارة، فإنه  
أقام مجلساً علمياً يُقرأ فيه كل يوم الحديث ويعلّق هو عليه، وكان  
مجلساً حافلاً بالعلماء وطلبة العلم والعامة، ساعد في ذلك ما بلغه  
الوزير من تحصيل للعلوم، حيث أخذ من كل فن طرفاً، كما ألّف في

(1) ذيل طبقات الحنابلة (3 / 283).

(2) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (3 / 252)، وكشف الظنون (1 / 108)،  
والأعلام (9 / 222).

(3) انظر بقية تصانيفه في طبقات ابن رجب (1 / 252، 253)، وهدية  
العارفين (2 / 521).



فنون متعددة كتبًا مستقلة أو أجزاء من كتب.

فأما مجلسه العلمي فقد كان يُعقد بعد العصر في بيته لقراءة الحديث، يملئ فيه شرحه للجمع بين الصحيحين للحميدي المسمى «الإفصاح عن معاني الصحاح» ويدور فيه مناقشات بين العلماء والأدباء، وقد جمع الوزير لهذا الشرح علماء المذاهب، إذ اعتنى فيه بالخلاف الفقهي للأئمة الأربعة وبرع فيه، مما كان له الأثر الأكبر فيمن جاء بعده من العلماء فقلما يوجد من يؤلف في الفروع والفقهاء المقارن بين المذاهب إلا ويرجع إلى كتابه «الإفصاح عن معاني الصحاح» خاصة الجزء الذي سطره في المقارنة بين المذاهب، لحسن تحريره ولإقرار علماء المذاهب في وقته حيث جمعهم الوزير عليه<sup>(1)</sup>.

ولابن هبيرة تميز ظاهر في فنون مختلفة مما جعل أهل العلم يشنون عليه، فقد قال ابن الجوزي: كانت له معرفة حسنة بالنحو واللغة والعروض وتفقهه وصنف في تلك العلوم، وكان شديدًا في اتباع السنة وسير السلف<sup>(2)</sup>.

---

(1) ينظر: خريدة القصر (1/ 98)، المنتظم (10/ 215)، الذيل على طبقات

الحنابلة (1/ 252).

(2) المنتظم (10/ 214).



بل إن ابن الجوزي صنف كتابًا يدل على إعجابه بالوزير سماه:  
(المقتبس من الفوائد العونية) ضمَّنه بعضًا مما أفاد من ابن هبيرة<sup>(1)</sup>.

**وقال العماد الأصبهاني:** «وكان غزير العلم، ذا هيئة، ذا هيبة، مفوَّهاً، مهيباً»<sup>(2)</sup>.



عاش الوزير ابن هبيرة (61) عامًا، قضى منها (16) عامًا في الوزارة، كان آخرها في خلافة المستنجد، ويظهر أنَّ الوشاة سعوا إلى المستنجد بآبن هبيرة تحت ذرائع يدفعهم إلى ذلك الحقد والحسد، فكان أن دبّر المستنجد له وقتله، وذلك أنه سقاه السمَّ بيد طبيبه<sup>(3)</sup>!

وطُلبت كتب ابن هبيرة -بعد موته- من مكتبته، وغسلت حتى لم يبق فيها خبرٌ، وكذلك فعلوا بها كان عند النساخ منها، وبما كان يحتفظ به العلماء في بيوتهم، بل كان يوشى بالرجل فيؤخذ

(1) انظر: الذيل على طبقات الحنابلة (1/ 253)، وقد نقل عنه ابن رجب كثيرًا، وهو مما فُقد من كتب ابن الجوزي.

(2) خريدة القصر (1/ 97)، نقلًا عن: «أقوال الوزير ابن هبيرة في التفسير، جمعًا ودراسة» (ص 17) عبد العزيز الخزيم.

(3) المنتظم (10/ 216).



وينكّل به؛ بحجة أنّ لديه بعض كتب ابن هبيرة!

ومن هؤلاء الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، وشي به واتهم  
بحيازة كتب ابن هبيرة، ثم لم يلبث أن خلي عنه، لما فتشوا داره  
ومكتبته فلم يجدوا عنده شيئاً منها<sup>(1)</sup>!

وهكذا قلّ رجلٌ رفيع الشأن عالي الكعب إلا وله حساد،  
فكيف بمن في منصب الوزارة؟

ولم يدفع عن الوزير علمه، فماذا يجدي العلم مع الجهّال؟ كما  
لم يدفع عنه عدله وسيرته الحسنة، فلو نفعت سيرة إنسان في حمايته  
من القتل لنفعت سيرة العمرين؛ أمّا طعن عمر بن الخطاب وهو في  
المحراب؟ ودس السمّ لعمر بن عبد العزيز فمات؟

وقد انتقم الله تعالى للوزير العالم، فكان أن سُقي الطيب هو  
الآخر سماً، فكان يقول عند موته: سُقِيتُ كما سَقِيتُ<sup>(2)</sup>.

كما مات المستنجد -رأس هذا الأمر ومدبره- هو الآخر بعد  
موت ابن هبيرة بست سنوات فقط! بعد أن تأمر عليه وزيره  
وحاجبه و«طبيبه» أيضاً؛ أدخلوه الحمام ثم أغلقوا عليه الباب،

---

(1) المنتظم (10/ 213).

(2) السير (20/ 429).



فمات خنفاً<sup>(1)</sup>.

والجزاء من جنس العمل!

لكن فرق بين موتة وموتة، فابن هبيرة الوزير العادل، حين مات غُلِّقَتْ أسواق بغداد وَخَرَجَ جَمْعٌ لم ير لمخلوق قط؛ في الأسواق وعلى السطوح وشاطئ دجلة، وكثر البكاء عليه؛ لما كان يفعل من البر ويظهره من العدل<sup>(2)</sup>.

ومدحه الشعراء بعد موته وهم لا يرجون منه عطاء ولا من ورثته الذين تركهم معدمين، بل كان ذلك من أثر البر الذي صنعه في حياته، فجعل الناس تصدّقه الحبّ بعد وفاته، ومما رثي به قول أحد الشعراء:

مات يحيى ولم تجد بعد يحيى

ملكاً ماجداً به يُستعانُ

وإذا مات من زمانٍ كريمٍ

مثل يحيى به يموت الزمانُ<sup>(3)</sup>

(1) السير (20 / 415).

(2) المنتظم (10 / 213).

(3) المنهج الأحمد (2 / 291).



ولعل سقيا الوزير السَّمَّ كان تحقيق أُمْنِيَةٍ واستجابة دعاء دعا به ابن هبيرة الله كثيرًا - وكان مستجاب الدعوة -، فقد كان يتمنى الشهادة ويدعو الله أن يرزقه إياها، ولندع ابن الجوزي يقصّ علينا نبأ ذلك بقوله: «كان الوزير يتأسّف على ما مضى من زمانه، ويندم على ما دخل فيه، ثم صار يسأل الله عزّ وجلّ الشهادة، ويتعرّض لأسبابها، وكان صحيحًا يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة، فنام ليلة الأحد في عافية، فلمّا كان وقت السحر قاء، فأحضر طبيبًا كان يخدمه فسقاه شيئًا، فيقال: إنّه سمّه فمات، وسُقِيَ الطبيب بعده بنحو ستّة أشهر، فكان يقول: سُقِيتُ كما سَقِيتُ، ومات الطبيب واسمه ابن رشادة»<sup>(1)</sup>.

كانت أُمْنِيَةُ ابن هبيرة إذاً هي الشهادة، وقد نال -إن شاء الله- ما تمنّى.

ليس هذا فحسب، بل حدث له مع ذلك كرامات أخرى، فإن الحافظ ابن رجب ينقل لنا في ذيل الطبقات عن أبي بكر التيمي أنّ الوزير بعدما تناول المشروب من طبيبه استفرغ، ثم استدعى بماء فتوضأ للصلاة، وصلى قاعدًا، فسجد، فأبطأ عن القعود من

(1) المنتظم (10/216).



السجود، فحرّكه فإذا هو ميت<sup>(1)</sup>.

كانت هذه هي خاتمة حياة الوزير العالم والإمام العادل، الذي استقرّ بالله إيمانه وتعمّقت به ثقته، كما أنّ ورعه، وزهده، وتقواه، وخشيته، وعبادته، وتواضعه، وشجاعته في الحق، والتزامه الحلال، وإقامته على العدل، وتمسكه بالسنة، مع البذل والإنفاق والصفح والعفو عند المقدرة كانت نماذج تقتدى ومنهجاً حياً يحيا بين الناس.

فيا لها من خاتمة حسنة، نسأل الله تعالى أن يحسن خواتيمنا!



أفرد أبو بكر التيمي كتاباً جمع فيه مناقب العالم الوزير وفضائله، لكنه لم يصل إلينا أو لم نصل إليه، وإن كانت الكتب التي ترجمت لابن هبيرة قد عوّلت جميعها عليه.



وفي سيرة الوزير العالم «ابن هبيرة» عظات وعبر كثيرة، ومن أعظم ما يقف أمامه المرء مدهوشاً منها هو دور الوالد والشيخ في

---

(1) وفيات الأعيان (6/ 241).



التلميذ، لقد قرأنا كيف كان والده يحثّه على طلب العلم، وكيف حرص على اصطحابه إلى مجالس العلماء، بل كان يجلسه في صدارتها.

ولا شكّ أنّ هذه النهاية الجميلة التي انتهت إليها شجرة ابن هبيرة العلمية المورقة، يعود شيء كثير منها إلى هذه الفسيلة التي غرسها والده؛ بكلماته وأفعاله، فنمت عبر الأيام وترعرعت، لا سيما وقد لقيت أرضاً طيبة من نفس الصبي الصغير المحبّ للعلم الحريص عليه.

وقد سخّر لهذه الفسيلة -حين أخرجت شطأها- شيوخٌ عظام ومرّبون مهرة، فقاموا على رعايتها ونمائها، حتى امتدت جذورها واستوت على سوقها، وضربت فروعها في السماء.

بين والدين حريصين على أن يكون لابنهما شأن، ومعلّمين يدركون رسالتهم في إعداد الأجيال، ويقدرّون دورهم في صناعة الرجال؛ تخرج إلى هذه الحياة خيرة القادة وعظيم المواهب وأفذاذ الرجال.

انظر حولك، فحيثما ترى عظيماً من العظماء؛ حاكماً أو قائداً أو بطلاً أو مديراً أو داعية أو طبيباً أو غيرهم، أينما يمت وجهك لا



تلق إنسانًا ناجحًا إلا وتلق من وراء نجاحه أب أو أم -أو كلاهما-  
حريص على أن يكون له شأن، ومعلم أدرك قيمة دوره ومحورية  
مهمته.

أولئك جميعًا هم صنائع الوالدين والمعلم.

ونظرة في سيرة ابن هبيرة تظهر لنا هذا الأثر واضحًا؛ فهذا  
الوالد الجندي مستور الحال، يدفع بابنه في طلب العلم ويحثه عليه  
ويأخذ بيده إلى صدارة مجالس العلماء فإذا بالولد يسعى -حتى بعد  
رحيل والده- في السبيل نفسه، ورغم الفقر المدقع الذي تفرغ معه  
اليد من رغيغ لم يترك ابن هبيرة طلب العلم!

أليست الصورة واضحة، والآثار لائحة؟

ومن عجيب ما وقفت عليه في مسألة فهم الوالدين دورهما في  
تعلم الأولاد العلم، ما حكاه الإمام تاج الدين السبكي عن والده  
الإمام تقي الدين، قال:

«وكان الله تعالى قد أقام والده ووالدته للقيام بأمره، فلا يدري  
شيئًا من حال نفسه، -يعني من جهة المعيشة وتدير مستلزمات  
الحياة-، ثم زوجه والده بابنة عمه وعمره خمس عشرة سنة،



وألزمها ألا تحدّثه في شيء من أمر نفسها، وكذلك ألزمها والدها، وهو عمه الشيخ صدر الدين، فاستمرت معه، ووالده ووالدها يقومان بأمرهما، وهو لا يراها إلا وقت النوم، وصحبته مدة، ثم إن والدها بلغه أنها طالبت به بشيء من أمر الدنيا، فطلبه، وحلف عليه بالطلاق ليطلقها، فطلقها<sup>(1)</sup>.

فانظر إلى اعتناء والده وعمه بأمره، وكان ذلك خوفاً منها أن يشتغل باله بشيء غير العلم، وإن تعجب لتلك الشدة، فسوف يزول عجبك حين تعرف من هو التقي السبكي!

هذه نظرة، في الوالدين، وبمنظرة أخرى في الشيوخ والمعلّمين نجد تأثر ابن هبيرة بشيوخه، لا سيما شيخه «الزيدي» -الواعظ الزاهد- الذي صاحبه ابن هبيرة في حديثه؛ فقد كان على طريقة السلف -وكان ابن هبيرة كذلك-، وكان زاهداً -وكان ابن هبيرة كذلك-، وكان يقول الحق ولا يخشى لومة لائم -وكان ابن هبيرة كذلك-، بل كان الزيدي بارعاً في النحو -وكان ابن هبيرة كذلك-.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى (10/ 145).



ولعلّ نظرة متأملّة في طريقة شرح ابن هبيرة لأحاديث الصحيحين في كتابه الإفصاح؛ تكشف لنا عن مدى تأثر التلميذ -ابن هبيرة- بطريقة أستاذه ومربيّه؛ فقد «أولى ابن هبيرة عنايته في شرحه فقه الحديث في مجال تهذيب النفس وتربية الروح وسمو الأخلاق، مما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم ومعادهم وجهادهم»<sup>(1)</sup>.

أليس ذلك وجهًا جديدًا للشبه بين التلميذ والأستاذ، ومؤكّدًا على ما قررنا من مسألة تأثر المتعلّم بالمعلّم؟

وهذه -إن فاتتك الأولى- في يدك يا طالب العلم!

فاختر شيخًا يصنعك ويخرجك عالمًا، لا طويلب علم ولا طالب، شيخًا قويًّا، تتخرج به قويًّا.

لقد تأملتُ فإذا للأستاذ أثرٌ على تلميذه، إيجابًا وسلبًا، بدرجة كبيرة جدًّا، تفوق تصوّر الشائع.

بان لي ذلك أثناء مطالعتي سيرة أحدهم، وقد قرأت عنه في (20) كتابًا ترجم له، فلم ترو غليلي حتى تناولت قراءة أساتذته

---

(1) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإفصاح (1/ 27).



وأقرانه وتلامذته.

وكانت فرصة طيبة لمعرفة آثار الأساتذة في التلامذة، كيف هي؟ فإذا شيء بالغ الأثر عميقه.

إن قوّة فقوّة وإن ضعفاً فضعف.. حتى الممات .

فليكن الطالب ذكياً في اختيار أستاذه.

ومن الفوائد الواضحة في سيرة الوزير العالم أيضاً أن بإمكان المرء أن يحصل أعلى المراتب في الدين والدنيا وإن لم يكن يملك منها شيئاً.

نعم، من حَقَّ أن تحلم! وأن تخطط لمستقبل مشرق، وأن تسعى لتحقيق حلمك، وإدراك مستقبلك، لكن من حق حلمك عليك أن تتمتع بهمة عالية ونفس طموح مع عزيمة وإصرار، بهذا تصل إلى ما تريد، وتحقق ما تطلب، ويوم تصل سيكون ذلك هو الفخر الحقيقي لك، والجاه الحقيقي بك، فأعظم فخر للمرء أن يكون عصامياً لا عظامياً، قد ولى الزمان الذي يخفى فيه على الناس من أوصلته همته ومن أوصلته مالهته، هذا الأخير ليس من حقه أن يقول: أنا.

مضى زمن كان فيه الفتى

يباهي بما قومه أثلوا



ويرفعه في عيون الأنام  
ويخفض من قدره المنزل  
فلا تقعدن عن طلاب العلى  
وتعذل بلادك إذ تعذل  
فإنّ الخلائق حتى عدلك  
متى ما سبقتهم هلّلوا  
فثابر بجداً على نيلها  
فليس يخيب الذي يعمل  
وكن رجلاً ناهضاً ينتمي  
إلى نفسه عندما يسأل  
فلسّت الثياب التي ترتدي  
ولسّت الأسماء التي تحمل  
ولسّت البلاد التي أنبتك  
ولكنّما أنت ما تفعل  
إذا كنت من وطن خامل  
وفزت فأنت الفتى الأفضل  
وفقني الله وإياك للمعالي!





هزير الدين داود

**الملك العالم الذي**

**شغف بالكتب حبا**





## هزير الدين داود الملك العالم الذي شُغِفَ بالكتبِ حبا

لله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين! ففي كل شبر من الأرض لنا أجدًا تحفل لها الدنيا وبها تفتخر، وفي كل زمان لنا عظماء سطروا آيات من الجمال والجلال تبقى غررًا على جبين الزمان إلى الأبد، وكلما أمعن المطالع النظر في تاريخ الأمم والدول وجد لنا هنا وهناك بصمات لا تمحى، وآثارًا لا تنسى.

كَمْ كُنْتُ أتمنى لو عشت خلال عصور الإسلام تلك!

ترى ما كان شعور أهلها نحو دينهم وأوطانهم وأنفسهم؟

إنني أوقن بأنهم كانوا أعزاء سعداء متآخين بينهم، راضين عن أنفسهم؛ إذ ترفرف فوقهم أعلام الإسلام في شموخ، ويتقلبون في رغد الرضا والفرح؛ من جرّاء التزامهم بتعاليمه.

وكُلِّما ضاقت بي هذه الدنيا؛ لبؤس أحوالها وسوء أجوائها؛ تركتُ هذا الزمان وحلقتُ بعيدًا في أفق هذه الأجداد، أعين أحوالها وأجوب طرقاتها وأعيش أهلها، فأنقلب سعيدًا مسرورًا، وترتد إليّ همتي وعزيمتي من جديد!



إنها وإن كانت ذكرى، إلا أنّ الذكرى -كما هو معروف-  
صورة من صور اللقاء!

نحن الآن في اليمن، في عصر من أزهى عصورها في الإسلام،  
مع دولة من أعظم الدول، ومليك من أفضل الملوك هو السلطان  
الملك المؤيد هزبر الدين داود، بن يوسف، بن عمر، بن علي، بن  
رسول<sup>(1)</sup>، أحد ملوك الدولة الرسولية العظيمة.

كان المؤيد داود هو الملك الرابع في الدولة التي أسسها (بنو  
رسول)؛ تلك السلالة المسلمة، السنيّة، التركمانيّة، التي حكمت  
بلاد اليمن في الفترة بين (626-858 هـ / 1229-1454م)،  
وقد أسس هذه الدولة الملك عمر بن رسول الملقب بـ«الملك  
المنصور»، وكان رَحْمَةُ اللَّهِ بطلاً طموحاً وسياسياً بارعاً.

ويُعدّ «العصر الرسولي» واحداً من أزهى الفترات في بلاد  
اليمن، وأفضل العصور التي مرت عليها بعد الإسلام، ودولتهم  
من أطول الدول اليمنية عمراً، وهي أعظمها ثقافة، حتى إن عدداً  
من ملوكها عرف بالعلم وأثرت عنه مؤلفات في مجالات كثيرة:

(1) الدرر الكامنة (1/ 219) ابن حجر.



الطب، والصناعة، والشرع، واللغة<sup>(1)</sup>.

ومن هؤلاء الملوك الذين حكموا دولة بني رسول وعرفوا بالعلم وسعة المعرفة: الملك المؤيد داود بن يوسف، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ من العلماء المشاركين في العلم؛ حفظاً ودراسة ومباحثة، متفنتاً في كثير من العلوم، فهو وإن تبوأ أعلى المناصب وأرفعها في الدنيا - الملك - لم يشغله ذلك عن العلم وطلبه وحفظه والبحث فيه!

ها هو ذا ينشط لسماع الحديث من الحافظ محب الدين الطبري وغيره، ولحفظ التنبيه<sup>(2)</sup> في فقه الشافعية، بل إن عبارة الحافظ ابن حجر في ترجمته من الدرر الكامنة تشي بما فوق حفظه للتنبيه؛ إذ يقول عنه الحافظ: «بحث التنبيه»<sup>(3)</sup>، ومعلوم أن بين الحفظ والمباحثة فرقاً كبيراً.

وكذلك حفظ «مقدمة ابن بابشاد» في النحو، وحفظ «كفاية المتحفظ» في اللغة.

كما كان الملك المؤيد أديباً<sup>(4)</sup>، ومحباً للكتب والعلوم وأهلها؛

---

(1) مقالة في التعريف بالدولة الرسولية على الموسوعة العالمية، ويكيبيديا.

(2) طبقات الشافعية الكبرى (10 / 33)، السبكي.

(3) الدرر الكامنة (1 / 219) ابن حجر.

(4) الأعلام (2 / 336).



كان يجمع كل ما تصل إليه يده من حسن الكتب وجيّدتها، وقد عرف الناس منه ذلك فقصدوه من الآفاق بكل تحفة وملحة، وكان هو في المقابل يبالغ في إكرامهم على ذلك، حتى إنه أهديت له نسخة من الأغاني بخط ياقوت، فبذل فيها مائتي دينار مصرية!

وقد اجتمع عنده من نفائس الكتب ومصنفات العالم ما قلّ اجتماعه عند كثير من الناس، فاشتملت خزانة كتبه على مائة ألف مجلد!

ويحكي المؤرخون أنه كان في ديوانه زيادة على عشرة نساخ ينسخون الكتب، فإذا نسخوا كتاباً منها يقابل على أصله ثم يحرر، فإذا تحقّقوا من ضبطه رفع إلى مكتبته بعد!

وقد يتعجب بعض من لم يباشر حبّ الكتب قلبه لمثل هذه الأخبار، لكن من ذاقه عرف أن الأمر في حب الكتب يتجاوز كلّ حد؛ ما لا وغيره، فإن لحوز الكتب شراهة كشراهة تناول الجائع الطعام، فمن أحب الكتب وأدمن النظر فيها والاستفادة منها لا يصبر إذا وقعت عينه على كتاب حتى يحصّله ويجوزّه!

إنّ القراءة - بحق - منهج حياة وليست مجرد هواية!

وأنا أخبر عن حالي؛ أحب ثلاثاً لولاها ما حفلت بحياتي؛



ذَهَبَتْ أُمُّ آبَتِ:

هذا الكتاب «القرآن»؛ يهيم قلبي بترداده؛ تلاوةً، وحفظاً،  
وفهماً، وهذا العلم؛ أغرق في كتبه لأذني؛ إمتاعاً لروحي، وتوسعة  
لعقلي، وإنارة لبصيرتي، وهذا الأمل الذي يمتلئ به قلبي وعقلي  
ونفسي، بأن المستقبل لهذا الدين، وأن أمتي ستعز حتى تكون فوق  
الأمم.

لقد كان الملك المؤيد عاشقاً للكتب، وكان إلى جوار هذا محباً  
لأهل العلم، مقرباً لهم، يستميلهم حيث كانوا، ويرغب فيهم،  
ويرغبهم فيما عنده<sup>(1)</sup>.



كان الملك المؤيد مصنفًا جيّد التصنيف وقد خلف من الآثار  
العلمية: اختصاره لكتاب (الجمهرة في البيزرة)<sup>(2)</sup>، وهو كتاب في  
الطب، ألفه عيسى بن علي بن حسان الأزدي، وهو مخطوط،  
بمكتبة الأسكوريال، وعنه مصوِّرة في معهد المخطوطات العربية.

---

(1) انظر: بهجة الزمن، عبد المجيد بن عبد الباقي، نقلاً عن منتدى المؤرخ  
زيد محمد حسين الفرح، بالشابكة.

(2) الأعلام (2/ 336).



ولم يكن اختصار الملك المؤيد لهذا الكتاب اختصاراً عادياً، بل قد زاد على الأصل مباحث، مما يدل على اطلاعه وتضلّعه بفنّ الطبّ.

وبنظرة متفحّصة إلى مدارسات هذا الملك العالم ومشاركاته في الفنون ندرك أنه كان محدّثاً اشتغل بالحديث وسمعه وحمل أسانيده، كما كان فقيهاً حفظ التنبيه وباحثه حتى ترجمه أصحاب المذهب الشافعي في طبقاتهم، وهو أيضاً أديب، وشاعر، ونحوي، وأيضاً عالم بالطبّ؛ فلم يكتف بحظه من العلوم الدينيّة كشأن كثيرين من الطلاب، بل عمد إلى دراسة دنيويّة هي الطبّ، فتعلّمها وحاز معارفها إلى درجة تمكن معها من اختصار كتاب من كتب الطب وزاد مباحث فيه!

وهناك كثير من أهل العلم الشرعي قد برعوا في الطب والرياضيات والفلك وغيرها، بل إنّ الاشتغال بهذه العلوم والاجتهاد والنبوغ فيها، فرض كفائي في الإسلام، وديننا لا يعرف الفرق الذي عهده الناس من تقسيم العلم إلى علوم دين وعلوم دنيا، على النحو الذي يُعرف في حياة المسلمين اليوم، على غير ما اشتهر عند أسلافنا رَحِمَهُمُ اللهُ، وكما رأينا عليه هذا الملك العالم، ينبغ



في علوم الشرع، وفي الطب أيضًا، وهذا - لعمر الحق - لا يحسنه إلا متفرّغ، لا ملكٌ لديه من الشواغل ما يضيق معه وقته عن أكل وشرب، فلله هو!

وشخصية كذلك لا شك وأنها شخصية فريدة، فلا عجب أن يصفه المؤرخون بأنه كان شخصية فذة، نادرة، وبأنه كان محبًا للفضائل، حسنًا، محسنًا لرعيته، ويصفونه بأن فيه فضيلة وخيرًا<sup>(1)</sup>، وأنه كان شجاعًا جوادًا<sup>(2)</sup>، فارسًا، حازمًا.

لله هذا الإسلام ما يصنع بالنفوس!

ثم لله هذا العلم على ما يحصد من همم وما يجتذب إليه من عقول وأفئدة، كأنها ما عرفت اللذة قط حتى ذاقت لذته فلزمته!



ولد الملك المؤيد في عام (662 هـ/ 1264 م)، وتلقى تعليمه في المدارس العلمية الجامعة -بمدينة «تغز» وغيرها- فقد كان أجداده الرسوليون من أحرص الناس على نشر المدارس العلمية، وبها عرفوا، وقد تولى الملك بعد مراحل وتطورات عجيبة هي من

(1) طبقات الشافعية الكبرى (10/ 33)، السبكي.

(2) الأعلام (2/ 336).



قدر الله، تقلّب فيها بين الطرد والسجن، ثم الإمارة، فالملك، وهو  
بعدُ الملك ابن الملك حفيد الملك؛ ليسعد الناس بتملكه، فقد كانت  
أيامه أحسن الأيام، كما قال المؤرخون<sup>(1)</sup>، ووصف الشعراء، ومنهم  
يوسف بن محمد العنسي، في قوله:

القوس موترة في كف باريتها

فليعلم الناس قاصيها ودانيها

يهنئ المؤيد بل تهني خلافته

إنى أهنيّه بل فيه أهنيّها

أملاك غسان ما انفكت دعائمها

لما أتت من معاليه معاليها

ومنهم عبد الله جعفر العفيف، في قصيدة، منها قوله:

ورثت دولة غسان كما ورثت

أباؤك الغلب من أجدادك الصيد

فالأرض مشرقة والسحب مغدقة

والنبت ما بين مخضود ومنضود



---

(1) تاريخ ثغر عدن، للمؤرخ الطيّب باخرمة، نقلًا عن: متدى المؤرخ زيد  
محمد حسين الفرّح، بالشابكة.



كان بدء استقرار المؤيد في المملكة سنة (696هـ) ودامت مدة (26) سنة، وذلك من (696 هـ/ 1297 ) إلى (721 هـ/ 1321 م)، وقد حدثت خلال عصره بعض القلاقل، غير أنها لم تفلح في كسر وحدة اليمن التي حافظ عليها حتى مات، كما لم تصرفه عن وجوه الإصلاح التي مضى فيها على طريق أجداده حتى قضى مجاهدًا؛ نهوضًا بالعلم ورقياً بالحضارة.

مات الملك المؤيد رَحِمَهُ اللَّهُ في ذي الحجة سنة (721هـ).



وفي سيرة المؤيد كثير من العظات، أولاهها بالتأمل أن من رام شيئًا - بصدق - أدركه، ومن سعى - بجد - إلى هدف حققه.

إن من أراد شيئًا أخذه بأصابعه وكفيه وذراعيه حتى المناكب، فاعزم - يا طالب العلم - أمرك، واصدق همك، واسع بجدّ ومثابرة نحو هدفك، ولا تتعلل بكثرة المشاغل؛ فإنه لا ينجز إلا مشغول!

﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[آل عمران: 160]، ومهما كان وقتك ضيقًا فاغنم كل يوم شيئًا ولو قليلًا، فلا ريب سيأتي يومٌ يكون قليلك فيه كثيرًا، فالقليل إلى



القليل كثير، بل ضَمَّ القليل إلى القليل مع الدوام عليه، يتكون منه الكثير الهائل العجيب!

وإن كان كثير مما يزعمه الناس في الانشغال عن العلم ليس انشغالاً على الحقيقة، فلو كان العلم عليهم بمثابة رغيـف العيش لوجدوا له وقتاً وفرّغوا أنفسهم لطلبه مهما كانت أشغالهم، وحاجتهم، فبرأيي أن الفقر الحقيقي هو الجهل!

أما أن يقضي المرء في تحصيل رغيـف العيش وقته، ويوجه همته إليه، ويستغرق فيه ليله ونهاره حتى ينقضي عمره، ثم يضمن على العلم بساعة! إن هذا شيء عجاب!! إن هذا شيء عجاب!

فليت شعري، مثل هذا متى يتعلم؟ ليس هذا من شأنه، فليُنظر له شأنًا يليق به، فإنه منهوم بالدنيا طلباً لها.

وفي المسند وغيره عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يقول: يا بن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسدّ فـقرك وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسدّ فـقرك<sup>(1)</sup>.

إن من خير المعينات على التعلم مرور الأيام والليالي، فمن

---

(1) أخرجه أحمد (2/358)، والترمذي (2466)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (1914).



بذل مع كل يوم ولو قليل وقت، فإنه مع مرور الأيام تحصل له حصيلة من العلم.

وعن يونس بن يزيد، قال: قال لي ابن شهاب: يا يونس! لا تكابر العلم؛ فإن العلم أودية، فأياها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام<sup>(1)</sup>.

وقال شعبة: كنت آتي قتادة، فأسأله عن حديثين، فيحدثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا، حتى أحفظهما، وأتقنهما<sup>(2)</sup>.

ومن جميل ما وقفت عليه في هذا قول بهاء الدين ابن النحاس الحلبي:

اليوم شيء وغدًا مثله

من نُخب العلم التي تلتقط

يحصل المرء بها حكمة

وإنما السيل اجتماع النقط<sup>(3)</sup>

(1) جامع بيان العلم وفضله (1/ 431)، ابن عبد البر، ت. الزهيري، دار ابن الجوزي.

(2) السير (7/ 225).

(3) بغية الوعاة (1/ 14)، السيوطي.



الأهم ألا تتراجع، فضلاً عن التوقف، وأستعير هنا مقولة  
ذائعة وأعمل عليها بعض التغيير:

إن كنت في طريق العلم فاركض، وإن صعب عليك فهرول،  
وإن تعبت فامش، وإن لم تستطع كل هذا فسير ولو حبواً، ولكن  
إياك والرجوع!

يسّرني الله وإياك لليسرى.





أرغون المواقار

عاشق الكتب .. أهده الناس

الكتب تهنة بالوزارة





## أرغون الدوادار عاشق الكتب .. أهداه الناس الكتب تهنئة بالوزارة

الإنسان العاقل لا تكفيه حياة واحدة، ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكانين، ولكنه بزد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيات في عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرأتين<sup>(1)</sup>.

وهذا ما جعل العقلاء في كل زمان ومكان يعشقون الكتب، ويغرمون بجمعها، ويفنون أعمارهم في مطالعتها .. إنهم يحبون الكتب لأنها تنقلهم أثناء مطالعتها إلى عوالم وأزمنة ومجالات كثيرة ومتنوعة، وهم يعيشون خلال هذه القراءة حياة في إثر حياة، بل إنهم بالقراءة ينزلقون بشكل لا إرادي ولا مفر منه، في جلد الآخر وصوته وروحه - كما يعبر عن ذلك بعض الكتّاب -.

---

(1) من كلمات الأستاذ العقاد، بتصرف، انظر: أنا (ص 70).



وفي تراثنا العظيم أن ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ كان يكثر الجلوس في بيته، ويدع أصحابه، فقليل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟

يعني أنه يقرأ سيرهم فيكون كأنه بينهم!

إنَّ خيرَ أنيس في الدنيا هو الكتاب، نقرؤه، فنستجلي به الغاية، ونستبين منه السبيل، ونطالع فيه سير السابقين الذين مضوا على ذات الطريق، فتطمئن أنفسنا برفقتهم ونعلم أننا لسنا وحيدين فيه.

وتاريخنا الإسلامي المجيد حافل بنماذج مشرفة من محبي الكتب وهواة جمعها وعشاق مطالعتها، ومن هؤلاء العالم الوزير «أرغون الدوادار» نائب الملك الناصر؛ ناصر الدين محمد بن قلاوون على مصر، أحد ممالك السلطنة المملوكية في أوج عزها، فقد ذكروا عن أرغون الشيء الكثير من محبة الكتب، والرغبة في جمعها، وأثرت عنه في ذلك نواذر، إضافة إلى اشتهاه بالعلم والفضل، والتبحر في المعرفة، والمهارة في الفقه.

كان «أرغون» في بداية عهده رقيقاً؛ اشتراه الملك المنصور؛ سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي، أحد أشهر سلاطين المماليك البحرية، ورأس أسرة حكمت مصر والمشرق العربي ما يزيد على



قرن من الزمان، وقد شاء الله أن يربى «أرغون» مع الناصر محمد، الذي سيتولى السلطنة بعد فترة قليلة من الزمان، ويبقى في خدمته، ويحوز رضاه إلى أن يولّيه الناصر نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة (712هـ)، مدة (16) سنة<sup>(1)</sup>، بل خلف السلطان على السلطنة لما خرج إلى الحج سنة (719 هـ).

وقد عرف المنصبُ «أرغونَ» رجلاً ثري الفضائل حميد الخصال؛ إذ سار سيرة حسنة إلى الغاية، وقدّر الله على يديه للناس مقادير حسنة، وسعدًا، وكان يخلص الناس من شدائد يريد الناصر أن ينزلها بهم.

لقد تلقى أرغون مبادئ العلم - مع الملك الناصر - وقرأ، وحصل، وشاء الله أن يبرع في الفقه، فاشتغل على مذهب الحنفية، ومهر فيه، حتى صار يعدّ في أهل الإفتاء<sup>(2)</sup>، وترجمه الأحناف في طبقات أهل المذهب، منها الطبقات السنية في تراجم الحنفية، للعلامة تقي الدين الغزي.

وقال والد ابن الشحنة في تاريخه المسمى بـ «روض المناظر، في علم الأوائل والأواخر» كان فقيهاً حنفياً، ورعاً، أذن له بالإفتاء

(1) انظر: الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص 165)، للغزي، ط. الشاملة.

(2) الدرر الكامنة (1/ 417).



على مذهبه.

وقد عني أرغون - من العلم، فيما عني - بسماع الحديث والاتصال بنسب سنده الشريف، فسمع صحيح البخاري على الشيخ أبي العباس أحمد ابن الشحنة الحجار، وعلى وزيرة بنت عمر بن أسعد بن المنجا، بمصر، في سنة (715 هـ)، بل كتب منه مجلداً بخطه، قال صاحب «درة الأسلاك في دولة الأتراك»: وكتب صحيح البخاري بخطه المأهول بالضبط والتبيان، وسمعه على أبي العباس أحمد الحجار، بقراءة الأستاذ أثير الدين أبي حيان!<sup>(1)</sup>

هذا وهو في نيابة السلطنة وأبهة الملك؛ إذ ما كان للذة الملك أن تنسي لذة العلم قطُّ، بل اعجب حين تقرأ في شأنه ما سطره المؤرخون عن درجة حبه للكتب وعشقه لها، أنه اتخذ الكتاب جليسه وأنيسه!

قال صاحب «درة الأسلاك»: قرأ وحصل، وأجمل وفصل، وجمع كتباً نفيسة، واتخذ كلاً منها أنيسه وجليسه<sup>(2)</sup>.

(1) الطبقات السنية (ص 165).

(2) نفسه، وكتاب درة الأسلاك، مخطوط، لم يطبع، مؤلفه: حسن بن عمر بن الحسن، المعروف بابن حبيب الحلبي، (ت 779 هـ - 1377 م) في (287) ورقة، موجود في مكتبة آيا صوفيا (233)، متوفر على الشبكة، نشره موقع الألوكة، وعن نشرتها نقلت هذه البيانات.



وكان لأرغون عناية عظيمة بالكتب، فجمع منها جمعاً ما جمعه أحد من أبناء جنسه<sup>(1)</sup>.

ومن نوادر الدهر أنه لما سار إلى حلب، سنة (727 هـ) نائباً لها عن الناصر، خرج الناس يتلقونه بالترحاب، ولعلمهم بمحبته الكتب ورغبته فيها، هرعوا إليه يتلقونه وهم يحملونها في أيديهم، فما أعجب وألذ هذه المظاهرة العلمية!

وكان «أرغون» معروفاً بمحبة أهل العلم، ومجالسة العلماء، من الفقهاء والمحدثين، يجتمع بهم ويذاكرهم في حالتي الحرب والسلم.

فمن جلسائه ومذاكره: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (654-745 هـ/ 1256-1344 م)، نحوي عصره ولغوي ومفسر ومحدث ومقرئ ومؤرخه وأديبه<sup>(2)</sup>.

ومنهم: ابن سيّد النَّاس؛ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن

(1) الدرر الكامنة (1/ 418).

(2) انظر ترجمته في بغية الوعاة (1/ 280-286)، السيوطي، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية.



سيد الناس، اليعمري الربيعي، أبو الفتح، فتح الدين، (671-734 هـ / 1273-1334 م)، الحافظ، والمؤرخ، والأديب الشاعر<sup>(1)</sup>.

ومنهم: ابن الوكيل؛ محمد بن عمر بن مكّي، ابن المرحل، صدر الدين، ابن الوكيل، (665 - 716 هـ، 1267-1317 م)، المتكلم الأصولي، والفقير المفتي الشافعي، والمتبحر في علم الحديث، والأديب الشاعر صاحب ديوان طراز الدرر، أعجوبة عصره في الذكاء، له مناظرات مع شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان ابن تيمية يشهد له بالعلم<sup>(2)</sup>.

هؤلاء جلساؤه، وهم يخبرونك عنه، من هو، فمن خالط العطار نال من طيبه! فكيف وهو عطار؟



ولم يكن «أرغون»، وهو نائب السلطان والعالم الفقيه، ليغيب عنه أن العلم يؤخذ ليصير إلى العمل، ويتلقى ليكون التطبيق، ويفهم ليكون سلوكاً وأدباً، وقد عرف العلم في حياة أرغون عملاً

(1) انظر ترجمته في الدرر الكامنة (4/ 213-214).

(2) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى (9/ 253-267)، السبكي، ت. د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط. هجر.



وتطبيقاً وسلوكاً؛ إذ ظهرت على جوارحه آثاره، وعرف في مقاله وأحواله، حتى يصدق فيه أنه اتخذ منهج حياة؛ يتضح ذلك في كثير مما أثر عنه:

ففي جانب النسك والعبادة: ذكروا أنه لما حجّ مشى من مكة إلى عرفة بمسكنة في هيئة الفقراء.

وفي ناحية الجهاد -وكانت الدولة وقتئذٍ في صراع مع الصليبيين-: توجه ذات مرة إلى منية ابن خصيب فخرّب خمس كنائس للنصارى.

وفي ناحية الولاء والبراء: منع أن يستخدم في ديوانه نصراني؛ إذ كان يرى الوظائف الهامة ذات الولاية على المسلمين، لا يولاها نصرانيٌّ مهما كان شأنه؛ إذ لا ينبغي -بأي حال- أن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وفي ناحية الأحوال: كان خيراً، ساكناً، قليل الغضب، حتى يقال: إنه لم يسمع منه أحد في طول نيابته بمصر وحلب كلمة سوء.

وفي ناحية الوظيفة والمنصب والحكم: كان يحكم بالشرع، قال عنه أبو الفضل محب الدين ابن الشحنة: كان أميراً كبيراً، معظماً مُبجلاً، محترماً في الدولة، ذا وقار ومهابة، ورأي وتدبير، ويحكم



بالشرع الشريف<sup>(1)</sup>.

وفي ناحية القيام بحق الملك وحق الناس: كان للملك به جمال،  
وللناس إليه ميلٌ وبهم له محبةٌ ظاهرة، لسيره فيهم بالقسط والعدل.

وفي ناحية البطانة: كان له حنو على العلماء؛ كابن الوكيل، وأبي  
حيان، وابن سيد الناس وغيرهم؛ يقربهم ويستشيرهم ويصلهم  
ويعينهم.

وفي ناحية الإصلاح ونفع الخلق: أثر أنه أوصل بهمته نهر  
الساجور وإجرائه إلى حلب، وجمع الناس على ذلك، واجتهد فيه  
بحيث كمل في نحو ستة أشهر، وأنفق عليه جملة من المال، وكان  
يوم وصوله يوماً مشهوداً<sup>(2)</sup>.

وأشدد القاضي شرف الدين الحسين بن ريان، في إجراء نهر  
الساجور، قوله:  
لَمَّا أَتَى نَهْرُ السَّاجُورِ قَلْتُ لَهُ  
كَمْ ذَا التَّأَخُّرِ مِنْ حِينٍ إِلَى حِينٍ

(1) الطبقات السنية (ص 165).

(2) انظر: الدرر الكامنة (1 / 417).



فَقَالَ آخِرُنِي رَبِّي لِيَجْعَلَنِي

مِنْ بَعْضِ مَعْرُوفِ سَيِّفِ الدِّينِ أَرْغُونَ

وَأُنْشِدَ الْقَاضِي بَدْرُ الدِّينِ حَسَنَ بْنِ حَبِيبٍ:  
قَدْ أَضَحَّتِ الشَّهْبَاءُ تُثْنِي عَلَى

أَرْغَوْنَ فِي صُبْحٍ وَدَيْجُورٍ

وعموماً كان «أرغون»، ذلك الحاكم العالم، حسن الفضائل، عظيمها، كثيرها، من خيار الحكام، ومحاسن ولادة الأنام؛ جاء في الطبقات السنية للغزي: قال صاحب درة الأسلاك، في حقه: أمير مناضل، وفقه فاضل، ونائب كم رفع من نواب، ومقدم قدمه راسخ وسهمه صائب، كان مُبْجَلًا، مُعْظَمًا، مُعْزَرًا، مَكْرَمًا، مُحْتَرَمًا في الدولة، معدودًا من أرباب الصون والصولة، ذا وقار ومهابة، وأوامر مقرونة بالإجابة، ورأي وتدبير، وتدقيق وتحرير، يحكم بالشرع الشريف، وينصر المظلوم ويُعين الضعيف».

فرحمة الله عليه، وعلى أيامه، وعلى جميع من هم على أمثاله.



ذكروا أنه حين أجرى نهر ساجور وكان قبل أرغون بعض



النواب قصد سوقه إلى حلب، كما فعل أرغون، فقيـل: من ساقه يموت من عامه، فتأخر عنه هؤلاء النواب، فلما قيل مثل ذلك لأرغون، قال: لا أرجع عن خير عـزمت عليه، وهو حسن توكل منه على الله تعالى.

فقدّر الله تعالى أنه مرض، ومات من عامه<sup>(1)</sup>.

**قال الذهبي:** كان تركيًّا، فصيحًا، مليح الشكل، شديد الحرص، وكانت وفاته بحلب في ربيع الأول سنة (731هـ)<sup>(2)</sup>، فلم يعيش إلا (50) عامًا، فيا بركة ذلك العمر القصير، وأعظم نفع ذلك الأجل القريب! رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً واسعة، وغفر له، وعوض أمتنا في هذه الأعصر من يسير بمثل سيرته.



وفي حياة هذا الوزير العالم عـظـات وعبر لمن تأملها، من أعظمها أنه يضرب مثلاً للعالم؛ أي شيء يكون إذا حكم، وبأي سيرة يسير إذا ولي، وأي نفع عظيم يعم الناس بفضل علمه بربه ومعرفته بنبـيه وتضلّعه من دينه؛ عدل وقسط في الحكم، ورخاء

(1) الطبقات السنـية (ص 165).

(2) الدرر الكامنة (1/ 418).



وبسطة في الرزق، ومناخ صالح يأخذ فيه كل واحد من الرعية حقه؛ يستوفي الحقوق، ويضعها مواضعها.

فأي شيء من الملك يطمع فيه الناس وراء ذلك؟

وماذا يخشى الناس من دين الله إذا حكم وملك؟ إنه - لو يعلم الناس - بركة كله ورحمة كله وخير كله، وما فيه ما يخشى أو يخاف!

إنَّ التاريخ يقصّ علينا بلسان فصيح صادق أنّ التزام المسلمين بأحكام القرآن كان سبب عزهم ونصرهم ومصدر الأمن الذي عرفوه طوال تاريخهم، وعلى العكس من ذلك لما هجروا أحكام القرآن هانوا وذلّوا ورخصوا.

وصدق الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

أو يظنّ النَّاسُ أنّ الله تعالى أنزل القرآن ليصلح عقائد الناس، وعباداتهم، وأخلاقهم فحسب؟ ألا فليعلم من لم يعلم أنّ القرآن نزل لذلك ونزل أيضًا لإصلاح دنيا الناس وأحوالهم ووقائعهم،



ليقودهم ويحكمهم من خلال أعظم تشريع عرفته البشرية بينه في القرآن، فقد أنزل الله في هذا القرآن كل علم، وبين فيه كل شيء، فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله تعالى الدليل على سبيل الهدى فيها، على حدّ قول الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>(1)</sup>.

لقد جمع الله للشرعة الإسلامية التي بعث بها رسوله وخليفه محمدًا ﷺ صفة الكمال - فهي خالية من أي نقص ومن الحاجة إلى آية زيادة، وصفة الشمول - فما من أمر يحقق الخير إلا دلّنا رسول الله ﷺ عليه، وما من شر إلا حذّرنا منه-، وصفة الخلود والبقاء - فهذا كتاب الله محفوظ أبد الدهر لم تطله ولن تطاله يد التحريف أو التجريف-.

وقد جعل الله لهذه الشريعة غاية وخصائص وأهدافاً تتواضع أمامها كل شريعة وقانون، فما بال أساليب الحكم عندنا شردت عن صراط الله المستقيم منذ مئات السنين؟

إن التزام شرع الله، وترك شرع ما سواه، هو من مقتضى لا إله إلا الله.

بل كل صغير من أمر المرء وكبير لا بد أن يكون وفق أمر الله

(1) الرسالة (ص 20)، بتصرف، ت. العلامة أحمد محمد شاكر، ط دار التراث.



ونهبه، لا على هوى الإنسان ووفق مراده، ولكن الإنسان يأتي عليه ساعة يتكبر فيها ويتجبر ويظن بنفسه القوة والقدرة على أن يكون مستغنياً عن السير على أوامر الله فيمضي بعيداً عنها ليختار لنفسه من المناهج ما شاء، ظناً منه أنه إنما يفعل ما هو من جملة مستحقاته، ونسي أنه إنما هو عبد مسكين فقير للنفس الذي يخرج منه أن يعيده إليه رب العالمين سبحانه، عبّر عن ذلك شاعر الإسلام الحكيم محمد إقبال - رحمه الله تعالى - إذ يقول:

الحب ذو العصف والريحان ينبته

من ظلمة الطين رب الحب والطين  
والغيم من لجج الأمواج يرفعه  
إلى السماوات سلطان السلاطين  
يسوق للزهر أنساماً تهيجه  
فيرسل الزهر أنغام البساتين  
للشمس من نوره طوق يزينها  
وللندی نسب من حوره العين  
فقل لصاحب تاج يدعيه له  
أفُقْ فإنك مسكين المساكين



ولله در ابن عاشور في قوله: «إنَّ مراد الله تعالى من توجيه الشرائع وإرسال الرسل، ليس مجرد قرع الأسماع بعبارات التشريع أو التذوق لدقائق تراكيبه، بل مراد الله تعالى ممَّا شرع للناس هو عملهم بتعاليم رسله وكتبه»<sup>(1)</sup>.

فيا طالب العلم! إن الشريعة لا يمكن أن تطبق تطبيقاً حقيقياً إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيّتها، وربانية مصدرها، وعدالة أحكامها، وسموّ أهدافها، ويتعبّدون الله بتنفيذها، وهذا يجعلهم يحرصون على فهمها فهماً دقيقاً، وعلى فقه أحكامها ومقاصدها فقهاً عميقاً، ويتفانون في تذليل العقبات أمامها، كما يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها، وأسوة حسنة لغير المقتنعين بها؛ يراهم الآخرون في إيمانهم وأخلاقهم وسلوكهم، فيحبون الشريعة لما يرون من أثرها في حياتهم، فكن مثلاً لها ونموذجاً طيباً بفعالك وأحوالك قبل كلماتك وأقوالك، ثم لا تنفك وأنت تذكر بهذه الفريضة العظيمة المضيّعة وهذا الواجب الكبير المنسيّ، عسى أن يكون في تذكرتك الفتح، أو تؤدي الذي عليك فيه من حقّ فيأتي الله بسبب ذلك بخير من عنده.

(1) التحرير والتنوير (3/ 190)، الطبعة التونسية، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط. دار سحنون.



رَدَّ اللهُ المسلمين إلى دينه رَدًّا جَمِيلًا، ورزقنا بفضلِهِ العيش في  
زمن يظَلُّهُ حكم الإسلام، وحقَّقَ بَمَنِّهِ وكرمه تلك الأُمْنِيَّةَ قَرِيبًا.  
يا لُبَّيْنِي أوقدي طال المدى  
أوقدي عُلَّ على النار هُدى  
أوقدي يا (لُبْنُ) قد حار الدليلُ  
أوقدي النار لأبناء السبيلِ  
شَرَّدِي هذا الظلام الجاثمًا  
أرشدِي هذا الفراشَ الهائمًا  
لَيْلُ هذا الركب في البِداء عسْعَسُ  
أقبلِي يا (لُبْنُ) بالنور المقدسُ  
هَلَّتْ الأنوار والبشرى علينا  
أرشدِي فيها الحيارى يا (لَبِينِي)  
أرشدِي كُلَّ الحيارى في الدروبِ  
بالشذا والنور في وجه الحبيب<sup>(1)</sup>



---

(1) الأبيات الثلاثة الأولى من قصيدة رمزية للدكتور عبد الوهاب عزام،  
والأخيرة للدكتور عبد المعطي الدلاقي، انظر: ربحت محمدًا ولم أخسر  
المسيح (ص 112)، الدكتور عبد المعطي الدلاقي





أبو الوليد التجيبي

إمام فقد ماله لكنه

لم يفقد علمه





## أبو الوليد التجيبي إمام فقد ماله لكنه لم يفقد علمه

في الأندلس كانت لنا أجداد، خلافةٌ ودولٌ وممالك، حضارةٌ ومدنيةٌ وثقافة، علماء وفقهاء وقضاة، ومسلمون بالملايين؛ سطوروا تاريخًا مملوءًا بالأجداد، يؤسفني -ويؤسف كلَّ حرٍّ- ألا يعرف غالب المسلمين اليوم عنه شيئًا!

لكننا -أبدًا- لن ندع التذكرة به كلما سمحت الفرصة وجاءت المناسبة، وأيضًا بغير مناسبة، فلا نفتأ نذكر علومنا هناك والعلماء، ولا ننفك نحكي معاركنا هناك وبطولات الشهداء، ولا نغادر صغيرة ولا كبيرة في هذا التاريخ وأحداثه إلا أتينا عليها بالذكر وجددنا بها -مع الشبيبة- العهد.

لقد ذكرنا في هذا الكتاب من قبل -ابن حزم الأندلسي-، وها نحن أولاء نذكر الإمام القدوة أبا الوليد التجيبي، وكلاهما من الأندلس، معدودين في خيرة علمائها، بل في خيرة علماء الإسلام.

غير أن ابن حزم نشأ في كنف والده؛ غنيًا بهاله، عزيزًا بجاهه، و«محمد بن أحمد بن أبي الوليد» -الذي نتناوله بالحديث الآن- نشأ



يتيمًا، وذلك أن والده وجده ماتا معًا، في سنة (641هـ)، فنكب بموتهما.

ورغم أنه لم يكن فقيرًا، بل كان ذا مال جزيل إلى الغاية إلا أن ماله تمزق بأيدي الظلمة، حتى يقال عن ابن الأحمر، سلطان غرناطة، أنه أخذ منه - في دفعة واحدة - عشرين ألف دينار<sup>(1)</sup>!

فتمحّق ماله حين صادره ابن الأحمر<sup>(2)</sup>.

وكذلك لم تسلم كتبه في تلك النكبة، فقد عدمت له كتب كثيرة جليلة<sup>(3)</sup>.

لكن ذلكم اليتيم الذي غلب على ماله وفقده، لم يلبث أن جاء إليه المال يسعى بأضعاف ما فقد، حتى إننا لنقرأ في سيرته أنه كانت له عدة كاملة من السلاح والخيّل، أعدها للغزاة في سبيل الله من ماله<sup>(4)</sup>؛ وقفًا على الجهاد والمجاهدين، وهو أمر ما سمعنا به قط في الأولين والآخرين، وإنه لتفرد نفيس.

---

(1) الدرر الكامنة (5/ 83).

(2) ذيل تاريخ الإسلام (197).

(3) ذيل تاريخ الإسلام (198).

(4) الدرر الكامنة (5/ 83).



وقد جاءه مع المال منصبٌ رفيعٌ، فعرض عليه نيابة الحكم فامتنع؛ إيثاراً للعلم، فقد أراد أن يفرِّغ نفسه له؛ يأخذ منه ويعطي. وكذلك عوّض كتبه؛ بل إنّه كتب بخطه كثيراً من كتب الفقه واللغة والحديث، كما يقول الذهبي<sup>(1)</sup>.

فسبحان الوهاب الذي يعطي بغير حساب.



ولد محمد سنة (638 هـ)، في بيت علم وفضل، فجده شيخ الأندلس ومفتيها وقاضي الجماعة، ووالد هذا الجد وجده كانا قاضيين، كذلك، فهو من بيت علم وفضل، وجلالة وقضاء وعدل!

فهو الإمام الكبير، أبو الوليد، محمد، بن أبي عمرو أحمد، بن قاضي الجماعة أبي الوليد محمد، بن القاضي أحمد، بن محمد، بن عبد الله، بن القاضي أبي جعفر، بن الحاج، التجيبي، الأندلسي، القرطبي، ثم الإشبيلي، المالكي<sup>(2)</sup>.

وقد ذكره الإمام الذهبي فلقبه: الشيخ، الإمام، الفقيه،

(1) ذيل تاريخ الإسلام (198).

(2) نفسه.



القدوة، بقية السلف<sup>(1)</sup>.

نشأ «محمد» في حجر أمه، وتحولوا إلى بلدة يقال لها: «شريش»، بمقاطعة «قادس»، من بلاد الأندلس، ثم غرناطة، ثم شب وقدام تونس، وسكنها خمس سنين، ثم رحل بولديه إمامي المالكية -بعد- إلى المشرق، واختاروا دمشق فسكنوها، وأمّ بمحراب المالكية بجامع بني أمية<sup>(2)</sup>، وسمعوا من الفخر ابن البخاري وغيره.

كان الإمام «أبو الوليد التجيبي» وقوراً، ديناً، منور الشيبة، حسن الفضيلة، متين الديانة والتأله، وبالجملة فمحاسن هذا الإمام كثيرة جمّة.

وكان منقبضاً عن خلطة الناس<sup>(3)</sup>، هكذا يصفه مؤرّخوه!

وربما كان انشغاله بالعلم وإقباله عليه بكليّته -وكان من العلماء العاملين- سبب ذلك الوصف، ومما يعين على هذا الفهم أنه لم يقبل بنياية الحكم كأنه كان يؤثر البُعد عن أبواب السلاطين

(1) نفسه.

(2) انظر: الدارس في تاريخ المدارس (2 / 5).

(3) ذيل تاريخ الإسلام (198).



والأمراء، ليعتد عن مواقف الذل والهوان كما اعتذر عما رمي به  
من الانقباض أيضًا القاضي الجرجاني، وبين أسبابه فقال:  
يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا  
رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمًا  
أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ  
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَكْرَمًا  
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحٍ لِي يَسْتَفِزُّنِي  
وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمًا  
وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الْأَمْرُ لَمْ أَبْتَ  
أَقْلَبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمًا  
وَلَمْ أَفْضِرْ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كَانَ كَلِمًا  
بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلْمًا  
إِذَا قِيلَ هَذَا مِنْهُلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَى  
وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا  
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي  
لَأُخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لَأُخْدِمَا

أَشَقَى بِهِ غَرَسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً  
 إِذَنْ فَاتَّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمًا  
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَتَهُمْ  
 وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لِعُظِّمًا  
 وَلَكِنْ أَذْلُوهُ فَهَانَ وَدَسُّوا  
 حَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا



إن عزَّ العالم بعلمه لا يعدله شيء في الدنيا بأسرها، لقد فقد  
 «أبو الوليد» ماله؛ خلفه وراءه -مكرهاً- في بلاد الأندلس، ورحل  
 في البلاد يحمله -في رحلته- علمه، هو الذي يُؤويه ويُطعمه  
 ويسقيه، ليس تكسباً به ولكن عرف الناس له فضله فعملوا معه  
 بموجبه وأنزلوه منزلته، وقدروه حق قدره.

إنَّ العلم جاه من لا جاه له، وعزٌّ من لا عزَّ له، ومال من لا  
 مال له، بل العلم -من كلِّ وجه- خير من المال، وصاحب العلم  
 -بكلِّ حال- خير من صاحب المال!

ولله درّ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إذ يقول: «العلم خير من



المال، العلم يجرُسُكَ وأنت تحرسُ المال، العلم يزكو على الإنفاق - وفي رواية على العمل - والمال تُنْقِصُهُ النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يُدَانُ بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحداث بعد وفاته، وصناعة المال تزول بزواله، مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء»<sup>(1)</sup>.

ففرز - أخي - بعلم، تعش به حيًّا، عزيزًا، عليًّا.



صنّف الإمام أبو الوليد تصانيفَ وصفها تلميذه الذهبي بأنها نافعة<sup>(2)</sup>.

وقد مات رَحِمَهُ اللهُ في ثامن عشر رجب، سنة (718 هـ)<sup>(3)</sup>، وكانت له جنازة مشهودة<sup>(4)</sup>، وخلف ولدين عالمين فاضلين، صارا إمامي المالكية في زمانها وهما اللذان كانا أصحابه من الأندلس،

---

(1) المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص 584) أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريدي، ت. عبد الكريم سامي الجندي، ط. دار الكتب العلمية.

(2) الدرر الكامنة (5/ 83).

(3) انظر: شذرات الذهب (6/ 329)، ابن العماد، إنباء الغمر (3/ 97).

(4) الوافي بالوفيات (2/ 102).



وقد ذكر ابن بطوطة أنها كانا إمامي المالكية زمان مروره بدمشق في رحلته الشهيرة؛ كتب عن هذا في قوله: «كان إمامهم في عهد دخولي إليها: الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي، القرطبي الأصل، الغرناطي المولد، نزيل دمشق، وهو يتناوب الإمامة مع أخيه، رحمهما الله<sup>(1)</sup>».



---

(1) رحلة ابن بطوطة؛ تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (//).



حاجي كانجا  
مانسا موسى  
الملك العالم الذي كان  
يرتحل بأطنان الذهب  
ويعود بكنوز الكتب



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## حَاجِي كَانْجَا مَانَسَا مُوسَى الملك العالم الذي كان يرتحل بأطنان الذهب ويعود بكنوز الكتب

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لقد بنينا بالفعل مجداً لو أنصفت الإنسانية لما افتخرت بشيء مثلما تفتخر به، فإن الحضارة والمدنية التي عاشها بنو الإنسان في ظل الإسلام فخر خليق أن يعتز به كل إنسان منصف، ولقد خسر الجميع بهذا الانحطاط؛ المسلمون والكافرون، أما الكافرون فخسروا الدنيا والآخرة؛ الدنيا لأن أبرز ما يبحث الإنسان عنه خلالها هو السعادة، وقد طلبها العالم في المادة: مال ومنصب وشهرة، وقد أثبتت الأيام أنهم لم يتوصلوا إلى السعادة بذلك؛ فلا زال ذوو الثراء وأصحاب النفوذ والمشاهير فيهم يقضون حياتهم مكتئين تعسين وينهونها منتحرين؛ لأنهم لم يحصلوا السعادة.

والآخرة لأن البشرية حادت عن نهج خالق السموات والأرض، الذي لأجله خلقهم، وابتعث رسله، وأنزل كتبه، كي يتسابق الخلق إلى مرضاته ويتنافسون في طاعته، ومن كان بخلاف



ذلك فلن يحظى بهدية الله في نهاية المسابقة التي هي الجنة في الآخرة.  
وأما المسلمون فقد خسروا عزاً ورفعة وقيادة، سعت يوماً إلى  
تخليص البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد  
والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وأرادت تخليص المجتمع  
الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانحيار، ومن فوارق  
الطبقات واستبداد الحكام واستذلال الكهان، وبناء العالم على  
أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن  
المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل  
الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في  
الحياة.

خسروا كل ذلك عندما تخلوا عن مبادئ دينهم، ونكصوا عن  
تبعاتهم، فأنحطوا وانحط العالم معهم.



أينما توجهت من شرق الأرض أو غربها وجدت آثار أمجادٍ  
تذكرك بنا، نحن الآن في قلب أفريقيا، القارة البيضاء، التي أطلق  
عليها أعداء الإسلام اسم القارة السوداء أو القارة المظلمة؛ زوراً  
وبهتاناً، وتبعهم على ذلك المسلمون جهلاً وغفلة!



فلئن كان المستخربون، الذين نسميهم -جهلاً أيضاً- المستعمرين، قد جهلوا تاريخ أفريقيا جهلاً تاماً وعميت عليهم أنباؤها وغمضت عنهم أحوالها، فإننا نعرف من تاريخ القارة العظيمة ما يضيء العالم بنوره، لو أدرك العالم قيمته وحقيقته.

لقد كانت حاضرة أفريقيا وهي دولة «مالي» واسطة العقد بين الدول المتقدمة من إسبانيا إلى وسط الهند وكانت معظمها في ذلك الوقت مسلمة، إذ كانت تمبكتو عاصمة مالي تقع وسط أفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى.

هل أتى «هنري ستانلي» ذلك الصحفي الأوروبي الذي أطلق على أفريقيا مصطلح القارة المظلمة، أن أفريقيا كانت تعيش الحضارة يوماً في أسمى معانيها؛ تبني المستشفيات، وتؤسس الجامعات، وتخطط الطرق، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تعيش القرون المظلمة؛ تعاني التخلف، وتتخبط في الرجعية؛ انتشر فيها الجهل والخرافات، وعم الفقر، وقُتل العلماء واضطهد البحث العلمي، واعتقد الطبُّ عملاً من أعمال الشيطان؟

إنه لم يضر أفريقيا أشجار الغابات الاستوائية المنتشرة خلالها، تستطيل نحو السماء في صراع للبقاء والبحث عن ضوء الشمس،



مما يجعل المنطقة في الأسفل جد مظلمة ومعتمة، فإن أنوار المدينة والعلم، من دين، وطب، وإعمار، وحفريات، واستكشافات وغيرها؛ كانت تشعّ على القارة جميعها ضياء، وكانت القارة تصدر النور لما حولها من العالم.

ولم يضر أفريقيا كذلك تلك الصخور الكأداء التي لم يستطع أولئك المستخربون الإحاطة بتضاريسها بفضلها، وكيف تضرها وقد استطاع التطبيقيون من أبنائها رسمها بدقة، وتقديمها في ذلك الوقت المبكر إلى العالم في خرائط مما لفت انتباه أوروبا إليهم وطلبوهم لرسم الخرائط الإيطالية والألمانية والإسبانية وباقي خرائط العالم، لقرنين من الزمان، وذلك هو سبب انتشار اسم بعض ملوك أفريقيا مرتبطاً بكثير من الخرائط الإيطالية.

وبرهاناً على ما قدمنا من معطيات تعالوا بنا نطالع سيرة هذا الملك العظيم والعالم الجليل الذي عرفته القارة البيضاء المنورة ملكاً عادلاً، وسلطاناً صالحاً، وعالماً مصلحاً، وذلك في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهو الملك مانسا موسى الذي ولد سنة (781هـ) الموافق عام (1280م).

كان حاجي كانجا مانسا موسى من أعظم زعماء امبراطورية



مالي، وهو من أشهر ملوك أفريقيا والإسلام في القرون الوسطى.  
خلف مانسا موسى -ومعنى مانسا: الملك- أبا بكر الثاني على  
عرش امبراطورية مالي، عام 1312م، تلك الامبراطورية ذات  
الثراء الواسع والتي امتدت طوال ألفي سنة من المحيط الأطلسي  
إلى بحيرة تشاد وكانت تشمل كل أجزاء الدول الحديثة من  
موريتانيا والسنغال وغامبيا وغينيا وبوركينا فاسو ومالي والنيجر  
ونيجيريا وتشاد، وتضمنت عقوداً من السلام والازدهار في غرب  
أفريقيا.

ما إن جلس مانسا موسى على العرش حتى عرفت البلاد  
سياسياً مُحَنِّكًا، استطاع خلال سنوات قليلة أن يضاعف مساحة  
مملكته، لتضم مناجم الذهب في غينيا بالجنوب، ويذكر أنه بعد أن  
ضم مملكة سونغاي صارت مملكته واسعة جداً، إلى أن صارت  
تضم (400) مدينة، حتى إن الأمر كان يستغرق سنة على السفر  
من واحدة من نهاية امبراطوريته إلى أخرى!

وذكر ابن بطوطة نحوًا من هذا في رحلته الشهيرة.

لقد صار مانسا موسى الحاكم الإفريقي الأكثر شهرة في  
القرون الوسطى، بل في العالم خارج أفريقيا، وتقدم إليه الحكام في



الشرق الأوسط وأوروبا بالهدايا وطلب العلاقات الطيبة.  
ورسم علاقات خارجية للدولة جذبت التجارة من أقصى  
شمال القارة إلى أقصى جنوبها، وأصبحت عاصمتها «تبكتو»، في  
عهده، محط القوافل التجارية عبر الصحراء، فازدهرت ثروة البلاد  
فوق ازدهارها الرائد!

فضلاً عن الشركات العملاقة التي كانت تعد شركات دولية،  
وليس أدلّ على ذلك من أنه تم في عهده استخدام الطوب اللبن  
بعد إحراقه كمواد للبناء، ومن مملكة مالي وبالتحديد من «غاو»  
عرفه العالم ولم يكن يستخدم من قبل.

إضافة إلى شركات استخراج وتصدير الملح، وكان الملح وقتها،  
له قيمة الذهب نفسها!

### **وتقول بعض المصادر التاريخية: إن مملكة «منسا موسى»**

كانت تنتج أثناء حكمه نصف الذهب والملح المنتج في العالم.  
كما وضع الملك العالم رَحْمَةُ اللَّهِ نَظْمًا ولوائح داخلية ذات خطط  
واسعة وقريبة المدى في مجالات كثيرة، اقتصادية وعلمية ومعمارية  
وغيرها، فاهتم بإنشاء المساجد والمدارس والمستشفيات وتخطيط  
الطرق، كما أسس جامعة علمية، هي جامعة سانكوري، والتي



كانت مركز إشعاع علمي في أفريقيا.

كما اهتم ببعث الدعاة إلى أرجاء الامبراطورية وما حولها  
ينشرون الإسلام في كافة أنحاء امبراطوريته وحدودها، فاستطاع  
بذلك كسب أراض جديدة وقلوب من السكان حوله، جاءت  
طائعة؛ لتدخل في الإسلام وتدين له بالإذعان!

وكان مانسا موسى عالماً ورعاً وعابداً وجواداً منفقاً وكان على  
دراية كبيرة باللغة العربية، وستظل رحلته إلى حج البيت الحرام  
قصة من قصص الدهر الخالدة من نواح عديدة!

لقد خرج من بلاده في قلب أفريقيا قاصداً البلد الحرام،  
لقضاء فريضة الحج في بعثة تضم 60 ألفاً، معهم مئات الجمال  
المحملة بالذهب والهدايا، وقد وزع في طريقه إلى الحج آلاف مؤلفة  
من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة لما نزل على الملك الناصر  
محمد بن قلاوون فأهداه منها ووزع على الناس شيئاً عظيماً، ويحكي  
المؤرخون أن عمله ذاك تسبب في هبوط أسعار الذهب، بالقاهرة،  
وكذلك بالمدينة، واستمر كذلك مدة عشر سنوات كاملة!

وهذه هي المرة الوحيدة التي سجلت في التاريخ أن رجلاً



واحدًا كان بإمكانه أن يسيطر بشكل مباشر على سعر الذهب في منطقة البحر الأبيض المتوسط!

وذكر المؤرخون أنه كان يبنى مسجدًا كل يوم جمعة في أي مكان يصل إليه قبلها؛ لإقامة صلاة الجمعة فيه، وبعض أماكنه هذه اتخذت مدناً وبنيت حولها ممالك.

ولما حل الملك موسى بالبيت الحرام تصدق بأضعاف ذلك على أهل الحرم خاصة العلماء وطلاب العلم والمجاورين به، ثم فقراء البلد الحرام، وبنى مباني في المدينة المنورة أوقفها على طلاب العلم والمجاورين بالمسجد الحرام!

كم اصطحب هذا الملك معه من أطنان الذهب، كي تكفي هذه النفقات كلها؟ يقول المؤرخون: إنه خرج في قافلة كبيرة تتكون من مائة جمل، وألف من العبيد وخمسمائة من الجواري، وكان كل جمل يحمل بمائة وستين كيلو ذهبًا، وكل جارية أو خادم يحمل صندوقًا من الذهب.

وقد كانت مالي منجمًا للذهب، غنية جدًا بالثروات، وقد زادت ثرواتها منه بضم غينيا كما قدمنا.

ولهذا يُعدّ الملك مانسا موسى من أغنى أغنياء العالم على مر



العصور، وفقاً لقائمة «أغنى 25 شخصاً عبر التاريخ» التي أعدها بعض المهتمين بهذا الشأن، وتصدر القائمة الملك مانسا موسى؛ إذ بلغت ثروته تقديراً 400 مليار دولاراً!

استغرقت رحلة الملك موسى في ذهابه إلى الحج وإيابه منه عاماً كاملاً، قطع خلالها ما يقرب من أربعة آلاف ميل، من مالي إلى مكة المكرمة، وكان قد قام بالتحضير لها مدة سنوات، شارك خلالها الحرفيون والصنّاع من مختلف المدن في أنحاء مالي، وتمت هذه الرحلة عام (1324هـ).

وقد عاد بعد الحج إلى دياره، لكنه لم يعد فارغاً، ففي عودته أحضر معه عدداً من العلماء الشرعيين والمدنيين والإداريين، وكان من بينهم مهندسين معماريين، أسهموا في بناء مدينته العظيمة، لتتحول إلى حاضرة، تنتشر بها المساجد والمدارس والمكتبات والجامعات، ومن بين ما أسهموا في بنائه مسجدي جاو وتمبكتو القائمين إلى يومنا هذا، وقد دعا الملك موسى الطلاب للحضور إلى مملكته فجاء بعضهم معه من الحرم ولحق بعضهم به في طريق رحلته، ثم توافدوا بعد ذلك على حاضرتهم من كل فجٍّ عميق، فعزز بذلك الروح الإسلامية في مالي.



وقد أكمل الملك موسى منظومته الحضارية في رحلته تلك؛ إذ  
رجع بالجمال محملة بالكتب، فأحضر معه بدلاً من أطنان الذهب  
آلاف الكتب العلميّة في كلّ فروع العلم!

لقد رحل بالذهب وجاء بخيرة العلماء وكنوز الكتب.

إنها أغرب حجة لأغرب حاج في التاريخ!

وهذه الرحلة على سعة أحداثها وعظم وقائعها قصة حقيقية،  
ليست من نسج الخيال، بل يرويها موثقو تاريخ مالي وغيرهم من  
المؤرخين، وما تزال أصداؤها بل حياة هذا العظيم جميعها محط  
اهتمام من عموم شعبه؛ رواية فخر واعتزاز، وكان ولا يزال محبوباً  
جداً.

بل إن المؤرخ العمري، الذي زار القاهرة بعد 12 سنة من  
زيارة الامبراطور موسى، وجد سكان القاهرة الذين يقدر عددهم  
في ذلك الوقت بنحو مليون شخص، لا يزالون يكثرّون المديح  
للهمنا موسى ويذكرونه بالخير!

ومن آثار هذه الرحلة الكريمة أن شجعت الممالك الإفريقية  
على قصد البيت العتيق، وتجهيز قوافل الحجيج، وإن كان من



آثارها أيضًا أن لفتت نظر لصوص أوروبا إلى ثروة مالي الهائلة، وألهبت حماسهم بعد ذلك لغزوها، بغية الوصول إلى مصدر هذه الثروة التي لا تصدق، فجاءوا يخربونها وينقلون خيراتها وثرواتها إلى بلادهم.

قد تبدو الأخبار مثيرةً للاستغراب وهي كذلك، ولأحدثك عن الأغرب والأشد إثارةً فإنهم في ذلك الزمن البعيد قد أبحروا مرّات في المحيط الأطلسي؛ لكي يصلوا إلى آخره أو يعرفوا ما وراءه، حتى إن بعض الكتب تذكر أنهم وصلوا الأمريكتين قبل أن يعرفها كولومبس، وقرأ بعض أخبار هذه المحاولات في كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، للعمري المتوفى سنة (749هـ) أي قبل ميلاد كولومبس هذا بقرن من الزمان أو يزيد!

لا عجب! إنّ القاعدة تقول: من جد وجد ومن زرع حصد، والله يعطي الدنيا لمن اجتهد!

إلى هذا الحد بلغت فطنة ذككم الملك الحكيم ومهارته، لقد عرف بغيته وحدد هدفه، فلا غرو أن كانت مملكته مركزًا تجاريًا وثقافيًا ودينيًا، فانظر كيف غيرت همّة هذا الرجل وحكمته بلده وأسست حضارتها!



إنني أفكر الآن في سؤال؛ هل كان هذا الملك سعيدًا بحياته  
ومنجزاته تلك؟ وهل كان شعبه سعيدًا؟

**والجواب -بلا ريب-**: نعم، كانوا سعيدين غاية السعادة،  
وكيف لا؟

**ويستطرد السؤال في تفكيرى:** فما بال حكامنا هؤلاء يؤثرون  
إتعاس أنفسهم وشعوبهم، حين يختارون الاستئثار بخيرات البلاد،  
ويسرقون أقوات العباد، فتظلّ شعوبهم حاقدة عليهم، ويظّلون هم  
في وجل من غضبتها وانتقامها، ويظّلون معًا في حياة تعسة وشقاء  
مستديم؟

لكن مانسا موسى عاش راضيًا مرضيًا ومات كذلك، فإنه  
رَحِمَهُ اللهُ قد عاد إلى بلاده، على نيّة أن يقرر لابنه الملك، ويتركه له  
بالكلية، ويعود إلى مكة المعظمة، ويقيم مجاورًا بها، فأثاه أجله،  
رَحِمَهُ اللهُ تعالى بعد حكم طويل تميز بشيوع الأمن والسلام في ربوع  
مالى، وفي تنمية وترقية التجارة والاقتصاد والتعليم، وفوق كل هذا  
وذاك، في جعل اسم «مالى» معروفًا في كافة أرجاء المعمورة.

هذا ما فعله مانسا موسى لينير حياته وحياة شعبه بالسعادة،



ويؤدي حق منصبه، ويترك أثرًا يكون له لسان صدق في الآخرين،  
فهل يفعلها حكامنا؟ هداهم الله إلى الحق، وقصم من لم يهتد!  
فاللهم ابعث لنا من مثله نفراً، وخذ من عادى طريقته تلك  
فقطعهم بدداً.



توفي الملك مانسا موسى عام 1331م، وتولى ابنه مانسا  
ماجان حكم الامبراطورية بعده، لكنه لم يحسن سياسة البلاد من  
بعده إذ تنازع هو وبقية إخوته الملك والمال، فبددوا الثروة وأنفقوا  
جزءاً كبيراً منها في الحروب الأهلية، وأضاعوا الملك.  
وانتكست مالي في أحوالها السياسية والاقتصادية إلى أن صارت  
اليوم من أفقر الشعوب الإفريقية!

ولكن ما زالت مالي تحتوي على كنز ثمين يحاول العلماء العثور  
عليه، وهي الكتب التي جاء بها مانسا واحتفظ ببعضها أهل القرية  
إلى الآن في أغلفة من الجلد أو في الكهوف وفي وصناديق تحت  
الأرض وقت الاحتلال الأجنبي لمالي.

وقد عرفت القارة الإفريقية الكثير من هؤلاء الرجال الذين



هم على شاكلة مانسا موسى الأول، فالحضارة الإسلامية التي  
قامت على نهر السنغال عرفت رجالات كثر يعدّون من المجددين  
والمجاهدين الذى ساهموا في نشر الإسلام وبناء أمجاده، تحدثنا عن  
عملاق منهم فيما مضى وهو الخليفة عثمان بن فودي، ولعلّ الفرصة  
تسنح في مناسبة أخرى لتتحدث عن عظماء آخرين.

هذه بعض أمجادك يا أمّتي!

فمتى تفيقين من غفلتك وترجعين رجالات كثر يعدّون!  
فقد أضحى الناظر إليك في شكّ أنك على قيد الحياة؛ لطول  
عهذك بالسبات، فاللهم شموخاً وعزة!





الشريفة المهماء  
الأستاذة الأولى  
للفقه وأصوله





## الشريفة الدهماء الاستاذة الأولى للفقه وأصوله.

لا ريب أنّ التاريخ الإسلامي قد بخل علينا بأسماء وأخبار  
كثير من النساء الفضليات، وهو إن حفل بشيء من ذلك، فما نظنّ  
أنّ ما حفل به يساوي عشر معشار ما بخل به!

وأيضاً فأولئك اللواتي أخبرنا التاريخ بأسمائهنّ وفضلهنّ قد  
أمسك كثيراً جدّاً من أخبارهنّ، حتى لتعدّ تلك الأخبار عدّاً؛  
لقلتها أو ندرتها.

فما بال تلك المبخلة في أسمائهنّ وذكر فضائلهنّ؟ ليس هذا  
-قطعاً- من جملة ما يخفى أو يُخفى!

ولا أحبّ أن يفهم عنيّ أنّي أقول: ظلم التاريخ الإسلامي  
المرأة وهضمها حقّها في الشهرة والذكر!

فإنّ كثيراً من ذخائر هذا التاريخ ما تزال حبيسة الأرفف،  
مخطوطة، لم تر النور، ويبقى -أيضاً- أنّ ما طبع من هذه الذخائر لم  
تلق هذه النّاحية منه عناية الباحثين المعاصرين، هذا إن قلنا إنّ



التراجم - عمومًا ومنها تراجم النساء - قد حصرت في الكتب المتخصصة في هذا الشأن «كتب السير والتراجم»، كيف وكتب العلماء ملأى بذكر كثير جدًا مما لم تحو هذه الكتب وبعض من ذكر - أو ذكروا - فيها أفضل بكثير ممن نقرأ في سيرهم في الكتب المخصصة لذلك!

إنَّ في بطون الكتب الإسلامية العامة ما يفوق عدد من ذكروا في الكتب المخصصة للتراجم، ونرجو أن يهين الله لها من يستخرجها فيتحف بها الدنيا.

وما قلناه عن قلة الأخبار الواردة عن فضليات النساء ينطبق على هذه عالمة المحققة التي نتناول سيرتها في هذه السطور، وهي الدَّهْمَاء بنت يحيى بن المرتضى، الحسنية الشريفة، والعالمة النابغة<sup>(1)</sup>.

فالمصادر شحيحة بالأخبار عنها، رغم أنَّها كانت ذات شهرة من نواحٍ عديدة: فهي أخت ملك، وصاحبة علم، وتصدّرت للتدريس فاشتهرت، ولم يكن علمها قاصرًا على فرع واحد من العلوم، بل كانت عالمة ومحققة في علوم شتى.

كانت هذه الفاضلة، بارعة في عدة فنون؛ في علم الكلام وقد

---

(1) الأعلام (5/3).



صنّفت فيه، وكذلك صنّفت في فروع علم الفقه، بل في أصوله، ومؤلفاتها مشهورة معروفة؛ اشتهرت في زمانها، وقامت هي -وغيرها- بتدريسها.

ومن النادر أن نجد في تاريخ العلوم امرأة برعت في علم أصول الفقه وصنفت فيه، ولعلها تفردت بذلك، والله أعلم!

بل إنها لتعد من أبرز الوجوه النسائية التي برعت في مجموع هذه العلوم من عقيدة وتفسير وفقه وأصول، عبر التاريخ الإسلامي الممتد إلى أكثر من 1430 عامًا!

فقليلات هنّ العالمات اللاتي تحتفظ ذاكرة التاريخ بمصنّفات هنّ، وقليلات فيهنّ الفقيهات، وندرة منهنّ من صنّفن في الفقه، وأندر من ذلك من جمع تراثهن العلمي هذا التنوع في تحصيل العلوم والتمكن فيها.

عاشت الدّهماء؛ المشهورة باسم: «الشريفة دهماء» في مدينة ثلاء اليمنية من بلاد عمران، وهي أخت الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، إمام الدولة الزيدية في اليمن والمصنّف الذي عرف بغزارة الإنتاج، في فروع العلم المختلفة، وترك قدرًا كبيرًا من الكتب في العقائد، والمنطق، والشعر، والنحو، والقانون، ومن أعظم آثاره:



موسوعته الفقهية التي سماها «بحر الأزهار» وهي التي شرحها الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ وسمّى شرحه عليها: «السيّل الجرار المتدفّق على حدائق الأزهار»<sup>(1)</sup>.



اشتغلت «الشريفة دهماء» بالعلم منذ حداثة سنّها؛ ولم يكن لها شغل غير الاجتهاد في التحصيل، ثم تلقت العلم عن أخويها: أحمد ومحمد، وهما من أئمة الزيدية -علّما- ورؤساء دولتهم -حكّما-.

ويذكر المؤرخون أنها هي التي تولت رعاية الإمام أحمد بعد موت أبيه، وأثناء ذلك درست عليه العلم، وكان من أُرأس العلماء في عصره<sup>(2)</sup>.

على يدي هذين العالمين تلّقت «الشريفة دهماء» العلم وبرعت في فنونه؛ العقائد، والفقه، والفرائض<sup>(3)</sup>، والأصول، وغيرها.

ومن طريف ما يُروى في حرصها على تلقّي العلم وعظيم ملازمتها للعبادة أنها كانت تجلس للاستفادة من أخويها الإمامين

(1) انظر: البدر الطالع (1/ 122 - 126).

(2) خلاصة الأثر (1/ 302).

(3) معجم المؤلفين (4/ 146).



أحمد ومحمد فكانت إذا طرأت على مجلسها مذاكرة في مسألة فرأت  
أنها تطول وتكثر فيها المراجعة والمناظرة، قامت تصلي حتى يفرغ  
تحريرهما تلك المسألة فتأخذها صفوًّا.

وكانت إلى جوار ذلك شاعرة مجيدة، تقول الشعر وتنظمه،  
ومن شعرها في مدح كتاب أخيها «الأزهار»:  
يا كتابًا فيه شفاء النفوس

أنتجته أفكار من في الحبوس  
أنت للعلم في الحقيقة نور

وضياء وبهجة كالشموس<sup>(1)</sup>

وهي تشير بذلك إلى أن أخاها الإمام أحمد ألف كتاب  
«الأزهار» أيام سجنه، وكان ذلك عام (1399هـ)، وقد هرب من  
السجن بمساعدة حراس السجن الذين كانوا من أنصاره،  
فتعاطفوا معه، وأطلقوا سراحه.

وكانت الدهماء صاحبة عبادة وتقوى، موصوفة بالعفة معروفة

---

(1) البدر الطالع (1/248)، مؤلفات الزيدية (1/381)، (2/181)،  
(2/193)، نقلًا عن: «المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن في التاريخ  
الإسلامي»، (ص41)، فضيلة الشيخ محمد خير رمضان يوسف.



بالزهد، وقد تزوجت بالسيد العلامة محمد بن أبي الفضائل،  
وأنجبت منه ابناً اسمه إدريس<sup>(1)</sup>.

ومن جميل ما يروى عنها في التعبد أنها لم تكن ترضى أن يعينها  
أحدٌ على عبادة الله سبحانه بشيءٍ كتقريب الضوء، وقد أراد ذلك  
أخوها في بعض الليالي، وفعله، فمنعته، وكرهت فعله، كما يذكر  
ابن أبي الرجال في كتابه: «مطلع البدور ومجمع البحور».



بعدما تأهّلت «الشريفة دهماء» في العلم واقتدرت على  
تدريسه تصدرت للتدريس والتصنيف، فدرّست العلوم في مدينة  
ثلاء إحدى مدن اليمن، وهناك درس الكثير من طلبة العلم على  
يدها، واكتسبت آنذاك سمعة طيبة ومكانة علمية كبيرة.

وكانت «الشريفة دهماء» بالغة الكمال في التصنيف والتأليف،  
وقد صنّفت كثيراً من الكتب الجليلة المهمة، منها:

- «الأنوار في شرح كتاب الأزهار»، في أربع مجلدات، وهو

---

(1) الأعلام (5 / 3).



شرح على كتاب الأزهار، لأخيها أحمد، وهو على مذهب الزيدية<sup>(1)</sup>.

- شرح منظومة الكوفي في الفقه والفرائض.

- شرح «مختصر المنتهى في أصول الفقه»، وهو من مؤلفات ابن الحاج.

- كتاب «الجواهر» في علم الكلام، قيل: إنه يقع في ثلاثة مجلدات.

- كراسة في تراجم شعراء أهل الفضل، لم تكملها.

ولها رسائل ومسائل، غير هذا.

وقد أحبّها النَّاسُ وأقبلوا على دروسها ينهلون من علومها، وتعلّقوا بها، حتى إن أخاها الإمام أحمد طلبها لتنتقل عنده في مدينة «حراز» فارتاع أهل «ثلاء» لذلك، وتوسلوا إليه أن يبقّيها لديهم، فلمّا رأى تمسّكهم بها تركها، فاستمرت في التدريس في هذه المدينة حتى ماتت<sup>(2)</sup>.

وقد امتدحها المؤرخون، وأثنوا عليها بالعلم والفضل، حتى

---

(1) وقد قال الأستاذ الفاضل محمد خير رمضان يوسف: «أورد الزركلي شرحه «الغيث المدرار» في ترجمته.. فإما أن تكون أخته شرحته شرحاً آخر، أو أنه هو»، انظر: المؤلفات من النساء (ص 41)».

(2) البدر الطالع (1/ 248).



نُقل عن الإمام علي بن محمد قوله: «لو كانت دهماء بنت المرتضى  
ذكرًا ودعا إلى الإمامة ما شككت في صحة إقامته».



توفيت «الشريفة دهماء» في عام (837هـ / 1434م) <sup>(1)</sup>،  
رَحِمَهَا اللَّهُ وَعَفَا عَنْهَا.



---

(1) البدر الطالع (1/ 248).



أورنك زیب  
عالمگیر  
سلطان علی  
نہج الراشدین





## ﴿ أورك زيب عالمكير ﴾ سلطان على نهج الراشدين

في القرن السادس الميلادي، وبالتحديد عام (1526م) تأسست في إقليم شرق أفغانستان وشمال الهند سلطنة إسلامية كبرى، أساسها العدل، وقوامها الشرع، وطريقها التسامح، عرفت باسم «سلطنة مغول الهند»، وكان ذلك على يد السلطان المسلم ظهير الدّين محمد بابر.

وهو أحد أحفاد جنكيز خان - مؤسس الامبراطورية المغولية التي اعتبرت أضخم إمبراطورية في التاريخ - من جهة والدته. وهو أيضاً سليل تيمورلنك - الملك التوسعي الذي حاز نصف الدنيا تقريباً - من جهة والده<sup>(1)</sup>.

إلى هذين الملكين ينتسب «ظهير الدّين محمد بابر» مؤسس

---

(1) ينظر: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (4/ 75)، العصامي، ت. عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

وفي ترجمته للسلطان أورك زيب تخليط، فلعله اشتبه عليه بغيره، ينظر: (4/ 474).



السلطنة المغولية في الهند، وقد توسعت هذه السلطنة حتى شملت معظم أنحاء القارة الآسيوية.

هذه السلطنة التي امتازت بنجاح نادر، واتسم حكامها بقدرتهم التنظيمية والإدارية التي تستحق عظيم التقدير، وقد توالى على حكمها (18) سلطاناً، شيدوا مجداً وتاريخاً ما زال إلى اليوم يضيء حياة الشرق والغرب بآثاره العظيمة.

وكان آخر هؤلاء الأباطرة الأماجد وأعظمهم على الإطلاق: السلطان أبو المظفر، محيي الدين، محمد بهادر؛ المعروف تاريخياً باسم «أورنك زيب عالمكير»، وقد عاش هذا السلطان العظيم بين عامي (1618م - 1707م)<sup>(1)</sup>.

و «أورنك زيب عالمكير» ألقاب وليست أسماء، ولها معانٍ عظيمة في اللسان الفارسي، فـ«أورنك زيب» معناها: زينة المُلْك، وعالمكير، معناها: «جامع زمام العالم».

كان أورنك زيب سلطاناً من نوع فريد؛ على المستويين الشخصي والسلطاني، حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ اللهُ:

---

(1) الأعلام (46 / 6).



«بقية الخلفاء الراشدين»؛ إذ تميز عصره بالازدهار، الديني والحضاري لدولة الإسلام، فمن هو ذلك السلطان، وما هي ميزاته؛ ليستحق ذلكم اللقب الكبير؟



ولد السلطان أورنك زيب في بلدة «دوحد» في كجرات بالهند في عام (1028هـ) الموافق لعام (1619م).

ونشأ في بيت عز وترف وشرف، فأبوه هو «السلطان شاه جيهان»، أحد أعظم سلاطين دولة المغول المسلمين في الهند، وهو باني مقبرة تاج محل الشهيرة التي تعد الآن من عجائب الدنيا السبع الحديثة.

وقد ظهرت في «أورنك زيب» أمارات الفضل والمجد؛ تربية وسلوكًا وخلقًا منذ بداياته الأولى، فقد تربى تربية إسلامية خالصة، فلم تشب تربيته تلك شائبة، فعرف عنه منذ نشأته الأولى التدبّر ومحبة العلم، وقد تلقى العلم والفقه وبرع في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.

وعرف عنه -منذ صغره- البعد عن الترف والعزوف عن الملذات.



رزق «أورنك زيب» بسطة وقوة في العلم والجسم؛ إذ كان فارسًا شجاعًا لا يشق له غبار، وتروى عنه في إثبات ذلك قصص كثيرة.

لقد اكتملت لهذا «الصغير» كل أسباب العظمة، كأنها هو يهياً لأمر عظيم، سيتحقق على يديه، وكذلك كان؛ فقد جدّد شباب الإسلام في بلاد الهند، وأيد الله به الدين الحق في موطن عظيم كان يحتاج إلى رجل مثله، حتى لو قيل: إن «أورنك زيب» كان أحد مجددَي الدين في عصره لما كان ذلك بعيدًا.

### وإليك قصة ذلك:

كان جدّه «جلال الدين أكبر» الذي عاش بين عامي (1556م) و(1605م)، أحد السلاطين المغول الكبار الذين حكموا الهند فازدهرت إبان حكمه الدولة؛ دينيًا وحضاريًا لكن «بعد عشرين عامًا من حكمه، مسلمًا تقيًا، انتهى الأمر به أواخر أيامه إلى وضع دين جديد سماه: «الدين الإلهي»، وهو عبارة عن مزيج من الديانات التي في الهند، ودعا الناس إلى الدخول فيه والالتفاف حوله!

وأيضًا منع الجزية عن الهندوس وغير المسلمين!

وكان رأي «جلال الدين أكبر» هذا في الإسلام أنه يستحق



الاحترام، لكنه صار ديناً عتيقاً لا يصلح لهذا الزمان المزدهر، ويجب أن يعمل علي إنشاء دين جديد يناسب عصره، فباشر كلّ هذه الترهّات التي مضى ذكرها؛ لأجل هذا!

فأتى بذلك أمراً لم يسبقه إليه أحدٌ من سلاطين المسلمين.

وكان ذلكم السلطان في أوج عظّمته؛ شديد البأس قويّ المراس، فرغم مقاومة شديدة لقيها من المسلمين، لم يتراجع عن دعوته تلك، بل قام بنفى كثير من علماء المسلمين الذين عارضوا دعوته خارج الدولة، وظلّ الأمر كذلك فترة طويلة من الزمان، حتى مات عام (1605م)، وخلفه على الحكم ابنه السلطان «جهانكير».

وكان من بين العلماء الذي عارضوا دعوة «جلال الدين أكبر» بقوة شيخٌ جليلٌ يسمى أحمد السرهندي؛ أخذ هذا الشيخ الكريم يدعو الأمراء وقوّاد الجيش إلى الله ودينه ونبيّه، ويذكّرهم بالشرع الحنيف، ويحيي في نفوسهم الحميّة للإسلام، وكان يفعل ذلك -على الأرجح- سرّاً، لا جهراً، وقد ظلّ على حاله تلك مع القادة يذكّرهم ويعظّمهم حتى فاضت روحه إلى ربّه.

ونض بدعوته من بعده ابنه الشيخ محمد معصوم السرهندي،  
لكن شاء الله تعالى أن يضاف إلى الشيخ محمد عمل جديد جليل ذو  
أثر كبير، لم يكن لوالده من قبله، فقد هيا الله تعالى وقدر للشيخ  
محمد معصوم أن يقوم على تربية طفل صغير هو ولد للسلطان  
«جهان كير»، فنشأه نشأة دينية حسنة، ورباه تربية إسلامية خالصة،  
وقرأه القرآن فجوده، وعلمه اللغات؛ العربية، والفارسية،  
والتركية، إضافة إلى الأوردية، ودرسه الفقه الإسلامي على المذهب  
الحنفي، فبرع فيه، وعلمه الخط فأتقنه وكان خطاطاً بارعاً، ونشأه  
محباً للفنون، ومنها الشعر، فكان شاعراً مجيداً، وعلمه القتال  
فتخلق بأخلاق الفرسان!

لقد اجتمع في شخصية هذا الطفل صفات عدة رجال، ولم  
يكونوا أي رجال، بل كانوا رجالاً عظماء، اجتمعت له بهم صفات  
كثيرة من صفات العظمة، ولو قدر له أن ينفرد بواحدة منها، لكان  
بسببها عبقرياً لا يفري فريه أحد ولا يجاريه في مجاله إنسان، فكيف  
وقد اجتمعت فيه كلها؟

كان هذا الطفل الميمون هو «أورنك زيب»، ملك المستقبل



بعد أبيه «جهان كير»، وهكذا جمع كل صفات الملوك العظام في سنّ صغيرة.



نعم أبى الله إلا أن يتم نوره؛ تدرّج «أورنك زيب» في مناصب الدولة، فتولّى -في سنّ مبكرة- إمارة الدكن في وسط الهند، فأظهر الرشd في حكمه، وأفشى العدل بين رعيّته، واكتسب خبرة كبيرة خلال ذلك<sup>(1)</sup>؛ إذ سبر أغوار الحكم، وتعلّم فنون الإدارة وأتقنها، فلما تولى الحكم كان قد نضجت خبراته واستوت ملكاته الإدارية، فظهر أثر ذلك على الفور، وقدم لدولته على طول عمره المديد ما يشهد على ذلك من قوة وإخلاص وعزيمة وصبر، وتطلّع إلى المعالي والرقى.

وكان من ملوك المسلمين الذين برعوا في إدارة الدولة. وقاد الجيوش بنفسه في عهد أبيه؛ للحفاظ على هيبة السلطنة، ورد الطامعين في أطرافها وداخلها، فحافظ على وحدة البلاد من التفتت، وكانت له هيبة وسمت الملوك.



(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10/ 494).



ظَلَّ أَوْرُنْكَ فِي مَسَاعِدَةِ وَالِدِهِ السُّلْطَانِ «جِهَان كِير» حَتَّى كَانَتْ وَفَاةُ أُمِّهِ «مِمْتَاز مَحَل» الَّتِي بَوَفَاتِهَا انْشَغَلَ السُّلْطَانُ «جِهَان كِير» بِنَاءَ مَقْبَرَةٍ يُحَلِّدُ فِيهَا ذِكْرَهَا، وَصَرَفَ لَذَلِكَ الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى الْعَمَلِ الشَّاقِّ، مَهْمَلًا خِلَالَ ذَلِكَ السُّلْطَنَةِ وَشَتُونَهَا، فَظَهَرَتْ بَوَادِرُ الْفِتَنِ وَالثُّورَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْسُّلْطَانِ يَوْمَهَا مِنْ هَمٍّ إِلَّا النَّظَرَ إِلَى ضَرِيحِ امْرَأَتِهِ وَضَرِيحِهِ الَّذِي أَمَرَ بِنَائِهِ إِلَى جَوَارِهَا، مِمَّا شَجَعَ الْإِبْنَ الْأَكْبَرَ «دَارَا شَكُوهُ» عَلَى الْوُثُوبِ عَلَى مَلِكِ أَبِيهِ، فَاسْتَوْلَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِسْمَ، فَقَدْ ظَلَّ يَحْكُمُ بِاسْمِ أَبِيهِ<sup>(1)</sup>.

وَلَمْ يَكُنْ «دَارَا شَكُوهُ» مِنْ أَهْلِ الْحُكْمِ؛ فَقَدْ كَانَ مَائِلًا لِلدُّنْيَا، وَكَانَ أَيْضًا عَلَى مَذْهَبِ جَدِّهِ «جَلَالِ الدِّينِ أَكْبَرَ»، وَيُرِيدُ إِرْجَاعَ الْهِنْدِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عَهْدِهِ مِنْ ذَلِكَ الدِّينِ الْمَخْتَرَعِ!

وَهُنَا ظَهَرَتْ عَلَى «أَوْرُنْكَ زَيْب» آثَارُ تَرْبِيَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ مَعْصُومِ السَّرْهَنْدِيِّ، وَمِنْ اخْتَارِهِمْ لَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ<sup>(2)</sup>، وَأَنْتَجَ عَطَاؤُهُمْ وَتَعْلِيمُهُمْ إِيَّاهُ؛ إِذْ قَدْ رَفَضَ «أَوْرُنْكَ زَيْبُ» الْمُسْلِمَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ مَا

---

(1) نزهة الخواطر (6/ 738).

(2) نزهة الخواطر (6/ 738).



عزم عليه أخوه، وأيده في ذلك أخوه الثالث «مراد بخش»، فاستطاع «أورنك زيب» أن يأخذ الحكم لنفسه، وأيده الله فيما أراد، وأظهره على إخوته، فقهرهم، وقمع الثورات التي شنّوها ضده، وكأنّ والده قد مال إلى إخوته فيما عزموا عليه، فاضطر إلى نقله إلى حصن «أجرا» وألزمه الإقامة فيه وأحاطه بكل أنواع التقدير<sup>(1)</sup>، دون أن يكون له يد في مباشرة الدولة، حتى وافته منيته، فأعلن أورنك زيب نفسه سلطاناً فعلياً على البلاد، وكان وقتها في الأربعين من عمره.

وبتولي «أورنك زيب» الملك ابتدأ عهد العدل والحق، حتى رأى المسلمون فيه ما يذكّرهم بسيرة الخلفاء الراشدين الأولين؛ أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.



حكم «أورانك زيب» البلادَ بالحزم والعدل معاً؛ فقمع الثورات، وقضى على الاضطرابات، وأظهر التسامح وأفشى العدل وسار بالحق، وعرف فيه النّاس حاكماً من أعظم حكام العالم يومئذ.

---

(1) نزهة الخواطر (6 / 738).



وقد اتسعت البلاد في عهده؛ إذ إنه ما لبث أن قعد على كرسي الملك حتى لبس لأمة الحرب من أول يوم وظل في جهاد عظيم دام (52) سنة؛ من سنة (1068هـ/ 1658م) حتى سنة (1400هـ/ 1707م)، فخضعت له شبه القارة الهندية كلها، من مرتفعات الهيمالايا إلى المحيط، ومن بنغلاديش اليوم إلى حدود إيران.

لقد شهدت إمبراطورية المغول الإسلامية في الهند في عهده أقصى امتداد لها، وذلك أن السلطان أورنگ زيب طلق الراحة وترك القعود وبذل الجهود المتنوعة؛ إدارياً وعسكرياً؛ وقد خاض المسلمون في عهده أكثر من 30 معركة، قاد منها (11) معركة بنفسه، وأسند الباقي لقواده؛ لقد بذل جهده فأعطته الدنى هنالك زمامها، حيث لم يبق إقليم من أقاليم الهند إلا خضع لسيطرته، وبهذا استطاع السلطان المسلم «أورنگ زيب» تحويل شبه القارة الهندية إلى ولاية مغولية إسلامية ربط شرقها بغربها وشمالها بجنوبها تحت قيادة واحدة.



لقد سار «أورنگ زيب»، في الناس سيرة أحسن الملوك



وأعظمهم<sup>(1)</sup>، من الناحيتين الإدارية والدينية، وأثرت عنه أعظم الأعمال فيهما؛ أما في الناحية الإدارية فإنه:

- وحد البلاد، وقضى على الفتن والثورات الداخلية، وحفظ حدود الدولة الخارجية من المغيرين عليها<sup>(2)</sup>، ونجح في إحكام قبضته على شبه القارة الهندية بعد جهاد دام (26) عامًا، من جملة ملك استمر (52) عامًا.

- ساوى بين الرعية وجعل ولاته ونفسه كأحادهم، حتى إنه أعلن في الناس: من كان له حق على السلطان فليرفعه إلى القاضي ليقتضي فيه.

- أبطل الضرائب التي كان الملوك قبله أثقلوا كاهل الناس بها<sup>(3)</sup>، ومن العجيب أنها كانت (80) نوعًا! وكانت تبلغ ثلاثة ملايين روية سنويًا<sup>(4)</sup>، وهي مبالغ لا يتخلى عنها سلطان! لكنه رَحِمَهُ اللهُ أبقى نظام الشرع في الزكاة، وترك ما عداه.

- شجع الناس على زراعة الأراضي، وعاونهم على إصلاح

(1) نزهة الخواطر (6/ 738).

(2) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10/ 494).

(3) خلاصة الأثر (3/ 123)، المحيي، ط. دار صادر.

(4) نزهة الخواطر (6/ 738).



البور منها، حتى مرّت على النَّاس أيام القحط والحاجة سالمين،  
وازدهرت حياتهم بالرخاء والنماء.

- اهتم بالعمران وبنى الخدمات العامة، فأقام المساجد  
ومدّها بالعلماء والوعاظ، وعني بإقامة نظام الحسبة، ودعّمه بما  
يكفل قيامه بوظيفته من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(1)</sup>، وبنى  
الحمامات والفنادق العامة، وأنشأ المدارس بكثرة على نحو لم يسبق  
له مثيل من قبله، حتى ازدهر التعليم في عهده ازدهارًا كبيرًا، وبنى  
المستشفيات ودور المسنين، وأصلح الطرق، وبنى الحدائق<sup>(2)</sup>، حتى  
أصبحت «دهلي» في عهده حاضرة الدنيا.

- عين القضاة، وجعل له في كل ولاية نائبًا عنه، وخصص  
موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ويرفعونها إليه، حتى  
ينظر فيها بما يصلحهم.

- أبطل عادة تقديم الهدايا إليه، كما كان يفعل من قبل مع  
أسلافه، وأخذ ولاته بهذا.

- كان يجلس للناس ثلاث مرات يوميًا بنفسه، دون حاجب؛  
يسمع شكواهم، ويأمر بذلك نوابه وولاته، حتى إنه سمع أن نائبه

---

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (10/ 494).

(2) نزّهة الخواطر (6/ 739).



بالبنغال اتخذ مثل العرش يجلس عليه فنهره وعنفه وأمره أن يجلس  
بين الناس كجلوس عامتهم!!

هذا وغيره في ناحية الإدارة والعمران، أما الدين فقد أولاه  
الملك العالم عنايته الشديدة، وكان من آثاره في ذلك أنه:

- أظهر تمسكه بالإسلام والتزامه بشرائعه، على المستوى  
الشخصي والعام:

(أ) **فعلى المستوى الشخصي:** حفظ السلطان القرآن  
الكريم كله بعد ما أصبح سلطاناً<sup>(1)</sup>، وكان صاحب عبادة  
عظيمة<sup>(2)</sup>، ويخضع للمشايخ ويقربهم ويستمع إلى مشورتهم  
ويعظم قدرهم<sup>(3)</sup>، وأمر قواده أن يستمعوا إلى مشورتهم بتواضع  
شديد، وكان يصوم الاثنين والخميس والجمعة من كل أسبوع، لا  
يتركهم أبداً، ويأبى إلا أن يصلى الفرائض كلها في وقتها، جماعة، مع  
المسلمين، بل وكان يصلي التراويح إماماً بالمسلمين، ويعتكف  
العشر الأواخر في المسجد<sup>(4)</sup>.

---

(1) نزهة الخواطر (6/ 738).

(2) سلك الدرر (2/ 135)، ونزهة الخواطر (6/ 738).

(3) موسوعة الأعلام (2/ 14)، وزارة الأوقاف المصرية.

(4) خلاصة الأثر (3/ 123)، ط. الشاملة.



وبنى مسجد «بادشاه» في لاهور بباكستان الآن، المسجد الذي ظل إلى الآن شاهداً على عصر عز المسلمين وتمكينهم وحضارتهم هناك، وكان يصوم رمضان في شدة الحر<sup>(1)</sup>، ولا يفطر إلا على أرغفة من الشعير، من كسب يمينه، عن طريق العمل في كتابة المصاحف، ولا يرضى أن يطعم من بيت مال المسلمين!

ولما لم يستطع أن يحج إلى بيت الله الحرام استعاض بذلك أن كتب مصحفين بخط يده وأرسل واحداً إلى مكة والآخر للمدينة! وسبب ذلك أن والده كان قد منعه من الحج قبل السلطنة، وبعدها لم يستطع مغادرة البلاد والخروج للحج، في خضم القلاقل والثورات والعداءات الخارجية لبلاده مع البلاد المجاورة<sup>(2)</sup>. فاستعاض عن ذلك بتيسير سبل الحج وإرسال الهدايا للحرمين الشريفين؛ علماء وفقراء.

وكان يحيا حياة زاهدة متقشفة، فقضى على الأبهة والفخامة التي كانت تحيط بالملك في قصره رَحْمَةُ اللَّهِ وتقبل منه..

---

(1) نزهة الخواطر (6 / 738).

(2) نزهة الخواطر (6 / 738).



(ب) وعلى المستوى العام: أبطل الاحتفال بالأعياد الوثنية مثل عيد النيروز<sup>(1)</sup>، ومنع عادة تقبيل الأرض بين يدي السلطان والانحناء له، ومنع الخطب الطويلة التي تقال لتحية السلطان واكتفى بتحية الإسلام، كما منع دخول الخمر إلى بلاده، وصرف أهل الموسيقى والغناء عن بلاطه، ورويت في ذلك قصة طريفة: أنه كان يوماً خارج قصره فرأى الموسيقيين والقيينات يلبسون السواد ويكون ويحملون نعشاً، فسأل ما هذا؟ قالوا: هذا الغناء والمعازف نذهب لدفنها، فقال: إذن أحسنوا دفنها؛ لئلا تقوم مرة أخرى!

وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا؛ إذ لم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها<sup>(2)</sup>. كانت هذه السياسة ضرورية؛ لإنقاذ الدولة مما أصابها من عوامل الضعف والتفكك، وإصلاح أحوال المسلمين بعد أن ساد بينهم منذ عهد السلطان «أكبر» تهاون شديد في أمور الدين. وبهذا كان «أورنك زيب» أعظم ملوك الدنيا في عصره، ولم

---

(1) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (4 / 99).

(2) انظر: رجال من التاريخ (2 / 24)



يبعد من قال فيه -بحق-: إنه بقية الخلفاء الراشدين»<sup>(1)</sup>.

وقد دخل -إبانَ عهده- ملايينُ الهنود في الإسلام، كما وقف حائلاً ضد المد الصفوي الرافضي على بلاده.

**قال المؤرخون:** وليس له في عصره من الملوك نظير، في حسن السيرة، والخوف من الله تعالى، والقيام بنصرة الدين<sup>(2)</sup>.

**يقول المرادي:** وكان موزعاً لأوقاته، فوقت للعبادة، ووقت للتدريس، ووقت لمصالح العسكر، ووقت للشكاة، ووقت لقراءة الكتب والأخبار الواردة عليه كل يوم وليلة من مملكته، لا يخلط شيئاً بشيء<sup>(3)</sup>.



لقد كان أورنك زيب إلى جوار كونه سلطاناً عظيماً وفاتحاً كبيراً وقائداً بطلاً، كذلك كان عالماً كبيراً، رأيانه وهو يشب ويتزعزع بين يدي شيخه الجليل محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندي، الذي رباه على العلم ودينه به، وغرس فيه حب الدين،

---

(1) انظر: رجال من التاريخ (ص 15)، للأستاذ العلامة علي الطنطاوي، دار البشير.

(2) خلاصة الأثر (3/ 123).

(3) سلك الدرر (2/ 135).



وفقَّهه في مذهب أبي حنيفة، فكان -وهو صغير- مشروع عالم كبير، بل كان مرجعاً للعلماء<sup>(1)</sup>.

وقد كبر هذا المشروع العظيم وأتى ثمرته بل ثمراته، فذلك الصلاح والإصلاح الديني والديني من أثر تلك التربية وذلك الغرس، فجزى الله ذلك الشيخ عن عمله وجزى من عاونه فيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ولم يكن الصلاح والإصلاح فحسب هما كل ثمرة هذا المجهود ونتاج ذلك المشروع بل ظهر في إنتاج العالم الكبير حيث كتب «أورنك» وألف وصنّف، ورسم وخطط وساعد في تصنيف الكتب بإشراف منه.

فما أَلّف كتاب شرح فيه أربعين حديثاً شريفاً -على غرار الأربعين النووية- قبل أن يتولى السلطنة، وألف أربعين أخرى بعد السلطنة، وعلق عليها تعليقات نفيسة<sup>(2)</sup>، وهو باللغة الفارسية، وكانت لغة التأليف -وقتها- في الآداب والعلوم بالهند.

**ومما كتب بخطه:** المصاحف التي كان يبيعها ويتقوّت بثمرتها؛

---

(1) سلك الدرر (2/ 1135)، والأعلام (6/ 46).

(2) نزّهة الخواطر (6/ 739).



زهداً منه أن يعيش من أموال المسلمين!

وكان زاهداً رَحِمَهُ اللهُ حتى قال المؤرخون: إنه بلغ من الزهد مبلغاً أناف فيه على إبراهيم بن أدهم<sup>(1)</sup>.

ومما تم بأمره واقتراحه وساعد فيه وخطط له: موسوعة قيمة في الفقه الحنفي، عرفت باسم «الفتاوى الهندية» أو العالمكية، وقد قام بإعدادها مع نخبة من كبار الفقهاء الأحناف، واشتهرت في حينها في الأقطار الحجازية، والمصرية، والشامية، والرومية، وعم النفع بها، وصارت مرجعاً للمفتين<sup>(2)</sup>، وهي موسوعة على هيئة القوانين، مجردة من الأدلة.

**وقد طبعت الموسوعة وبهاشيتها:** كتابا الفتاوى الخانية، والفتاوى البزازية طبعات كثيرة، بعضها في ستة مجلدات ضخمة، ولو حققت لكانت (50) مجلداً وزيادة، وإلى يوم الناس هذا ما أُلّف مثلها!

وهذه محاولة مبكرة لتقنين الشريعة الإسلامية، كان أورنك زيب بها أول من عمل عليها، عن طريق تدوين الأحكام الشرعية

(1) خلاصة الأثر (3/ 123).

(2) سلك الدرر (4/ 114)، ونزهة الخواطر (6/ 743).



في كتاب واحد، يُتخذ قانوناً<sup>(1)</sup>.

وقد اختلف الفقهاء بشأن مسألة تقنين الشريعة اختلافاً واسعاً ومتشعباً؛ حيث ذهب بعضهم إلى جواز التقنين، وساقوا أدلة كثيرة لمذهبهم، وذهب آخرون إلى عدم جواز التقنين، واستدلوا أيضاً بأدلة كثيرة، غير أن القول بجواز التقنين هو القول الجدير بالترجيح<sup>(2)</sup>.

إنَّ في العمل بشريعة الإسلام صلاح أحوال المسلمين في حاضرهم وفي مستقبلهم، ومستقبل الأجيال التي تأتي من بعدهم، وقد حدث «انقطاع» عن هذا العمل في كثير من بلاد الإسلام -منذ قرنين تقريباً- نتيجة وقوعها تحت الاحتلال الأوروبي، واستيراد القوانين الأجنبية، فمتى نعود إلى العمل بشريعتنا وأصل هويتنا؟

«إنَّ تحكيم الشريعة يتصل بأصالتنا وقوميتنا، والقوانين الوضعية التي نُحكِّم بمقتضاها في بلادنا العربية والإسلامية،

---

(1) الأعلام للزركلي (6 / 46).

(2) انظر: موقف الفقهاء من تقنين أحكام الشريعة الإسلامية، دراسة مقارنة، د. عبد المؤمن عبد القادر شجاع الدين، مؤسسة البيت القانوني.



قوانين أجنبية عَنَّا دخيلة علينا، لم تنبت في أرضنا، ولم تُستمد  
أحكامها من عقائدنا وقيمنا وأعرافنا ومسلّماتنا».

فمتى يتحقق هذا الحلم؟ فإني أرانا نذوب لذلك الحلم حيناً.

إنّ نفوس المسلمين - في كلّ مكان - تُثَوِّق إلى تطبيق أحكام  
الشريعة الغراء، وقد طال عليها تحقق هذا الأمل، وهذا الانقطاع  
وإن طال، فمأله إلى الزوال، وهذا التعطيل وإن دام حِقْبَةً في  
الماضي، فلن يدوم - إن شاء الله - في المستقبل<sup>(1)</sup>.

وقد تحدثت فيما سبق عن هذا الموضوع، فليسأخني القارئ  
الكريم في التكرار، فإنّما  
قيشارتي ملئت بأنات الجوى

لا بد للمكبوت من فيضان

صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي

ليبين عنها منطقي ولساني



---

(1) انظر: تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة؛ د. إبراهيم البيومي غانم، مجلة  
الأزهر، الجزء 12 لسنة 84.



ومن عجيب ما ذكر عن هذا السلطان العالم أنه لم يدع طلب العلم حتى بعد السلطنة، وكأنه رَحِمَهُ اللهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْقَى الله وهو يزداد كلَّ يوم علماً، يقول الندوي رَحِمَهُ اللهُ: وكان يجلس للمذاكرة في الكتب الدينية، والإحياء والكيمياء والفتاوي الهندية وغيرها في كل أسبوع ثلاثة أيام، على السيد محمد الحسيني القنوجي، والعلامة محمد شفيع اليزدي، ونظام الدين البرهانپوري، وغيرهم من العلماء<sup>(1)</sup>.



لم يكتف السلطان العالم بهذا، بل كان يعاون العلماء والطلاب على عملهم، فيوظف لهم راتباً من بيت المال يعيشون منه ويتفرغون لشئون العلم.

غير أنه اختطَّ في ذلك لنفسه خطَّةً راشدة، مبدعة، ربَّما لم تسمع الدنيا بمثلها عن غيره، تتمثل في أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل من الأعمال العلمية؛ تأليف أو تدريس<sup>(2)</sup>؛ وذلك لئلا يأخذ الطالب أو العالم المال ثم يركن إلى الدعة والراحة ويتكاسل، فيكونا قد جمعا بين السيئتين؛ أخذ المال بلا حق وكتمان

---

(1) نزهة الخواطر (6/ 738).

(2) نزهة الخواطر (6/ 738).



العلم<sup>(1)</sup>!

وربما نسبه بعضهم بسبب ذلك إلى البخل، لكن حاشاه<sup>(2)</sup>، بل هو فعل الصواب رَحْمَةُ اللَّهِ.

**يقول الرادي في سلك الدرر:** «أقام في الهند دولة العلم، وبالع في تعظيم أهله، حتى قصده الناس من كل البلاد»<sup>(3)</sup>.



هذا البناء الحضاري العلمي الذي أسسه السلطان العالم «أورنك زيب» لم يشهده التاريخ الإسلامي إلا في فترات ازدهاره وعنفوان مجده، وقد كانت فترته واحدة منها.

غير أن هذا المجد الذي أقامه «أورنك زيب» لم يجد من خلفائه من يحافظ عليه ويقويه، فضعف وانهار، ووقع في قبضة الإنجليز الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة؛ إذ عانت البلاد من تعسف «الإنجليز» وظلمهم وطغيانهم، واستنزفت الشركة البريطانية ثروات هذه البلاد واستعبدت أهلها<sup>(4)</sup>، في فترة من أصعب فترات

(1) انظر: رجال من التاريخ (2/ 24)

(2) نزهة الخواطر (6/ 738).

(3) سلك الدرر (2/ 1135)، والأعلام (6/ 46).

(4) الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي (4/ 101).



دولة الإسلام هناك، تؤكّد على أنّ الحفاظ على المجد مثل تشييده،  
في الصعوبة، سواء بسواء!

فب وفاة السلطان أبو المظفر محي الدين محمد أورنك زيب عالمكير، انتهت عظمة دولة المسلمين في الهند فجاء من بعده حكامّ ضعافٌ، وظل الأمر كذلك حتى انتهت تمامًا بسقوط آخر سلطان «بهادر شاه الثاني» عام 1857م، بفعل الإنجليز، ولم تقم للإسلام دولة منذ ذلك الزمن في تلك البلاد الشاسعة.



استشهد السلطان «أورنك زيب» في سبيل الله، في عام (1118 هـ/ 1707م) وكان موطن استشهاده أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من (1500) كيلومتر.

وعمر (90) سنة كاملة، ومن العجيب أنّ سنّه لم تمنعه خلال هذه المدة من قيادة الجيوش، ليتّهي به المطاف شهيداً في سبيل الله، كما لم تمنعه سنّه تلك أن يخطّ القرآن ويكتب المصاحف ويغزل «الطاقيات»؛ ليأكل من عمل يده! ورحل بعد أن حكم 52 سنة<sup>(1)</sup>، وهو -بالمناسبة- من الأقلين الذين دام ملكهم إلى هذه الفترة المديدة،

---

(1) سلك الدرر (2/ 1135).

ورحل «أورنك زيب» تاركاً ذكرى عطرة لحاكم مسلم لم تشغله دنياه وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته، فقد كان إمبراطوراً لم تشهد الهند مثله في اتساع ملكه وصلاح خلقه، وحسن سيرته وسريرته، بل لم يشهد مثله العالم الإسلامي في القرون الأخيرة حتى يوم الناس هذا.



وقد بلغ من تقواه أنه، حين حضرته الوفاة، أوصى بأن يُدفن في أقرب مقابر للمسلمين، وألا يعدو ثمن كفنه خمس روبّيات!! وكان ترك هذه الروبيات الخمس من ثمن «طواق» كان يغزها بيده ويبيعها سرّاً، من ضمن (300) روبية -هي كلّ ما يملك- أوصى بها كلها للفقراء المسلمين<sup>(1)</sup>!



(1) استفدت في هذه المقالة -كثيراً- من ترجمة «أورنك زيب» بالموسوعة العالمية «ويكيبيديا» وهي منسوبة إلى كتاب «صانعو التاريخ» لمؤلفه سمير شيخاني، ولم أعثر على الكتاب، ثم وجدتها -برمتها- مأخوذة من كتاب «رجال من التاريخ» للأستاذ الكبير علي الطنطاوي، رَحِمَهُ اللهُ، وكذا من برنامج «مشاهير أعلام المسلمين»، لفضيلة الدكتور محمد موسى الشريف، حلقة خاصة عن السلطان أورنك زيب عالمكير، أذيعت بقناة اقرأ، وهي موجودة على يوتيوب.



وَكُلَّ أَخْبَارِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْعَالَمِ الْعَظِيمِ هِيَ عِظَاتٌ وَعَبَرٌ  
وَدُرُوسٌ وَفَوَائِدٌ، فَلِسَانُ حَالِهَا مَخْبَرُ بَعْظَاتِهَا، رَحِمَ اللَّهُ «أُورُنْكَ زَيْب»،  
وَمَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَحُكَّامِهِ، وَنَفَعَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ  
وَسِيرَتِهِ شَبَابَ الْإِسْلَامِ وَأَمَلَ غَدَهُ.





تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





**زيب النساء**  
**أول مفسرة للقرآن**  
**كاملا**  
**في تاريخ الإسلام ..**  
**ملكة هندية**



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## زيب النساء أول مفسرة للقرآن كاملاً في تاريخ الإسلام .. ملكة هندية.

هذه امرأة فريدة؛ إنها المرأة الوحيدة من بين نساء العالمين - فيها أعلم - التي أثر عنها تفسير كامل للقرآن الكريم، ولم يعرف أنّ امرأة قبلها، قامت بهذا العمل<sup>(1)</sup>، وقد ظلّ الأمر كذلك بعدها إلى أن جاء عصرنا هذا.

ولذلك كانت المفسرة الوحيدة التي تضمّنها «معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحديث»، و هذا المعجم يضم أسماء جميع مفسري القرآن في الإسلام ويقع في مجلدين ضخمين<sup>(2)</sup>، وقد صنّفه صاحبه عام (1395هـ)<sup>(3)</sup>، وسأتيك - بعد قليل - بزيادة خبر عن ذلك.

---

(1) معجم المفسرين، من صدر الإسلام حتى العصر الحديث، (1/ 197)، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان.

(2) صلاح الأمة (7/ 181، 180)، العفاني، ط. مؤسسة الرسالة.

(3) معجم المفسرين (1/ 197).

فمن كانت زيب النساء هذه، وما هي أخبارها؟

أما هي ف «زيب النساء»، ومعنى زيب النساء: أحسن النساء، بنت السلطان، المغولي، المسلم: محي الدين، أورنك، زيب، عالمكير، سادس أباطرة المغول في الهند وأكبرهم وأكرمهم، ذلكم الملك، العالم، الذي مرت بنا ترجمته من قريب، وزيب النساء هذه هي بنته الكبرى.



كانت الملكة «زيب النساء» فاضلة، أدبية، شاعرة، عالمة، خطاطة، حافظة للقرآن، عارفة باللغات العربية، والفارسية، والتركية، والهندية.

وقد اجتمع لها علم الشرع واللغة، فحفظت القرآن الكريم وهي صغيرة، وكافاً والدها «السلطان عالمكير» المعلمة التي علمتها القرآن -وهي مريم أم عناية الله الكشميري- بمكافأة عظيمة؛ إذ أعطاهـا (30) ألفاً من النقود الذهبية، وهذا كرم فيّاض، وفيه أسوة لأولياء الحفظة، في تعاھد الأولياء لأبنائهم، وحثهم على مواصلة الدّراسة والحفظ لآيات الكتاب العزيز، وإكرام أهل القرآن ومحفظيه، بل دعا بعض الفضلاء إلى تبني الوقف على أهل القرآن، وهي



دعوة تهدف إلى إطلاق وقف قرآني تذهب عوائده للإنفاق على تعليم القرآن الكريم، والانتقال به نحو الريادة للنهوض بالعمل القرآني من الطابع التقليدي إلى توظيف تكنولوجيات التعليم في تدريس ونشر القرآن، ليشكّل رافداً تسير عليه الأمة نحو الريادة، وهي دعوة طيبة رائدة، وفي العمل بها خير عظيم، وفقنا الله لحفظ وفهم القرآن العظيم وجعله ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا.

تعلمت زيب النساء القرآن وتعلمت الكتابة، وقرأت الكتب المدرسية على الشيخ أحمد بن أبي سعيد الأمهوي وعلى غيره من العلماء، وأخذت الشعر والإنشاء وغيرهما عن الشيخ محمد سعيد المازنداني، واجتمع عندها من العلماء والشعراء ما لم يجتمع عند أحد.

وهكذا الفضل؛ يبتنى على غرس أساس العلم في الصبا.



ولدت «زيب النساء» في (10) شوال سنة (1048هـ) وقيل قبل ذلك بسنة، من بطن دلس بانو شاهور خان، الصفوي، ونشأت في نعمة أبيها السلطان، غير أنّ النعمة لم تلهها عن لذة



العلم، فقد شبت تحبّ القراءة والاطلاع، فأكثر من جمع الكتب وطلبها، حتى أحرزت الكتب النفيسة في خزانتها، وكانت شاعرة ساحرة تسحر الألباب، وتقلّب القلوب، ولا تضاهيها امرأة في الهند في جودة القريحة، وسلامة الفكرة، ولطافة الطبع، وقد اهتمت بالقرآن وعلومه.



صنّفت «زيب النساء» مصنفات، ولها ديوان شعر، فأما مصنفاتها فهي لا تكاد توجد في الدنيا غير «زيب المنشئات» وهو مجموع لرسائلها، وديوانها كذلك مفقود، وقد نسب إليها ديوان شعر موجود، لكن لم يثبتته المحققون، بل أثبتوا أنه لواحد من شعراء الفرس، أما ديوانها فقد ضاع في حياتها.

ويبقى كتابها «زيب التفاسير» أفضل مصنفاتها وخيرها على الإطلاق، ولنفرد للحديث عنه هذه السطور:

مرّ معنا أن معنى كلمة «زيب» هو أحسن، فيكون معنى «زيب التفاسير»: أحسن التفاسير، وهذا التفسير لم يصلنا، ومن المؤرخين من يقول: إنه ترجمة للتفسير الكبير، المسمّى مفاتيح الغيب الذي ألفه الإمام فخر الدين الرازي رَحِمَهُ اللهُ.



ويقولون إن «زيب التفاسير» ترجم إلى اللسان الفارسي.

**ويقولون:** إن الذي نقله من العربية إلى الفارسية أو العكس هو الشيخ صفي الدين الأردبيلي ثم الكشميري بأمرها، ولذلك سماه باسمها!

وقد كان الشيخ صفي الدين رَحْمَةُ اللَّهِ صُوفِيًّا، ينتسب إلى أهل السنة والجماعة، على مذهب الإمام الشافعي، وكذلك كان أبناؤه، لكنَّ حفيده «الخوجة علي» هو الذي تولى رئاسة الطريقة الصفوية سنة (801 هـ / 1339 م)، وتحول إلى التشيع على المذهب الإثني عشري، الرافضة؛ لذا تحول الصفويون وأصحاب الطريقة<sup>(1)</sup>!



لم يصلنا «زيب التفاسير» هذا، لنعرف ما إذا كان ترجمة لتفسير الفخر الرازي إلى لغة فارس، أم لا، فنحن لا نملك الكتاب كما لا نملك غير هذا من الأخبار عنه، إلا أنَّ من العجيب جدًّا أن يسمِّي

---

(1) دفعني لبيان هذا ما تضمنه كتاب بعنوان: «مشاهير شعراء الشيعة»، لمؤلفه عبد الحسين الشبستري، وهو صادر عن مركز آل البيت العالمي للمعلومات، إذ ضمَّته ذكر «زيب النساء»، ولا ريب أنَّه كاذب، فـ«زيب النساء» سنِّيَّة، جماعيَّة، حنفيَّة، كأبيها وسائر أهل دولتها، وليست هذه أول سطو الروافض على مشاهير أهل السنَّة ونسبتهم إلى التشيع المزعوم.



الشيخ كتابًا ترجمه من لغة إلى لغة باسم غير اسمه المعروف به، ثم هو حين يسمّيه يعمد إلى اسم «زيب التفاسير» المقتبس -بالطبع- من اسم الملكة «زيب النساء» ليسميه بذلك من دون الأسماء!

ولا يبرّر ذلك ما قيل من أن سبب تسميته «ترجمة الكتاب» بهذا أنّ الملكة كانت صاحبة الأمر بترجمته، أو أنّها هي التي أنفقت عليه حتى ترجم!

وهذا يدفعني إلى ترجيح -ربما يكون مقبولاً- وهو أن «زيب التفاسير» هو غير ترجمة الشيخ صفّي الدين لتفسير الفخر الرّازي.

وأن يكون للملكة «زيب النساء بيكم» دور في هذا التفسير أكبر من كونها أمرت به، أو أنفقت على مشروعه حتى تمّ، ويرشّح هذا ما عرف عنها من خصال العلم وشمائل الأدب التي ذكرناها في البداية، فهذه الخصال خليفة بالألا تدع صاحبها في مشروع كهذا إلا بعد أن يضع بصمته العلميّة فيه.



مهما يكن من أمر زيب التفاسير - ترجمة هو أو تأليف؟ - يبقى أنّ الملكة «زيب النساء» رَحِمَهَا اللهُ كانت عالمة، أديبة، حافظة للقرآن، ذات بيان، ولها مصنّفات، وديوان شعر، لكن لم يقدر أن يصلنا من



تلك التصانيف شيء، غير مجموع رسائلها كما أسلفنا، ولعلّها مذكورة، مخطوطة، ويأذن الله لها يومًا أن تخرج إلى النور.



توفيت «زيب النساء» سنة (1113 هـ) في حياة أبيها، ودفنت بحديقة بناها في مدينة لاهور<sup>(1)</sup>، وقيل: دفنت في دهلي.

ومن فرائد زيب النساء، هذه، -كذلك- أنها أول امرأة رفضت الزواج، وفضلت أن تبقى عزبًا؛ لحجة غريبة عجيبة، قال المؤرخون: «لم تتزوج قط لغيرتها بأن تكون ضجيعة لأحد من الرجال!»<sup>(2)</sup>.

تقول هذا، وهي من هي في العلم والحكمة والأدب؟ فسبحان الله! ويكأن النقص لا ينفك عن الإنسان، بالغًا ما بلغ من العلم، ولا غرو فمهما علا في العلم والعقل فهو رغم كل شيء بشر.



وفي حياة «زيب النساء» عظات وعبر، لكنني أودّ الإشارة إلى شبهة تتعلق بأشهر ما ورد بهذه المقالة من معلومات وهي: ذكوريّة

(1) نزهة الخواطر (6/ 724).

(2) نزهة الخواطر (6/ 724).



مفسري القرآن الكريم جميعهم، وأن امرأة لم تفسر القرآن!  
فقد اتُّخذ ذلك الأمر «الحقيقي الواقعي» تكأةً لرمي الإسلام  
بالإفك؛ فقال الكذابون الخراصون: لقد انتصر هؤلاء المفسرون  
الرجال لوجهة نظر الرجل على حساب المرأة!!

جاء ذلك في مؤتمر عقد في مدينة برشلونة، بإسبانيا، تحت  
عنوان: «التأويل الذكوري للشريعة الإسلامية، والقرآن الكريم»؟  
أيُّ إفك هذا وأيُّ سفه؟ بل أية وقاحة!

وقد كفانا واحد من العلماء الردّ على هذه الشبهة وهو الدكتور  
مصطفى الشكعة عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وأفحم  
هؤلاء المتأمرين، ومن رده نورد هذه القبسات: «نعم إن كل  
أصحاب تفاسير القرآن رجال، لكن الادعاء بأنهم انتصروا لوجهة  
نظر الرجل على حساب المرأة كذب، بل مؤامرة؛ لإثارة المرأة  
المسلمة، واختلاق المشاكل بين الرجال والنساء، وهدم الأسرة  
المسلمة ..

«هذا ليس مؤتمرًا، وإنما مؤامرة على المجتمع الإسلامي ..

«إنّه لو أعدّت امرأة مسلمة تفسيرًا للقرآن لتم نشره والاستفادة



منه، لكن الغالب أنَّ المرأة المسلمة كانت تهتم ببيتها وتربية أبنائها، ورغم أنها كانت تتعلم؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، إلا أنَّ أعمال التفسير والفقه قام بها رجال ...

«إنَّ فكرة مؤتمر برشلونة تحمل في طياتها مؤامرة على الإسلام؛ لأنها تشجع النساء المتمرديات على هذا الدين، وهن خدمن للعلمانية، ومأجورات من الشيطان الذي يدس للمجتمع الإسلامي ويسعى لإفساده وإشعال الفتنة فيه..

«إنَّ التفسير عملية شاقة، وليست يسيرة على الإطلاق، كما أن المفسر يحتاج لمعرفة عشرة علوم على الأقل، بجانب عدم توافر شروط التفسير لدى الأكثرية الساحقة من النساء المسلمات...

«إنَّه على الرغم من وجود نساء روي عنهن الحديث إلا أنه لم توجد منهن مفسرات؛ لأن المرأة المسلمة تهاب المواقف الدينية، فتبتعد عنها.

«وكما أنه ليس كل عالم مؤهلاً لتفسير القرآن العظيم، وإنما هناك شروط للمفسر لا بد من توافرها فيه، وذلك لأن الإسلام دين سماوي، والحرص على سماويته يجعل الكثير من الأتقياء لا



يهجمون على العلوم الإسلامية، وينأون بأنفسهم عن ذلك»<sup>(1)</sup>.

هذه شبهة أهل الباطل، وذلك ردّها، ولن يتوقّف أعداء الله عن محاولات تشويه الإسلام بشبهات باطلة وحجج داحضة، هي في الحقيقة أكاذيب يختلقونها لكنها سرعان ما ترتدّ إلى حلوقهم فيغصّون بها، حفظ الله الإسلام، ومصادره، وأهله من كل كيد ومكر، آمين!



ولا يخفى أنّ الخطاب الإسلامي في أصله الأول (القرآن) قد وجّه للرجال والنساء على حد سواء، فمسؤولية المرأة مثلها مثل مسؤولية الرجل في وجوب تلقي خطاب القرآن تعلّمًا وحفظًا ومذاكرة وفهمًا، وإذا كان التاريخ لم يحفظ لنا سوى اسم زيب النساء مفسرة لجميع القرآن الكريم، فإنه قد حفظ لنا أسماء كثيرات شاركن في تفسير القرآن الكريم مشاركة فعالة، وذلك منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن، كأم المؤمنين عائشة وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحفصة بنت سيرين، وغيرهم، وقد توالى بعد عصر النبوة سيدات أفاضل كانت لهن مشاركة متميزة في تأويل بعض الآيات.

---

(1) من بيان له، منشور على الشبكة.



وقد زخر العصر الحديث بجهود كبيرة في هذا المجال، وكان «من أوائل التفاسير النسائية الجادة ما أثر عن عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، فلها تفسير رائع ذا طابع أدبي يسمى بـ(التفسير البياني للقرآن الكريم). وبالرغم من كون بنت الشاطيء قد ألفت كتبًا عدة تعنى بالقرآن (القرآن وقضايا الإنسان) (الإعجاز البياني للقرآن الكريم)، إلا أن التفسير البياني للقرآن الكريم يُعدّ بحق أول تفسير نسوي للقرآن الكريم. ولعل ما يشوب هذا الإنجاز العظيم لبنت الشاطيء هو كونه ليس تفسيرًا شاملاً، إذ يركز فقط على أربع عشرة سورة من «جزء عم» متناولاً إياها بالشرح والتفصيل، والتطبيق الدقيق لمنهج أستاذ المفسرة وزوجها الشيخ المجدد أمين الخولي.

وجاءت التجربة التفسيرية النسائية المتكاملة مع الداعية الإسلامية والمجاهدة زينب الغزالي الجبيلي، فصدر لهذه الأخيرة سنة 1994 تفسير بعنوان (نظرات في كتاب الله).

وهو تفسير جميل جليل تنتهج فيه الداعية النهج الدعوي الإصلاحية الذي يجعل من القرآن دستورًا للأمة وطريقًا إلى تقدمها وسط ما تعانيه من تقهقر وركود. وصدر هذا التفسير في



مجلدين فسرت خلالها الداعية القرآن كاملاً.

وتتابعت الإضافات النسائية في مجال التفسير فوافق الأزهر الشريف على صدور تفسير للداعية فوقية إبراهيم الشربيني بعنوان (تيسير التفسير) وهو أيضاً تفسير كامل للقرآن الكريم صدر سنة 2008م وجاء في أربعة مجلدات.

وأكثر ما يميز تفسير الأستاذة فوقية الشربيني هي طريقتها التبسيطية الراقية التي تصل إلى المسلم العامي دون أن يؤثر ذلك على رصانته وحصافته من الناحية اللغوية وموسوعيته وثرائه من الناحية العلمية.

وفي العام 2010م أيضاً وافق مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف على طبع وتوزيع تفسير يعود لصاحبته الداعية والوجه الإعلامي المعروف فاطمة كريمان حمزة.

وتفسير السيدة كريمان حمزة الذي يحمل اسم (اللؤلؤ والمرجان في تفسير القرآن)، يعدُّ أيضاً إضافة نسائية هامة إلى هذا الحقل المعرفي.

وجاء تفسير الداعية في ثلاثة مجلدات فسرت خلالها الداعية القرآن كاملاً.



ويتميز تفسير اللؤلؤ والمرجان بسمات هامة أبرزها تركيزه على تبسيط معاني القرآن وتقديمها بأسلوب سلس وشائق يتجنب التعقيدات والمحاججات التي قد تدخل القارئ متاهات هو في غنى عنها، كما ينحو هذا التفسير منحى اجتماعياً تحاول الداعية عن طريقه تقديم رؤية إصلاحية شمولية للنهوض بالمجتمعات الإسلامية من خلال التمسك بروح القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

كما يوجد تفسير آخر- عثرت عليه حديثاً- بعنوان (المبصر لنور القرآن) للداعية الفلسطينية السيدة نائلة هاشم صبري صدر عام 2003م.

وهو تفسير هام وعميق رجعت فيه المفسرة إلى العديد من كتب التفسير القديمة كجامع البيان للطبري، والدر المنثور للسيوطي، والبحر المحيط لأبي حيان ومفاتيح الغيب للرازي وأيضاً إلى تفاسير حديثة مثل فتح القدير للشوكاني وروح المعاني للألوسي.

وكما هو ملاحظ فلقد اعتمدت المفسرة منهجاً يمزج بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود فكانت تفسر القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة والسلف.



كما يلاحظ أن المفسرة «كانت تبدي اهتماماً بقضايا المرأة في ثنايا الآيات الخاصة بها كالزواج والطلاق والإيلاء والحيض وغير ذلك»<sup>(1)</sup>.

وها هي الدراسات المتخصصة في الكليات والمعاهد العلميّة قد شجعت المرأة على طرق هذا المجال بقوة، فعساها تخرج لنا رائدات في التفسير خلال التاريخ المعاصر. وإنّا لمزيد من الجهود والاجتهادات، والدارسات والرائدات، في هذا المجال، لمنتظرون.



في سيرة زيب النساء عظات وعبر لا تخفى: فهي امرأة ولم يمنعها ذلك أن تكون مؤلفة، وفي تاريخ الإسلام جملة من النساء المؤلفات، وقد أحصى شيخنا الأستاذ محمد رمضان خير عدة من ألفن من النساء فكنّ (36) مؤلفة، وذلك في كتابه: «المؤلفات من النساء ومؤلفاتهن»<sup>(2)</sup>، هذا، وقد فاته -حفظه الله- بعضهنّ وهنّ

---

(1) انظر: المرأة والتفسير: الحاضر الغائب! مقال بقلم محمد السالك محمد فال، منشور بمجلة آفاق، بتاريخ 26/12/2012م.

(2) المؤلفات من النساء ومؤلفاتهنّ، محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم.



قليلات، فأجزل الله لشيخنا المثوبة.

فعلام تتقاصر همم نساء زماننا أن يلحقن بركب أولئك  
الخيرات؟ ومنهن «زيب النساء» التي لم يمنعها كونها امرأة أن  
تكون مفسرة، بله أن تكون متفردة بهذا التفسير من بين نساء  
العالمين كما أوضحنا، رَحِمَهَا اللَّهُ، ورحم والدها، ففي مثلها يصدق  
قول القائل:

ولو كان النساء كمن فقدنا

لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ

ولا التذكير فخر للهِلال

وأفجع من فقدنا من وجدنا

قيل الفقد مفقود المثال<sup>(1)</sup>



---

(1) انظر: شرح ديوان المتنبي (ص 198)، الواحدي.





خناثة بنت بكّار  
العالمة المتفنية ...  
وزيرة الصدق، وأم  
السلامين





## خُنَاثَةُ بِنْتُ بَكَّارٍ العَالِمَةُ الْمُتَفَنِّئَةُ... وَزِيرَةُ الصَّدَقِ، وَأُمُّ السَّلَاطِينِ

لو أنّ امرأةً امتازت بين قريناتها من النساء في مجال لكان حريّاً  
أن تكون قدوةً لهنّ في مجالهنّ هذا، فكيف لو امتازت على الرجال  
أيضاً؟

وكيف لو أنّ هذا التفوق لم يكن في مجال واحد بل كان في  
مجالات متعدّدة؟ لا أعني فنوناً في مجال، إنّما مجالات متباعدة  
متفارقة!

لا ريب أنّها نموذج مشرف للنساء في كل زمان، وبعلوّ همتها  
يقتدي الرجال.

وشخصيتها التي نتناول سيرتها في هذه السطور ينتظمها هذا  
الوصف؛ فقد كانت فقيهة عالمة، ولغوية أديبة، ووزيرة سياسية،  
وصاحبة الأثر العظيم في التاريخ بمشاركتها السياسية والفكرية في  
تأسيس مملكة العلويين العظيمة بالمغرب، تلك المملكة التي بلغت  
دولتها أوج الازدهار والاستقرار في عهد زوجها، مؤسس الدولة  
العلوية، السلطان إسماعيل بن الشريف - ثالث الإخوة الرواد



الذين لمع ذكركم وتألّق نجمهم في تاريخ الدولة العلوية<sup>(1)</sup>،  
والذي حكم المغرب ما بين (1082هـ، 1139هـ).

إنها الأميرة خنثة<sup>(2)</sup>، بنت الشيخ بكار، بن علي بن عبد الله  
المغافري الشنقيطي<sup>(3)</sup>.

وكانت زوج السلطان إسماعيل ووزيره ومستشاره، وهي  
-أيضاً- أم السلطان عبد الله، وجدة السلطان العالم محمد بن عبد  
الله العلوي وأستاذته، والمشفقة على تكوينه وتربيته.



حين غزا السلطان إسماعيل صحراء سوس، سنة (1089هـ)،  
قدمت عليه وفود العرب ومنهم عرب «المعقل» فأدوا طاعتهم  
للسلطان، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغافري الشنقيطي،  
وكان له ابنة ذات جمال وكمال تسمى خنثة فأهداها الشيخ بكار إلى

---

(1) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273)، مقالة الدولة العلوية المغربية  
النشأة والاستقرار والاستمرار، بقلم محمد العربي الشاوش.

(2) مفردة (خَنَثَ) في اللغة، والانخثا: التثني والتكسر، وهي صفة محبة عند  
الإناث، والمخث من كان فيه تكسر وليونة، واسم خنثة شائع ومحجّب عند  
أكابر الناس في الدولة المغاربية.

(3) الأعلام (2/ 324).



السلطان إسماعيل فتزوجها، وهي من أسرة نبيلة من إقليم الساقية الحمراء<sup>(1)</sup>.

وكان زواج السلطان بها سنة 1678 م<sup>(2)</sup>، بعد زيارته لإقليم شنقيط، في موريتانيا.

وقد استطاعت خنائة أن تتميز وسط البلاط العلوي بحظوتها العلمية والفقهية وبنسبها المغفري، الذي تنحدر منه -أيضاً- أم السلطان إسماعيل «للا مباركة»، فتشربت تربية القصر، وفيه تعلمت وتثقت، فأعطت بثقافتها وسمو فكرها مثلاً صادقاً لنبوغ المرأة المسلمة، بمشاركتها في الحياة الثقافية والاجتماعية إلى جانب زوجها الذي كان يعتمد رأيا ومشورتها ويخصها بمزيد من الاعتبار والتقدير<sup>(3)</sup>.

لقد حفظت القرآن العظيم على أرائك القصر الملكي، على اللوح الخشبي الشهير الذي كان الحفاظ يكتبون عليه القرآن بأيديهم ويحفظونه من خلاله، حتى أتمت حفظه، غير مكتفية

---

(1) معلمة الصحراء (ص 57، 98، 197، 200)، عبد العزيز بان عبد الله.

(2) الأعلام (2/ 324).

(3) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273).



بحفظه بل جمعت إليه القراءات السبع.

ثم تعلّمت الفقه وتأهّلت للفتوى، وتعلّمت الأدب وبرعت فيه، وطلبت الحديث فعرفت بالإسناد، وإلى جوار هذا كانت صالحة عابدة.

حجّت الأميرة العالمة سنة (1143هـ)، فسئلت في البلد الحرام عن حكم تملك العقار في مكة!

فأفتت بجواز ذلك، وحرّر لها الوزير أبو محمد عبد القادر الجيلاني الإسحاقى فتوى بذلك، بطلب منها.

وفي هذه الحجة قامت بكثير من أعمال الخير والبر والإحسان أقامتها بالبقاع المقدّسة، فاشترت دارًا بمكة ووقفها على طلبة القرآن ومن يدرس صحيح البخاري، غير ما تصدقت به على طلاب العلم والفقراء والمساكين في بلاد الحرمين وأهل الحج، قيل: أنفقت في حجتها تلك (100.000) دينار<sup>(1)</sup>.

وغير ذلك، فقد استثمرت رحلتها إلى الحجاز خير استثمار خدمة لمشروعها السياسي الكبير، الذي كان يستهدف إخراج

---

(1) الاستقصا (7/ 58).



المغرب من عنق الزجاجة، وإعادة الأمن والاستقرار إلى ربوعه باستئصال بذور الفتنة والشقاق، وجمع الكلمة على بيعة السلطان المولى عبد الله.

وقد سجل الإسحافي في رحلتها تلك ما يبين الدور الذي قامت به السيدة المباركة، والذي يمكن تلخيصه في العناصر الآتية:

- حفاوة الاستقبالات الشعبية والرسمية لموكب الأميرة خنثة.

- توسّطها في حلّ الخلافات بين بعض القبائل والسلطة الحاكمة.

- عطفها على الفقراء والأشراف والعلماء<sup>(1)</sup>.



ولما رأى السلطان إسماعيل عظيم همّة زوجه في طلب العلم، وأدرك نباهتها وذكاءها وجدّها في التحصيل أعانها لبلوغ غايتها، وفرغها للعلم، وجمع لها من يعينها على ذلك، قال أبو القاسم الزياتي في كتابه «المنزع اللطيف»: «لما أدرك السلطان نباهة وذكاء

---

(1) الاستقصا (7/ 58).



زوجته خُناثة جعلها في عزلة... وأوقف لها خيرة المدرسين والمعلمين،  
فتفوقت على نساء عصرها».

وقد عرفت للأميرة العالمة تصانيف وتأليف، منها: تعليقات  
على كتاب الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، وهي  
محفوظة في الخزانة الملكية بالرباط.

ومن ثم كانت على معرفة بأقدار العلماء، مما جعلها تسعى في  
نجاة العالم، الفقيه، المفسر: «عمر لوقش التطواني»<sup>(1)</sup>، وكان قد  
سجن إثر وشاية بعض المكناسيين، فتقدّمت فيه لولدها السلطان  
عبد الله، فعفا عنه.

وقد شكلت -خلال ذلك- ملاذًا لأهل الفضل والحياء، ممن  
«يأنفون التزاحم على أبواب الملوك، فكانوا يهرعون إليها؛ لتشفع  
لهم في الملهمات وقضاء المهمات».

ونظرًا لما كان لأُم عبد الله بن إسماعيل، وجدة السلطان المصلح  
محمد بن عبد الله (1171هـ-1204هـ)، من استعداد وقدرة على  
التجاوب مع قضاياهم، فقد كانت ألسنة أهل الفضل والحياء

---

(1) ت (1149 هـ)، انظر ترجمته في «معجم المفسرين بتطوان»، للدكتور قطب  
الريسوني.



«تطلق لشكرها والدعاء لها».

ونستنتج مما ذكرنا وما أشار إليه الكتّاب النابهن<sup>(1)</sup> أن خناثة  
إنما كانت نموذجًا لما كانت عليه المرأة المسلمة - في ذلك الزمان وما  
بعده - من ثقافة عربية أصيلة ونشاط اجتماعي ملحوظ<sup>(2)</sup>.

وليس العلم بالعجيب ولا الغريب من الشناقطة، وهم هم!



ولهذه العالمة الوزيرة، في تاريخ المغرب، أدوار سياسية كبيرة،  
فقد كانت «خناثة» مستشار زوجها السلطان إسماعيل، وكان «يعهد  
لها بتحرير الرسائل التي يخفي أسرارها عن كتابه»، فكانت بذلك  
مشاركة له في تدبير أمور الدولة، وملمة بالكثير من خبايا الحكم.

وكانت موضع ثقة السلطان إسماعيل الذي كان يستشيرها في  
أمور الحكم ويطلب رأيها في القضايا المستعصية، فتشير عليه بالرأي  
السديد والتدبير الحكيم، مما أكسبها خبرة وحنكة كبيرة في أمور

---

(1) منهم: عبد الرحمن ابن زيدان في إتحاف أعلام الناس ج 3، وعبد الله كنون في  
النبوغ المغربي ج 1، وعبد الهادي التازي في: جولة في تاريخ المغرب  
الدبلوماسي، والناصري في: الاستقصا ج 7 وسماها حناثي.

(2) مجلة دعوة الحق المغربية، العدد (273).



السياسة والحكم، ساهمت بهما في تثبيت الحكم<sup>(1)</sup>.

وهي أول امرأة تتولى الوزارة في المغرب، كان ذلك إثر وفاة السلطان إسماعيل؛ سيما الفترة التي حكم فيها ابنها السلطان عبد الله، فقد ذكرها المؤرخون بأنها أعظم أميرة أدارت الحكم وخدمت الشعب.

وقد عرفها المغرب سياسية محنكة وعالمة فقيهة شجاعة إبان أزمة الثلاثين سنة التي عاشتها إثر وفاة زوجها السلطان إسماعيل وسقوط حكم ابنها عبد الله وكان ذلك ما بين (1727 و 1757 م)، فخبرت حياة السجن هي وحفيدها محمد بن عبد الله. فما إن آلت البيعة لأبي الحسن علي بن المولى إسماعيل بمكناس، حتى «قبض عليها وعلى حفيدها وسجنهما»، وجردها من ممتلكاتها.

لكن إرادة التحدي والقدرة على المواجهة، اللتين ظلتا سمتين بارزتين في حياتها، رغم كبر سنهما، لم تدعاهما لاستسلام أو ضعف «فبعثت للعلماء تطلب الشريعة... وطلبت منهم أن يتكلموا للعلماء بشأن حفيدها... على أن يخرجوا من السجن لأنها امرأة مسنة، واتتقت أن يتكشف عليها من أجل الضيق، وذكرت أيضًا أن

---

(1) الاستقصا (7/ 58).



حفيدها المذكور صغير السن، وما فعل ذنبًا يستحق عليه العقوبة والسجن والضيق... ثم بعد ذلك تكلموا مع السلطان مولاي علي الأعرج على ذلك، فشرح حفيدها المذكور من السجن».

وهكذا نراها في هذا الموقف سياسية تبحث عن المخرج من الأزمة وتسعى في فكك نفسها من قبضة الأسر، وأيضًا نراها عالمة فقيهة تسوق الحجج التي يسلّم لها الخصم ويساندها في الاستجابة لطلبها المعاون والمساعد، وقد تمّ لها ما رامت.

وقد تحدّث الإسحاقى مبيّنًا مكانتها فكتب يقول: «فما نعلم واحدة من الحرائر التي دخلت دار الخلافة من أزواج السلطان إسماعيل، رَحِمَهُ اللهُ، تشبه هذه السيدة ولا تدانيها همة وصيانة وعفافًا ورزانة وحصانة عقل ومتانة دين، فهي من المسلمات المؤمنات القانتات المستجمعات للأوصاف التي أعد الله لهن عليها مغفرة وأجرًا عظيمًا، وكان لها كلام ورأي وتدبير مع مولانا أمير المؤمنين رَحِمَهُ اللهُ، ومشاورة في بعض أمور الرعية، وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير، تأمره بالخير وتحرضه عليه، وتتوسط في حوائج الناس، ويقصد بابها أهل الحياء والحشمة وذوو الحاجات، وكانت في ذلك ركنًا من الأركان، جزاها الله بالخير، ومع كثرة مباشرتها للسلطان أمير المؤمنين رَحِمَهُ اللهُ واتصالها به، لم ترزق معه من الولد



إلا مولانا السلطان أمير المؤمنين نصره الله»<sup>(1)</sup>.



توفيت عالمة الفقهية والمستشارة الوزيرة «خنائة بنت بكار»  
-رحمة الله عليها- عام (1159 هـ / 1730 م)، ودفنت بروضة  
الأشراف، في المدينة البيضاء، بفاس الجديد<sup>(2)</sup>.



لا يزال اسم «خنائة» شائعاً في البلاد المغاربية كلها، ويعني  
اللدة التي تتطوى وتتكرس في مشيتها.



---

(1) الاستقصا (7/ 58).

(2) للاستزادة من أخبارها: «المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي»، تأليف عبد الهادي التازي، «الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله العلوي»، أحمد أمين العمrani، «المرأة الأمازيغية عبر التاريخ»، مقال منشور بجريدة بيان اليوم 9/ 23/ 2005 م، النسخة المخطوطة من كتاب الإصابة التي تتضمن تعليقات السيدة خنائة بنت البكار، توجد بالخزانة الحسنية تحت رقم 5932، «الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية»، محمد الأخضر.



عثمان بن فودي

ال خليفة العالم ..

مجدد الدين في

القرن الثالث عشر



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





عثمان بن فودي  
ال خليفة العالم ..  
مجدد الدين في القرن الثالث عشر

التمكين في الأرض وعد الله للمؤمنين، وحنين المؤمنين إلى هذا التمكين وسعيهم إلى تحقيقه لا ينقطع، كيف لا، وهو حلم يراود خيال كلّ عامل للإسلام في كلّ زمان ومكان؟

ومنذ قرن أو يزيد من الزمان سقطت آخر خلافة جامعة للمسلمين -وهي خلافة بني عثمان-، وقد ظنّ الناس أن سقوطها سقوط لاآخر دول الإسلام الممكنة، العاملة بالخلافة، المقيمة للشريعة، الرافعة للواء الجهاد في سبيل الله لنصرة هذا الدين!

وقد اتخذ أعداء الإسلام سقوط الخلافة العثمانية ذريعة لغراس أفكار خبيثة في عقول الأجيال المسلمة بطرق شتى، وأعظم هذه الأفكار خطراً إشاعة أن التمكين قد صار بعيد المنال أو هو مستحيل، وأن التفكير في إقامة خلافة مسلمة جامعة هو أمر ينبغي أن يكون ميؤساً منه من قبل المسلمين!

وبالفعل فقد تأثرت جماهير المسلمين بهذه الأفكار، بل ربما



تأثر بها بعض العاملين للإسلام، سيما بعد تلك المحاولات الكثيرة  
-النظرية والعملية- التي بذلت لعودة الخلافة العثمانية ولم تفلح في  
تحقيق شيء!

لكن لا تلبث هذه الأوهام أن تتبدد فتتجدد الآمال، وذلك  
حين تثمر بعض الجهود المسلمة في إقامة دولة أو إمارة إسلامية  
تقيم نظام الإسلام هنا أو هناك، وقد حدث هذا كثيرًا في العصر  
الحديث، لكن المؤسف أن معظم المسلمين وربما كثير من العاملين  
للإسلام الراجين لتمكينه لم يسمعوا بهذه الدول أو الإمارات.



وحين يثبت عملياً في أرض الواقع أنّ دولة إسلامية صغيرة  
ناشئة قد صار لها عز وتمكين في أرض الله، حتى بات أعداؤها  
يخشونها ويعملون لها ألف حساب، بل حين تحقق هذه الدولة  
الناشئة على هؤلاء الأعداء -الذين ظنهم المسلمون أقوىاء لا  
يقهرون- انتصاراتٍ هي أشبه شيء بالمعجزات وخوارق العادات:  
إن هذا لأشد أثراً وأصدق نبأ في إقناع القلوب والعقول المؤمنة أنّ  
التمكين للإسلام ممكن، وأن الحلم به جائز بل واجب، وأن السعي  
في سبيل تحقيقه فرض وحتم، وأن الجهود المبذولة في سبيله لا



تضيق عبثاً، وإنما هي جهاد، بل أعظم الجهاد!

وقد شجّع هذا الأمل مع نشأة الدولة الإسلامية التي أقامها الإمامان محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، وتمخضت عن قيام دولة للإسلام في الجزيرة العربية<sup>(1)</sup>، ثم اشتد هذا الأمل وقوي حين قامت إمارة إسلامية عظيمة على يد الأمير المجاهد والبطل الكبير عبد الكريم الخطابي، هذه الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيّرت مسار التاريخ!

وكان هذا من وقت قريب إلى منتصف سنة ١٩٢٦ م<sup>(2)</sup>.

ولن تخبو تلك الآمال، ولن تنقطع تلك المحاولات لتحقيق وعد الله أبداً، لما علم المسلمون من ضرورة وجوده وضرورة تحقيقه.

إنّ للخلافة في حياة الأمة أثراً لا يقوم إلا بها، وبها حاجة لا تسد إلا من خلاها، وعليها دور لا يؤدي من دونها، لذلك كانت انتصارات الإسلام، وقمة عزه وسموه، ورفعة جنباه وعلوه،

---

(1) راجع كتاب محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره، تأليف الدكتور عبد الله الصالح العثيمين، دار العلوم الرياض.

(2) راجع في سيرته: مائة من عظماء الإسلام غيروا مجرى التاريخ (ص 16 - 22) جهاد الترياني، ط. التقوى.



وحفظ مكانته وعزته، حين كان يصبح ويضحى، ويمسي ويبيت،  
تظلمه راية الخلافة الخفاقة، وبها خضع له كل شبر أحرزه من أرض  
المعمورة، وما ضاع ما أحرزه الأسلاف - في ظل الخلافة - على  
أيدي الأخلاف إلا يوم أضاعوا قبل ذلك راية الخلافة، فتفرق  
شملهم، وتشرذمت وحدتهم، وأمسوا لقمة سائغة لعدوهم؛ إذ  
انفصمت عروتهم التي كانوا بها يعززون، ووحدتهم التي كانوا بها  
إياه يقهرون.

واليوم والأمة لا زالت تسام من أولي الذلة والمسكنة ومن  
كتب الله عليهم الخسار والبوار وسوء العذاب، وتضرب من أخس  
الناس على أم رأسها بالنعال، وأصبح حالها شر حال، إن أرادت  
الخروج من هذه الصحراء المهلكة، وأرادت أن تستظل من لفح  
الهاجرة القاتل، وأن تصل إلى نهاية الطريق الذي أرهاقها فيه طول  
المشي في التيه والظلام، فلا خلاص لها من ذلك أجمعه إلا برفع راية  
الخلافة من جديد، لتجتمع الأمة تحت لوائها، وتستعصم بحبل  
ربها تحت رايتها، لتعود إليها من جديد سالف انتصاراتها وماضي  
عزها ومجدها.

ألا قد آن للأمة أن تفيق وتستيقظ من هذا السبات العميق



ولتعرف الأمة حجم الأزمة التي تعيش، والمهانة التي تحيا، والذل الذي تُسام، ولتعمل في ابتداء طريقها ونهايته على إقامة الخلافة التي أضاعتها فضاغت، وفرطت فيها فانفرط عقددها، وفي السطور التالية نلتقي مع شخصية عظيمة فريدة حققت ذلك الأمل في يوم من الأيام، وطول قرن من الزمان، حين أنشأت خلافة إسلامية في قلب أفريقيا أعادت للإسلام حيويته وجددت شبابه، ربما لا يعرفها كثير من المسلمين ولا يسمعون بها!

هل يعرفون أن خلافة راشدة على منهاج النبوة قامت في أفريقيا في أواخر القرن (19)، واستمرت إلى القرن الـ (20)، حتى أسقطها الإنجليز سنة (1903م)، بعد أن حكمت (100) عام، وقد عاش الناس خلالها قرناً يشبه القرن الأول بعد رسول الله ﷺ، في حكم مثل حكم خلفائه الراشدين؟

وقد عرفت باسم «مملكة سوكوتو الإسلامية»، وكان مقرها بلاد الهوسا «نيجيريا»، وكانت دولتها تلك دولة ضخمة، مساحتها تقريباً (١٥٠) ألف ميل، وتضم (30) ولاية، وسكانها قرابة عشرين مليوناً!!

وكان إنشاؤها وقيامها على يد خليفة عالم، عرف بالزهد



والورع وألف مؤلفات علمية عظيمة لا زالت الأمة الإفريقية  
تنتفع بها حتى الآن!

فما هو نبأ هذا الخليفة العالم؟



هذا الخليفة العظيم الذي أنشأ هذه الدولة هو أمير المؤمنين  
الإمام الرباني شيخ الإسلام «عثمان بن فودي» رَحِمَهُ اللهُ!

ولد عثمان في قرية (طَقِل)، وهي قرية تابعة لمملكة (غوبير)،  
وتقع اليوم شمال نيجيريا، وذلك في حوالي عام (1169 هـ الموافق  
1754 م).

نشأ الشيخ عثمان في أسرة متدينة تميزت بثقافة علمية عالية،  
وحين ننظر في شيوخه نجد معظمهم كانوا بين الآباء والأجداد  
والأعمام، فوالده الشيخ محمد فودي - وكلمة فودي تعني الفقيه -  
هو الذي علمه القرآن الكريم، إلى جوار والدته حواء بنت محمد بن  
عثمان، وجدته رقية بنت العالم محمد بن سعد.

وأخذ عن عمه وخاله الشيخ عثمان المعروف ببذور بن الأمين  
بن عثمان في الفقه المالكي.



وعن عمه الشيخ الحاج محمد بن راج بن مودب أخذ علم الحديث.

وهناك معلمون وشيوخ كثير غيرهم <sup>(1)</sup>.

ولعلنا نخص بالذكر من بين هؤلاء الشيوخ شيخاً كان عظيم الأثر فيه؛ تعليمًا وتربية، ثم تأييدًا ومساندة، ذلك الشيخ العظيم الأثر في حياة الإمام عثمان هو الشيخ الفاضل جبريل بن عمر، شيخ شيوخ زمانه، وأهم أساتذة الإمام عثمان بن فودي على الإطلاق؛ إذ قام الشيخ جبريل بواجبه تجاه تلميذه عثمان مرتين: الأولى عندما قَدَّمَ لعثمان علومًا مفيدة ساهمت في تكوين شخصيته العلمية والسياسية، والثانية عندما كان أول مَنْ بايعه على الجهاد في سبيل نشر الإسلام في تلك المنطقة، واعترف له بالولاية وعقد له الراية. وفي المقابل لم يكن عثمان أقلَّ سمواً من مُعَلِّمه؛ فقد كان يُرَدِّد

بشكل دائم هذا البيت من الشعر:

إن قيل فيّ بحسن الظنِّ ما قِيلاً

فموجةٌ أنا من أمواج جبريلاً <sup>(2)</sup>

(1) إنفاق الميسور (ص 34) للشيخ محمد بللو.

(2) راجع: التاريخ الإسلامي، (ج 8)، محمود شاكر.



وإن كان ذلك لم يمنع التلميذ أن يرد بعض غلوّ شيخه في التكفير حين رأى في كتبه وكلامه بعض الشطط<sup>(1)</sup>!



كان عثمان - منذ صغره - مشتغلاً بالدعوة إلى الله، معروفاً بالجد والاجتهاد، صلباً في الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالقسط والعدل ولو في القربى، لا تأخذه حمية الجاهية، بل لا يزيغ عن الحق.

وقد رأى الشيخ عثمان في أثناء جولاته الدعوية مظاهر ساءه أن توجد في بلاده كانتشار الفسق والجهل، وابتعاد عامة المسلمين عن تعاليم الدين الحقيقية؛ بل وقف بنفسه على أنواع من الكفر والعصيان على أمور فظيعة، وأحوال شنيعة، حتى لا يكاد يوجد فيها من صحّ إيمانه إلا النادر القليل، ولا يوجد في غالبها من يعرف التوحيد ويحسن العبادات<sup>(2)</sup>.

فقام الشيخ مجدد الدين في قلوب الناس ويسعى لإرشادهم إلى طاعة الله تعالى، بتصحيح عقائدهم، وتعليمهم أصول وأحكام دينهم، وهدم العادات الرديئة، وإخماد البدع الشيطانية، وإحياء

---

(1) عظماء منسيون (ص 40) لفضيلة الدكتور محمد موسى الشريف.

(2) انظر: تزيين الورقات (ص 33) عبدالله بن فوديو.



السنة المحمدية، وفي ظل هذه الخلافة أصبح الإسلام هو القوة السياسية العليا في نيجيريا، وتم تطبيق الشريعة في أنحاء السلطنة، فسارع إليه الناس، وجعلوا يدخلون في الإسلام أفواجا.

وقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ صَبُورًا لا يَضْجُر ولا يَسَام، مع أنَّ كثيرًا من مدعويه كان من العوام وربما أَوْذَى مِنْهُمْ أَذَى شَدِيدًا.

كما أنه ما كان يستحيي من أحد في الحق، وإن كانوا شيوخًا جلة أو علماء حسدة، بل يتكلم ويوجه الجميع إلى الحق!

وكان يعقد مجلسين للعلم؛ أحدهما للتدريس والآخر للوعظ والإرشاد.

فأما مجلس التدريس، فكان يقوم فيه بتفسير القرآن الكريم وبحث علوم الحديث والفقه والتصوف وغيرها، وذلك يوميًا بعد صلاتي العصر والعشاء.

وأما مجلس الوعظ والإرشاد، فإنه كان يخرج له ليلة كلِّ جمعة، أو في بعض الليالي، وكان يحضره جمع غفير؛ رجالًا ونساء، وكان كثيرًا ما يخرج إلى القرى القريبة والبلدان المجاورة ويمكث فيها أيامًا أو شهورًا ثم يرجع إلى قريته<sup>(1)</sup>.

---

(1) انظر: الإسلام في نيجيريا، (ص 104-105) آدم عبدالله الإلوري.



وقد كان الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ متصوِّفًا، صاحب دعوة نقيّة، كثير الحثّ على اتباع السنة واجتناب البدعة، وقد شغلت الدعوة كل حياته؛ إذ قضّاها جميعها في الجهاد العلمي والعملّي، أما الجهاد العلمي فقد استولى عليه في الغالب شيئان أساسيان: التحذير من الغلو في التكفير لدى طائفة من المسلمين، وإخماد البدع والخرافات الشيطانية لدى العوام والفرق الصوفية، إضافة إلى اشتغاله ببث العلوم الشرعية، وتحرير المشكلات فيها.

وبذلك كانت أصول دعوة الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تقوم على أهداف أساسية عظمى هي العوامل الرئيسة لكل دعوة إصلاحية صادقة، والمنهج الذي يجب أن يتبعه كل أمر بالمعروف وناه عن المنكر.

وقد اهتم الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ بتعليم أولاده؛ ذكورًا وبنات، ويذكر التاريخ أولاده العلماء الناهين الذين نبغوا في العلوم، كما يذكر ابنته «نانا أسماء» فقد حفظت القرآن، وكانت عالمة ومؤلفة، ترجمت أعمالها إلى عدة لغات، وتدرّس سيرتها في الجامعات الغربية كمثال عظيم للمرأة الإفريقية المسلمة، وكانت أيضًا شاعرة، وكاتبة!





ظل الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى على حاله تلك في الدعوة وكانت  
دعوته تصل إلى البلاد التي تجاوره شيئًا فشيئًا، وكان الناس  
يدخلون دين الإسلام ويتركون دينهم الذي نشأوا عليه، وكان قد  
زار في سن مبكرة مدينة «أغاديز» الصحراوية فاستقبله سلطانها  
استقبالًا حارًّا وبقي فيها للدراسة بضع سنين، وأثناء عودته من  
أغاديز استقبله ملك «غوبير» وعاش هناك أيضًا بضع سنين في  
ضيافة الملك، وعمل معلمًا لأبناء البيت الملكي، وكان على علاقة  
طيبة بهم، غير أن ذلك الملك مات وولي مكانه ابنه الأكبر، ولم يكن  
على دين بل إنه ارتد عن الإسلام واختار دين المشركين من آبائه،  
وعمل على وقف انتشار الإسلام، وأعطى أوامره بأن يمنع من  
يولدون على غير الإسلام بالدخول فيه، وفرض على كل الذين  
أسلموا أن يرجعوا إلى دين آبائهم<sup>(1)</sup>.

وحرم هذا الملك واسمه «نفاتا» على الرجال أن يعتَمُوا، وعلى  
النساء أن يغطين وجوههن!

فما كان من الشيخ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أن رفض ذلك كله،

---

(1) حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي  
(ص 21) أحمد محمد كاني.



وقفل راجعاً إلى قريته «دِغْل» رافضاً كفر نفاتا.

ونتيجة ذلك فرض عليه هذا الملك الكافر حكم الإقامة الجبرية، ولم يلبث ذلك الوضع إلا قليلاً حتى هلك ذلك الكافر وولي بعده ابنه وكان على دين أبيه، ثم هلك هو الآخر وجاء ملك آخر اسمه «يونفا»، وكان تلميذاً للشيخ عثمان، فما إن ولي الملك حتى قام بزيارة خاصة لقرية دِغْل؛ ليحيي معلمه الكريم!

وقد تشجع الشيخ عثمان بهذه الزيارة فبدأ من وقتها يحب البلاد داعياً إلى الحق؛ يحث الناس على الالتزام بتعاليم الإسلام وقوبلت دعوته بنجاح واسع، سيما بين رجال قبيلته، وبسرعة تجمعت حوله عصابة صغيرة من المتحمسين الذين تعلقوا بكلماته واعتبروه رئيسهم.

ومع زيادة أعدادهم بدأ «يونفا» -على محبته الشيخ وعرفانه بجميله- يشعر بالخطر من جراء نمو حركته، وتزايد شعوره هذا بحادث بين له مدى القوة التي وصل إليها شيخه عثمان حين اعترض الشيخ على الملك بشأن أسره بعض المسلمين واعتبارهم رقيقاً، وقام الشيخ بنفسه إلى فك وثاقهم، مسائلاً الملك وجنده: «بأي حق جعلتم من هؤلاء المسلمين عبيداً؟»



وبسبب ذلك أراد الملك أن يقتل الشيخ عثمان، لكنه لم يجرؤ على إعلان ذلك، ولا على أن يفرده من بين الناس فأرسله -مكرّمًا في الظاهر- إلى دغل، وبعدها أعطى أوامر سرية بذبح كل الفولانيين -قبيلة الشيخ- في مملكته.

لكن ذلك السر تسرب فورًا، وأنذر به الشيخ وأتباعه فهربوا إلى «غودو» حيث التف حوله الفولانيون كواحد من أفاضل جنسهم، وهناك أعلن أنه لن يتخفى وأنه سيواجه الموت وأنه سيواجه الملك وجنده، وكذلك دعا الملك «يونفا» قادة جيشه لحمل السلاح، وفي 1804م التقى الجيشان وكان النصر حليف الشيخ وجنده وذاق الملك هزيمة نكراء، ومن وقتها اختار الفولانيون الشيخ عثمان قائدًا لهم وجعلوه «أمير المؤمنين»، وظل يحمل هذا اللقب ويحمله كل سلطان لخلافة سوكونو يأتي من بعده<sup>(1)</sup>.

وكان هذا النصر فاتحة انتصارات عظيمة تلتها؛ إذ مكّن للشيخ وأتباعه في الأرض، فانطلقوا يفتحون البلاد المشتركة ويخضعونها للإسلام وينشرون العدل في الناس ويؤمنون حياتهم وحدودهم حتى دانت لهم كل ولايات الهوسا، وعاش العالم الجليل طويلاً

---

(1) إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور (ص 96) محمد بللو.



ليرى نتيجة عمل حياته، وليرى راية الإسلام التي عمل تحتها ترتفع عالية خفاقة بفضل سعيه وجدّه، فلقد كان -كما يشهد مؤرخو عصره- مخلصاً في إيمانه، صاحب اعتقاد قوي، وثقة لا يعترها شك، وشخصية أثرت في أتباعه حتى إنهم ورثوها.

وبهذه الصفات الإسلامية نجح الإمام عثمان بن فودي في بناء قاعدة عريضة من المجاهدين والقادة والأمرء الذين قادوا الأمة المسلمة في قلب أفريقيا، وأقاموا أعظم الممالك الإسلامية في هذه البقعة الغامضة عن ذهن أبناء المسلمين الآن.

وقد كان أمير المؤمنين عثمان بن فودي رَحِمَهُ اللهُ يعيش عيشة عادية بسيطة زاهدة جداً، إذا ما قورنت بحياة الحكام الوثنيين البرابرة المتأثرة بمظاهر الدنيا وإغراءات المنصب والسلطان. وكان الخليفة العالم متواضعاً غاية التواضع، وكان شديد الإيمان يرجع الأمر في كل انتصاراته ونجاحاته إلى الله، ولا ينسب إلى نفسه من الأمر أي شيء!

وقد ظلّ في كرسي الملك حتى إذا اطمأنّ على سير الأمور في مملكته أوكل إلى ابنه المملكة واعتزل أعمالها، وسخر نفسه لحياة العلم والدراسة في مدن المملكة إلى أن مات رَحِمَهُ اللهُ في سنة



(1233هـ/ 1818م)، وما زال قبره مثابة، معروفاً، يؤمّه الناس للزيارة<sup>(1)</sup>.

وبقيت امبراطوريته مائة سنة، حتى احتلت القوات البريطانية البلاد وأسقطت الخلافة، وكانت قد ضعفت في أواخرها ضعفاً شديداً.

لكن بقيت فيها قلوب حيّة، مجاهدة، تُقاوم الأعداء، وتُحافظ على دينها وعزّتها، فترة طويلة، بل لقد أصبحت (الدولة الفودية) الإسلامية في جسم الأمة المسلمة في شمال نيجيريا محرّكاً قوياً يوقظها كل مرة اعترتها خلالها غفوة الزمن وأخذها سبات الغفلة<sup>(2)</sup>.

وهكذا إن كان «كثير من الكتاب والمؤرخين يرون القرن التاسع عشر عصر انحطاط فإن هذه العبارة إن صحت من الناحية العلمية على قلب العالم الإسلامي وأطرافه الشرقية والجنوبية والشمالية، إلا أنها لا تنسحب على ما يتعلق ببلاد السودان الأوسط

---

(1) للاستزادة من حياة هذا الإمام العظيم والتعرف على دعوته ودولته، راجع: الإسلام في نيجيريا ودور الشيخ عثمان بن فودي في ترسيخه، تأليف محمد لواء الدين أحمد، وإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، للأmir محمد بيلو بن عثمان السوداني الفولاني، وغيرهما.

(2) الشيخ عثمان بن فودي والطريق لاستعادة الهوية، مقال بقلم د. محمد الثاني عمر موسى.



والغربي، أو ما اصطلح عليه جغرافياً في الآونة الأخيرة (غرب أفريقيا)، فهذا القطر من العالم قد شهد في أوقات متعددة قيام عديد من ممالك حكمت شعوبها باسم الإسلام، وأقامت نظم حكمها على أسسه ومبادئه وتعاليمه، ومن بين هذه الممالك (مملكة سوكوتو الإسلامية) في القرن التاسع عشر الميلادي، فقد قاد هذه الخلافة رجل اتسم بكل معاني الشهامة والشجاعة مع الدين والورع والتقوى، وقام بمحاربة الفساد العقدي والسلوكي والسياسي، وواجه عددًا من المشكلات التي يعيشها مجتمع بلاد (الهوسا) آنذاك.



وسواء صح ما قيل من أنّ السلطان عثمان بن فودي تأثر بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب<sup>(1)</sup>، وأن هنالك وجوهاً كثيرة للتلاقي بين دعوتيهما، أو لم يصح، فإن شيخ الإسلام عثمان بن فودي يظلّ مجددًا من مجددي الإسلام في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وتظل خلافته التي تبنت الحكم بما أنزل الله، وإقامة شرائعه، والدعوة إلى الاجتهاد، ورفض التقليد،

---

(1) انظر بحث ذلك في كتاب: أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب أفريقيا، مصطفى مسعد، مطبوع ضمن بحوث ندوة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.



والتمسك بثواب الإسلام ومحاربة البدع؛ خلافة راشدة على منهاج النبوة، لقد كانت دعوته ودولته رحمة من الله تعالى بالأُمَّة المسلمة بأفريقيا، ونصرة عظيمة للإسلام والمسلمين إذا نظرنا إلى الجهود التي قامت بها لخدمة الدين والأُمَّة في أفريقيا، من بعد ما زاغ قلوب فريق كبير من الناس عن الإسلام وتمسك آخرون به اسماً فقط ولم يكن بأيديهم منه - في الحقيقة - شيء.

ومن الآثار التي تركتها دعوة الإمام عثمان رَحِمَهُ اللهُ ودولته:

١ - القضاء على الوثنية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي، وهذا إنجاز ضخم جداً.

٢ - أعادت كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وقضت على كثير من البدع.

٣ - أنشأت دولة قوية مترامية الأطراف يهاها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة (100) عام بين (1803-1903)، ووضع لها دستوراً محكمًا قوياً.

٤ - أنتجت نتاجاً ثقافياً ضخماً، فقد ترك خليفته الشيخ عثمان فودي وحده (140) مؤلفاً تقريباً في الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وتخرج على يديه (100) عالم مجتهد



في المذهب المالكي، وهذا عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.

٥- ضبط مسألة الغلو في التكفير، وقد ألف هذا الخليفة خمسين مؤلفاً تقريباً في الرد على من ذهب إلى التكفير بالمعصية<sup>(1)</sup>. نحن أمة لها أمجاد... لكنها أمجاد مجهولة، أو أقول: لكننا أمة جاهلة بأمجادها!



ذلكم هو أمير المؤمنين عثمان بن فودي الذي يجله كثير من المشاركة والمغاربة، لكنه في أعين ملايين كثيرة من سكان السودان الغربي يُعدّ بطلاً قومياً وقائداً روحياً يأتي -عندهم- بعد النبي محمد نفسه، وما تزال ذكراه تمثل لهم دافعاً قوياً للعمل على حرية بلادهم ورفعته حتى إنهم في نيجيريا منذ يونيو 2004م ابتدأوا الاحتفال بالذكرى الـ 200 لميلاد «خلافة سوكوتو» وزعيمها الخالد الذكر العالم عثمان بن فودي، رَحِمَهُ اللهُ، وجزاه الله عما قدّم للإسلام والمسلمين خير الجزاء، وورق المسلمين في هذا العصر أمثاله.



(1) انظر: عطاء منسيون (ص 39، و 40).



صديق حسن  
خان

بدر الأقطار الهندية..

ملكاً وعلماً



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## صديق حسن خان بدر الأقطار الهندية .. ملكاً وعلماً

من هذا الملكُ العالم الذي جلس على كرسيِّ الملك يدير ويسوس، ويقضي شطراً كبيراً من وقته في فصل الخصومات وسماع النزاعات وإصدار الأحكام، ومع هذا كله أقبل على العلم درساً واطلاعاً وتأليفاً وتصنيفاً، بجهد دائم ودأب متواصل، فلم تشغله السياسة والإدارة عن الدرس والتأليف؟

من هذا الملك العالم الذي تدرّج في أعمال الملكية؛ كاتباً ومحرراً، ثم وزيراً، ثم نائباً للوزراء، ثم جلس مجلس الملك، وهو -إلى جوار ذلك- علامة محقق، وأديب شاعر، وصاحب تصانيف وتآليف ذائعة مشتهرة؟

إن ذلكم الأمير الملك والعلامة المحقق هو «صديق حسن خان»، صاحب «الروضة الندية» و«الدين الخالص»، وغيرها من المؤلفات التي تربو على المائتين.

إنه الرجل الذي وظف بحبوحه العيش وجهود الدولة في خدمة العلم وأهله، واستفاد -بثاقب فكره- من هذه النعم؛



لتحقيق هدفه السامي وغايته الغالية، ليس العلم فحسب، بل العلم والعمل وإصلاح دنيا الناس بدين الله!



أول مرة طرأ فيها ذكر العلامة «صديق حسن خان» سمعي؛ حسبته عالماً من علماء القرون الأولى في الإسلام، ثم لم ألبث أن اكتشفت أن فضيلته ما غادر الحياة تاركاً دنيانا إلا منذ قرن واحد من الزمان!

فلما اطلعت على كتبه وقرأت آثاره عدت إلى الشك في التأريخ الذي قرأته في ترجمته؛ إذ أذهلني أن يكون لأحد من المتأخرين ذلك الإنتاج في التصنيف؛ كثرة، وتحريراً، وجودة، وتنوعاً، وطرافة، مع علو كعب في العلم والمعرفة، وسعة اطلاع على الألسن والثقافات، مع ميزات أخرى لا تحصى!

ثم ازداد ذهولي وعظم انبهاري حين تتبعت سيرته، فإذا رجل كنت حسبته - لإنتاجه هذا - عاكفاً في دارٍ أو كوخٍ على التأليف والتصنيف، ليس له من هم إلا هذا، فإذا الحقائق تخالف الحسبان وتفوق الخيال؛ لأني وجدت العالم الكبير رجل عامة؛ «وقف نفسه



على الناس، وكان حاضرًا بينهم بوضوح؛ يعلمهم وينصح لهم،  
ويحمل همومهم، وساعيًا لنفعهم، ومتصدرًا لخدمتهم وحل  
مشكلاتهم، يعمل ذلك جميعه بكل رحابة صدر وبشاشة وجه».

وهو أيضًا رجل دولة؛ تقلّد كثيرًا من المناصب، فقد ولي تحرير  
الوقائع للوزير جمال الدين الصديقي الدهلوي بـ (بهوبال)، ثم  
تولى منصب نظارة المعارف، ثم نظارة ديوان الإنشاء، ثم حاز لقب  
(نواب) -يعني نائب الملكة-، وغدا ساعدها الأيمن في إدارة  
الدولة!

ثمّ كانت مفاجأة كبيرة جدًا لي أن علمت بأن هذا الرجل  
العظيم والعالم الكبير قد توفي رَحِمَهُ اللهُ وَلَهُ من العمر (59) عامًا  
فقط!

فسبحان من يبارك الأعمار، حتى إن (59) عامًا من الزمن  
لتساوي (590) عامًا من العطاء، قد وضع الصفر وراءها، فصارت  
الخمسون خمسمائة وصارت التسع تسعينًا!

فمن هو صديق حسن خان هذا؟

ماذا عن نشأته وسيرته، ما أخبار حياته العامة، والعلمية؟



ذلك ما تنبئك به السطور التالية<sup>(1)</sup>:

في بلدة بانس بريلي - أقدم بلاد الهند وأعظمها، وتقع في الشمال - وُلد «صديق خان» لأسرة عظيمة، قَدَّمها في الشرف راسخ، وأصلها في النسب ثابت، وفرعها يضرب بالعلم والمعرفة في السحاب!

فنسب صديق خان ينتهي إلى الإمام الشهيد السعيد الحسين بن علي بن أبي طالب؛ السبط الأصغر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وكانت صَنعة أجداده العلم، وعملهم الدعوة والإرشاد والإصلاح.

فهي أسرة شريفة فاضلة، إلا ما عكّر على فضلها في فترة طرأ فيها التشيع والرفض، ثم شاء الله أن يكون بدء انجلائه على يد «حسن» والد عالمنا «صديق»؛ إذ خرج حسن هذا يطوف البلاد في

---

(1) للاستزادة من أخبار صديق حسن خان انظر: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، عبدالحی الحسني، وحلیۃ البشر، عبد الرزاق البیطار، وکتاب «مآثر صدیقی»، بقلم ولده أبو نصر سید محمد حسن خان، ونشر الجواهر والدرر فی علماء القرن الرابع عشر، د. یوسف المرعشلی، ومجلة المعهد العلمی الهندی، عدد رقم (1-1/2 یونیو 1981)، بقلم محمد اجتباء الندوی، ونشرت فی کتاب، وغیرها.



طلب العلم ولقي أفاضل العلماء، فكان ذلك سبباً في تبصره، فخلع التشيع والرفض، واتجه إلى اتباع السنّة ولزوم سبيلها.

بلغ حسن والد صديق درجة رفيعة في العلم، وكذا في العمل؛ فقد عرض أمراء بلاده -الرافضة- عليه أن يحل محل أبيه الذي توفي، وكان أبوه في منزلة عالية فيهم؛ إذ كان يلقب بلقب الأمراء، ويسكن في قصر شامخ، ويُقطع إقطاعات كبيرة تدرّ عليه دخلاً واسعاً ورزقاً وفيراً، وكان له نحو من ألف جندي يسرون تحت قيادته!

فرفض «حسن» الاستجابة لمطالبهم تلك، ورفض كذلك أن يأخذ من تركة والده شيئاً؛ لكونه شيعياً<sup>(1)</sup>!

فيا لها من همة في التزام السنّة، ويا له من ورع كريم؛ لقد رفض المنصب ورفض المال!

وقد فضّل على ذلك كله صحبة إمامين كريمين من أهل العلم والفضل في الهند كان لدعوتها الإصلاحية أثر عمّ نفعه بلاد الهند وامتدّ إلى بلاد الإسلام جميعها، فجاهد معهما، وكان من أكبر

---

(1) انظر: مجلة المعهد العلمي الهندي، عدد رقم (1-2/1 يونيو 1981)، بقلم محمد اجتباء الندوي.



حلفائهما في نشر التوحيد والدعوة ورد البدع في تلك الديار،  
وهذان الإمامان العظيمان هما المجاهدان: أحمد عرفان، وإسماعيل  
الشهيد<sup>(1)</sup>.

وكان حسن إلى جوار ذلك زاهداً، ورعاً، وقد ترجمه «صديق  
خان» في مواضع من كتبه<sup>(2)</sup>، ووصفه بـ«العلامة»، وأثبت له من  
الفضائل العلمية، والفواضل العملية، والآيات والكرامات شيئاً  
كثيراً<sup>(3)</sup>.

وقد توفي رَحْمَةُ اللَّهِ سَنَةَ (1253 هـ).

هذا هو «حسن» والد صديق خان.

(1) انظر بعض أخبارهما في: نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، المسمى  
الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (7/ 899 - 902)، عبد الحي  
بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (المتوفى: 1341 هـ)، ط دار  
ابن حزم، وأيضاً كتاب «إذا هبت ريح الإيمان» ذلك الكتاب الفذ الذي  
ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي - رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى وغفر له - عن  
تاريخ الدعوة والجهاد في الهند في القرن الثالث عشر الهجري، وأضواء  
على حياة قائد هذه الدعوة والحركة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد،  
وسيرة أصحابه ورفاقه وأخلاقهم، في أمانة تاريخية وأسلوب قصصي.  
(2) منها أبجد العلوم (ص 26 و 92)، وانظر ترجمته في حلية البشر (1/ 486)،  
ونزهة الخواطر (7/ 102).

(3) انظر: لقطه العجلان (ص 121 - 123) ط الجوائب.



أما أمّه فهي «نجب النساء بيكم»، ابنة مفتي بانس بريلي  
«الشيخ محمد عوض العثماني»، فهي من أهل بيت عرف بالعلم  
والفضل والشرف، كذلك.



لهذين الأبوين الكريمين، ولد «صديق خان» عام (1248هـ  
/ 1832م)، وكانت ولادته في بيت جده لأمه، ثم نقله أبوه إلى  
«قنوج» موطن الآباء؛ ليصنعه على عينه ويربيه في كنفه، وفي قنوج  
تلقّى «محمد صديق» القرآن الكريم، وبعض علومه الأولى.

ولم يلبث الوالد أن توفّي ولمّا يدخل «صديق خان» عامه  
السادس، فقدّر له بذلك أن ينشأ يتيماً في حجر أمّه التي انتقلت به  
بعد وفاة أبيه إلى «بانس بريلي» مرة أخرى، وهناك -في بيت جدّه  
المفتي- اعتنت به أمّه وربته، وعيّنت له مدرّساً للقرآن، وتعلّم  
مبادئ اللغة الفارسية، وهياً الله له أخاه الأكبر «أحمد» -وكان عالماً  
أديباً<sup>(1)</sup>- مع صفوة من العلماء؛ فدرّسوه العلوم النقلية والعقلية.

وكان جميع من أخذ عنهم من أهل هذه النواحي يقرّبه ويؤدّبه

(1) انظر: نزّهة الخواطر (7/ 27).



وينزله منزلاً حسناً ويكرمه؛ رعاية منهم لمكان أبيه رَحِمَهُ اللهُ.

في الأقطار الهندية إذن كان مولد «صديق خان» ومسكنه،  
ومحتدّه، ومربّاه، وبدايات طلبه العلم، ومطلع نوره!



كان صديق خان عالي المهمة في طلب العلم؛ رحلة إلى العلماء  
واطلاعاً على الكتب، فلما كبر وترعرع ارتحل إلى «دهلي» حاضرة  
الهند، ودار على أعيان العلماء ونبلأء الفقهاء، فقرأ سائر العلوم  
والفنون، وتنقل بين أرجاء الهند متتبّعاً أهل العلم والفضل، حتى  
حصل له قسط وفير ونصيب كبير من العلم؛ تميز به عقله وظهر  
بسببه فضله وذاع صيته.

ولم تقتصر استفادته على لقاءات العلماء، فقد لقي عدداً من  
رجال الحكم، ومنهم آخر سلاطين المغول «محمد سراج الدين  
بهادر جاه»<sup>(1)</sup>.

وقد التقى «صديق حسن خان» بعد ذلك شيوخاً كثيرين من

---

(1) انظر: «ترجمة الأمير العالم المصنّف... صديق بن حسن خان القنوجي»،  
بقلم الشيخ محمد زياد التكلة، مقال منشور في موقع الألوكة، على الشبكة،  
وقد استفدت منه في مواضع.



خارج الهند، بمكة واليمن وغيرهما، فشهد له كل من لقيه وكلمه وطاعمه العلم أنه «ذو فهم راسخ، وطريقة مستقيمة... وبأنه متمكن من علوم الآلات، واسع الاطلاع»<sup>(1)</sup>، وغير ذلك من الثناء الجميل.

وكان أيضًا عالي المهمة في الاطلاع على كتب العلم، فقد كان يطالع «بفرط شوقه وصحيح ذوقه كتبًا كثيرة ودواوين شتى، في العلوم المتعددة والفنون المتنوعة، ويمر عليها مرورًا بالغًا، على اختلاف أنحائها، ويأتى عليها بصميم همته وعظيم نهيمته بأكمل ما يكون، حتى حصل منها على فوائد كثيرة وعوائد أثرية»<sup>(2)</sup>.

وكان صاحب همّة عالية في شراء كتب العلم، جماعًا لها، ويكفي أن نعلم جدّه في أثناء رحلة الحج، حيث نسخ في الباخرة ذهابًا فقط كتاب الصارم المنكي في الرد على السبكي، لابن عبد الهادي، وهو مطبوع في قريب من (350) صفحة، وقال: «لم أضيّع زمن ركوبي البحر عبثًا»<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص 245)، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار اليمامة.

(2) أبجد العلوم (13/ 217)، صديق حسن خان، دار الكتب العلمية.

(3) رحلة الصديق إلى البيت العتيق (161) صديق حسن خان، ط أوقاف قطر.



بل ولما نزل من الباخرة وأقام في دار شيخه القاضي حسين بن مُحسِن الأنصاري، وأخيه زين العابدين، مكث هنالك يراجع كتب الحديث، ويكتب منها بيديه ما استطاع، واستعار أيضًا رسائل الأمير الصنعاني فطالعها، وانتسخ جملة من الرسائل المختصرة والمطولة بيده، ومما نسخه هناك: السياسة الشرعية لابن تيمية، واشترى عددًا كبيرًا من الكتب النفيسة.

**ومما اشتراه:** فتح الباري لابن حجر، بخط ابن علان الصديقي، اشتراه بستمئة دينار ذهبي، وهي النسخة التي طبع عليها الكتاب بعدئذ، على نفقته<sup>(1)</sup>.

وهكذا استغل رحلته جميعها في العلم، إلا ما كان منها في أداء المناسك، حتى إنه ليقول: «ومن غاية الشغف بعلوم السنّة لم أترك كتابة العلم بعرفه ومنى في أيام إقامتها، لكن في غير أوقات المناسك»<sup>(2)</sup>.

وفي أثناء عودته نسخ -وهو على البحر- سنن الدارمي من نسخة نفيسة استعارها من المرزا أمير بك، صهر مجيزه الشيخ

---

(1) انظر: ترجمة الأمير العالم المصنّف.

(2) رحلة الصديق إلى البلد العتيق (ص 166).



المحدّث يعقوب الدهلوي، وكانت عليه تعليقات للشاه ولي الله الدهلوي، وطبع الكتاب بعد ذلك على منسوخته.

واستغرقت رحلته تلك ثمانية أشهر، كانت مثلاً لاستغلال الوقت وتحصيل العلم وكتبه.



أثمرت تلك المطالعات ثمرتها فكان «صديق خان» واحداً من الطلاب، ثم من الشيوخ الذين يشار إليهم بالبنان؛ رواية ودراية؛ رحلة إلى البلدان، ولقيّاً بالعلماء، وأخذاً عنهم.

ولاحت أمارات ذلك كله في نقشه؛ تأليفاً، وتصنيفاً، واختصاراً، وشرحاً، وتصحيحاً وتنقيحاً.

وقد بدأ التأليف مبكراً، فهذا هو ذا يخطّ أول مصنّفاته - وكان ترجمة كتاب - وهو بعدُ لم يجاوز الثانية والعشرين، وكان كتابه هذا الأول: «ترجمة المراح في التصريف»<sup>(1)</sup>، والمراح كتاب للإمام بدر الدين العيني، وهو من الكتب المهمة في علم التصريف.

ثم توالى خير الله على صديق خان وكثر وطاب، فصنّف

---

(1) التاج المكلل (537).



بثلاث لغات؛ العربية، والفارسية، والأوردية، تأليفاً وترجمة؛ بين اختصار وشرح وابتكار، وغير ذلك، إلى أن صار جملة ما ألفه يربو على (200) كتاب؛ بين مجلد، ورسالة، وعدة مجلدات؛ في فنون عديدة شملت: التفسير، والحديث، والمصطلح، والتراجم، والفقه، والرقائق، والنحو والصرف والبلاغة<sup>(1)</sup>.

وكانت له موهبة عظيمة في التأليف؛ حتى قيل: إنه كان يكتب عشرات الصفحات في يوم واحد، ويكمل كتاباً ضخماً في أيام قليلة، ومن ذلك: الاختصار والتهذيب والترجمة التي كثرت في مؤلفاته كثرة ملحوظة.

وقد «كتب إليه علماء الآفاق، ومحروها، ومحدثو الديار، ومفسروها، كتباً كثيرة أثنوا فيها على تلك التواليف، ودعوا له بإخلاص الفؤاد لحسن الدنيا والأخرى»<sup>(2)</sup>.

ومن فضل الله على صديق خان أن ذلك كله «طبع، واشتهر وشاع، وسارت به الركبان إلى أقطار العالم، من العرب والعجم،

---

(1) حسب ما ذكر، جميع مؤلفاته عددها (222)؛ منها (54) بالعربية، و(42) بالفارسية، و(107) بالأوردية.

(2) أبجد العلوم (3/ 274).



كالحجاز واليمن وما إليها، ومصر، والعراق، والقدس، وطرابلس،  
وتونس، والجزائر، ومدن الهند والسند، وبلغار، ومليبار، وبلاد  
الفرس»<sup>(1)</sup>.

و «صديق خان» أديب -أيضاً- عُرف بالنثر والشعر، وله  
ديوانا شعر؛ أحدهما بالعربية، والثاني بالأوردية، وكان ينهج في  
شعره بالعربية نهج الخليل بن أحمد الفراهيدي<sup>(2)</sup>، وكان له ما يشبه  
الصالون الأدبي<sup>(3)</sup>، يعقده دورياً، ويحضره الأدباء من لغويين  
وشعراء.



في الحادية والعشرين من عمره انتقل «صديق خان» إلى مدينة  
بهوبال، ووصل إلى وزيرها العالم السلفي «جمال الدين»، الذي  
توسط له عند الملكة «سكندر جهان بيكم»، فقربته، وتعين في  
ديوانها الخاص كاتباً، مع الوعظ والإرشاد كل جمعة في مسجد

---

(1) انظر: موقع «معجم البابطين».

(2) نفسه.

(3) درس الدكتور سعد الله المحمدي بن محمد عالم حياة صديق خان الأدبية،  
في رسالته للماجستير، بعنوان: «الأمير صديق حسن خان وجهوده في الأدب  
العربي»، وهي محفوظة بمكتبة الجامعة الإسلامية العالمية -إسلام آباد.



إبراهيم خان<sup>(1)</sup>.

وقد استقرّ في «بهوبال» مدة من الزمان، ثم حدثت قلاقل دفعت به إلى مغادرتها، لكنه لم يلبث أن عاد إليها ثانية، وهذه المرة لم يأتيها طالبًا بل مطلوبًا، حيث رغب إليه الوزير المذكور في تأليف تاريخ لمدينة بهوبال، وزوّجه ابنته الصغرى «ذكية بيكم»، التي كانت أمّ أولاده<sup>(2)</sup>.

وشاء الله أن تكون تلك السفرة فاتحة خير عليه، فترقى في المناصب حتى صار في أرفع مكان، وتحسنت أحواله جدًّا إلى أن تزوّج بـ«شاه جهان بيكم» التي وليت العرش بعد وفاة والدتها، فعمل وزيرًا لها، ثم نائبًا عنها في الملك، ولقّب بـ«النوّاب» عالي الجاه، والملك المؤيّد<sup>(3)</sup>.

وكان زواج صديق خان من الملكة نقطة تحول في حياته العلمية بل في النشاط العلمي والعهد التألّيفي في الهند كلها، فقد أتاح المنصب لصديق فرصة عظيمة من فرص الدهر النادرة؛

---

(1) انظر: ترجمة الأمير العالم المصنف.

(2) انظر: مجلة المعهد العلمي الهندي، عدد رقم (1-2/1 يونيو 1981) (ص 71) بقلم محمد اجتباء الندوي.

(3) السابق.



ليجمع بين العلم والعمل، والدعوة والإصلاح، وليمزج بين الدنيا والدين، السياسة والشرع، وقد أفاد العالم الملك إفادات عظمت وقدم خدمات جليلة.

■ منها أنه قام على توزيع الأراضي على الفلاحين، وإلغاء كثير من الضرائب، وتنظيم جباية الزكاة على الوجه الشرعي، وإقامة المحاكم الشرعية، وإنشاء إدارة للحسبة، وتحريم الربا والرشوة والمسكرات التي كانت فاشيةً من قبل، حتى كانت من قبل تتعاطى في مساجد بهوبال!

■ ومنها أنه جمع ببلاده من نفائس العلوم والكتب وجلب المخطوطات النادرة، ومواد التفسير والحديث، ما يعسر عدّه ويطول حدّه، حتى اجتمعت لبلده مكتبة علمية، رائدة، مملوءة بالكتب القيمة.

■ ومنها أنه بدأ يطبع الكتب العلمية التي تمس الحاجة إليها، فبذل المال الكثير في طبعها، وتوزيعها، على الأفراد، والهيئات، والبلدان، شرقاً وغرباً؛ فطبع «فتح الباري»، و«تفسير ابن كثير»، و«نيل الأوطار» وغيرها، على نفقته، في الهند، ومصر، وتركيا، ووزعها مجاناً، جزاه الله خيراً.



- ومنها أنه وضع خطة لترجمة كتب الحديث إلى اللغة السائدة في الهند، فترجمت كتب كثيرة، وكذا طبعت على نفقته ووزعت.
- ومنها أنه «صرف مما آتاه الله من المال والجاه في خدمة الإسلام والدين، وفي نشر علم الحديث والدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والعمل بالكتاب والسنة»<sup>(1)</sup> الشيء الكثير، وإن زكاة ماله في كل حول تصل إلى ألوف كثيرة<sup>(2)</sup>، فظهر أثر ذلك، وعمّ، وجاءته كتب العلماء من كل قطر تشكره، وبالخير تشني عليه وتذكره.
- ومنها أنه استقدم العلماء إلى مملكته من نواح وبلاد كثيرة، بل ونصبهم في المصالح العلمية والعملية، وإدارة الشؤون الدينية، مثل الفتيا، والقضاء، والتدريس، والحسبة.
- ومنها أنه وضع خطة في إعانة العلماء، والأدباء، وذوي الفضل في كلّ وجه، فرتب لهم إعانات مالية؛ من أجل أن يتفرغوا لعلومهم، ويباشروا مهامهم، ويمضوا في سبيلهم، للمذاكرة والدعوة والتدريس والتصنيف، حتى في خارج بهوبال.
- ومنها أنه قام بإنشاء المدارس والمعاهد الشرعية، والمكتبات،

---

(1) انظر: الإمام صديق حسن خان القنوجي مفسراً، وجهوده في علوم القرآن، مقال بقلم أبي محمد الظاهري، بملتقى أهل التفسير.

(2) نزهة الخواطر (8 / 1249).



«ولم يقتصر على المدارس الشرعية، بل فتح مدارس عصرية، وأخرى صناعية، ومنح الرواتب والجوائز للطلبة، فكان من يحفظ صحيح البخاري يأخذ ألف رويّة، ومن يحفظ بلوغ المرام يأخذ مائة رويّة».

وغير ذلك من الإفادات والخدمات الجليلة في شئون العلم والدين، بل وفي شئون الدنيا كذلك؛ إصلاحًا وتقويًا.

لقد كان «صديق خان» آية من آيات الله في العلم والفهم، والتمسك بالكتاب الكريم والسنة النبوية، والتحلي بالأخلاق الكريمة الفاضلة، وكان لهذا كله أثر عظيم في أعماله كلها، فتكللت مساعيه هذه بنجاح منقطع النظير، واستحق بها أن يكون من رجال النهضة الإسلامية المجدّدين.

فازدهرت بهوبال بجهوده، «وصارت كعبة لطلبة العلم، وراجت فيها سوقه، ورحل إليها الطلبة من أنحاء الهند ومن خارجها، وانتشر العلم والعمل بالسنة في البلاد، حتى وصفها شيخنا العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه شخصيات وكتب بأنها صارت مدرسة



للحديث تضاھي شیراز واليمن، وأن مسجدها «موتى مسجد»  
كان مثل الأزھر<sup>(1)</sup>.

وصار هو «سید علماء الهند في زمانه، وابن سیدهم الذي برع  
فضلاً في عصره وأوانه، فخضعت له النواصي، وشهد بكماله الداني  
والقاصي»<sup>(2)</sup>.



جلس «صديق خان» مجلس السلطنة في الأمور الدولية، وقام  
مقام الملكة في إنفاذ الأوامر، فعاد إلى مملكته ماء الشبية بعد  
المشيب، ذلك لأنه كان مليئاً بالعلوم، متضلعاً منها بالمنطوق  
والمفهوم، مجتهداً في إشاعتها، مجدداً لإذاعتها»<sup>(3)</sup>

وكانت ولايته المنصب كما قيل:

إن الولاية ليس فيها راحة

إلا ثلاث يتغيها العاقل

---

(1) شخصيات وكتب (ص 77)، أبو الحسن الندوي، دار القلم.

(2) حلية البشر (1/ 329)، عبد الرزاق البيطار.

(3) نفسه (1/ 331).



## حكم بحق أو إزالة باطل

أو نفع محتاج سواها باطل  
وهو قد زاد على ذلك وأفاد، فأحيا السنة وأعزّها، وقمع  
البدعة وقتلها، وانتفع الناس بجوده وبذله، وعلمه وحكمه وفضله،  
ليس في مملكته فحسب بل في مدنٍ غيرها كثيرة، وبلاد سواها قريبة  
وبعيدة، وكان فضل الله عليه كبيرًا، وعلى عباده المؤمنين.



عاش صديق خان أواخر سنواته مظلومًا مضطهدًا؛ إذ كان  
الصراع بينه وبين حاقديه قد بلغ أوجه، وكانت مقاومته لسلطة  
بريطانيا الاستعمارية في الهند قويّة، بسبب حركته الإصلاحية الواسعة  
الشاملة التي اتخذت خطوات جريئة هدّدت المصالح الإنجليزية في  
الهند، فلم يأل المستعمر في الكيد له، ونصب الأشرار بطريقه،  
وإبعاده عن مناصبه، ومصادرة نياشينه وألقابه وأمواله وضياعه،  
فبقي وحيدًا فقيرًا، وقد أُصيب بالاستسقاء في أواخر أيامه!  
ومن عجيب ما يذكره عنه المؤرخون لهذه الفترة أنه في أثناء  
اشتداد المرض كانت أنامله تتحرك كأنه مشغول بالكتابة<sup>(1)</sup>!

---

(1) نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر (ص 1245)، د. يوسف  
المرعشلي، ط دار المعرفة.



فسبحان الله العظيم الملهم هذه الهمم!

وصدق الشيخ علي بن عبد الله شارح البخاري رَحِمَهُ اللهُ إِذْ قال له -يوم لقيه أثناء رحلة الحج-: «وجود مثلكم في هذا الزمان من نعم الله تعالى، لو كانوا يعقلون»<sup>(1)</sup>.

توفي الإمام، العلامة، المحقق، محيي السنة وقامع البدعة، أبو الطيب، محمد صديق بن حسن بن علي بن لطف الله، القنوجي، البخاري، في سنة (1307هـ).

ومن بشارات الخير أنه ليلة وفاته فاضت على لسانه كلمة: أَحَبُّ لقاء الله، قالها مرة أو مرتين، وطلب الماء، واحتضر، وفاضت نفسه، وله من العمر تسع وخمسون سنة وثلاثة أشهر وستة أيام. وكانت وفاته وفاة عالم كبير، محدث جليل، مؤلف عبقرى، محيي الكتاب والسنة، داعية عظيم، إداري محنك، حاكم عادل، محب للخير، والصبر والإحسان، وحريص على الرفاهية والازدهار، والرخاء للإنسانية والبشرية جمعاء، فلم تكن وفاته خسارة لفردٍ دون فردٍ، وجماعة دون جماعة، وفئة دون فئة، بل كانت خسارة للأمة الإسلامية كلها.

---

(1) رحلة الصديق إلى البلد العتيق (ص162)، وصلاح الأمة في علو الهممة (271/6)، العفاني، ط مؤسسة الرسالة.



فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ

وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَانِ

رحم الله روحه الطاهرة، وأمطر عليه شآبيب رحمته ورضوانه،  
وأدخله فسيح جنانه<sup>(1)</sup>.

وفي النهاية، لا يسعنا إلا أن نردّد مع صاحب حلية البشر: إن  
مثله لا يكون في هذا الزمن، مع ما هو فيه من الامتحان، والكلام  
فيه بحر تيار وعباب زخار، وفيما ذكرنا كفاية لأولي الألباب، والله  
الموفق لإصابة الصواب<sup>(2)</sup>.



وبعد، فإن في حياة صديق خان، ذلكم الإمام المجتهد والمملك  
المصلح لعظمت وعبراً، أو لاها بالتأكيد أنّ من رزقه الله المنصب من  
أهل العلم كان الواجب عليه أن يعمل فيه بعلمه وألا ينسيه  
المنصب واجبات العلم، إن هناك علماء كانوا يتمنون أن لو قدروا  
على نفع أمتهم، وإسداء الخير إليها، والسعي إلى تيسير الطريق أمام

---

(1) مجلة المعهد العلمي الهندي (ص 125).

(2) حلية البشر (1/ 329).



الشرع الحنيف لتظهر كلمته، فلما تبوَّأوا المناصب وارتفعت درجاتهم، وكثرت -تبعاً لذلك- أموالهم؛ فتنوا بالمنصب والمال، ونسوا العلم الشريف الذي يحملونه، وظلّوا في غمرتهم تلك ساهين، فلما سحب منهم المنصب وذهب من أيديهم ندموا وتمنّوا أن لو كانوا قدموا للدين شيئاً، ولات ساعة مندم!

كم من عالم تمنّى أن يهيا له الموضع الذي تصل فيه كلمته إلى أذن السلطان، والموقف الذي يتهيا له أن يجهر فيه بكلمة الحق، والمكنة التي بها يستطيع أن ينفع بها الدين، فلما حانت هانت، وخانوا العلم والأمانة الملقاة على عاتقهم، وكانوا ظهيراً للمجرمين على المؤمنين! صاروا مشايخ السلطان وعلماء البهتان، وكتبوا الحق وتكلموا بضده وعملوا على صدّه، فلا هم نفَعوا بموعظتهم، ولا هم عملوا بمناصبهم ما ينفع في هذه السبيل.

فيا أخي -طالب العلم- إنك لا تدري ما يكون من أمرك مستقبلاً، ولا ما الذي يصير إليه غدك، فإن أقدرك الله يوماً ورفعك إلى منصب أو وظيفة تقدر بها على نفع العباد وإصلاح الأحوال، فلا تنس العلم وقوانينه وأحكامه؛ اجعل منه حاكماً على



المنصب، ولا تجعل العلم وسيلة إلى المنصب فمتى حصلت المنصب أهملته، فإن فعلت فإنك إذا من الخاسرين، وبئس المورد نفسك أوردت وأهلك! فهل تستبدل بالعبير بعراً وبالثريا ثرى وبالرحيق المختوم حريقاً محرّقاً مدمراً؟

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيَا

يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ

اِخْتَلَتْ لِلدُّنْيَا وَلَكَذَاتِهَا

بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالْمَدِينِ

وَصِرْتَ مَجْنُونًا بِهَا بَعْدَمَا

كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينِ

أَيْنَ رَوَايَاتِكَ فِيمَا مَضَى

عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيرِينَ

أَيْنَ رَوَايَاتِكَ فِي سَرْدِهَا

فِي تَرْكِ أَبْوَابِ السَّلَاطِينِ

إِنْ قُلْتَ أُكْرِهْتُ فَمَاذَا كَذَا

زَلَّ حِمَارُ الْعِلْمِ فِي الطُّيْنِ



إنَّ على العالم الذي تبوأ منصباً أن يحذر تمام الحذر ويراجع قلبه ونفسه كل ساعة ويسائلها: فيم كان ذلك؟ ولأجل أي غاية وهدف؛ وهل يليق بمن في مثل علمه أن يلعب به المنصبُ أو يلعب به من نصبوه إياه، كما يُفعل بالجهّال وطلاب الدنيا وشذاذ الخلق!

وهو الذي ينبغي أن يكون الله غايته، والجنة هدفه، والإصلاح وسيلته، وأجره على الله؛ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء من

الآية: 109]

**فيا طالب العلم!** تذكر، لا تكن من «الذين يهون عليهم العيش في السهول، وبين الحفر، ويستصعبون العيش في الجبال، والارتقاء إلى القمم العوالي»!

تصوّر كلماتك للناس أنَّ العلم عزُّ وجاه، بينما هم يرون فعالك وحالك ذلاً وصغاراً، فتهتزّ صورتك وتضيع هيبتك ويسقط كلامك، مهما كان منمّقا وجميلاً، وأسوأ من ذلك أن يعتقد البعض السوء في الدّين وأهله بسببك، فتكون من دعاة جهنّم؛ علماء السوء، الذين «جلسوا على باب الجنّة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعون إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت: أقوالهم للناس هلمّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوا إليه حقاً



كانوا أوّل المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق<sup>(1)</sup>.

### فيا طالب العلم!

احذر، والله حسبنا وحسيك في كل أمرٍ، وهو على كلّ شيء وكيل.



---

(1) الفوائد (1 / 61).





شاهجهان

ملكة تدير أمور الحكومة

من وراء حجاب ...

وتعلم العلم أيضا.





## شاهجهان ملكة تدير أمور الحكومة من وراء حجاب ... وتعلم العلم أيضاً.

هذه ملكة هندية أخرى في سماء السلطنة والعلم، إنَّها ملكة بهوبال التي عرفها زمانها ملكة ذات تاج، وعالمة صاحبة تصانيف، فكانت رَحِمَهَا اللَّهُ جامعة للفضائل الدينية والدنيوية، التي قلما تجتمع في رجل، فضلاً عن امرأة.

إنَّها الملكة «شاهجهان» بيكم بنت نوّاب «سكندر» بنت الملك جهانكير، وأمها نوّاب «قدسية» بيكم، سليلة الملك، فهي ملكة، بنت ملك، حفيدة ملك<sup>(1)</sup>.

ولدت «شاهجهان» بحصن «إسلام نكر» في مدينة بهوبال سنة (1254 هـ)، وكانت الابنة الكبرى لوالدها.

وقد توفي أبوها ولها من العمر (9) سنوات فقط، فورثت «شاهجهان» حكمَ مدينة بهوبال، ولما بلغت من العمر (22) سنة

---

(1) ينظر: هدية العارفين (1/ 415) إسماعيل باشا البغدادي، ط. المكتبة الإسلامية.



فَوَضَّتْ عَنانَ الرَّئَاسَةِ إِلَى أَمْهَا، وَاکْتَفَتْ لِنَفْسِهَا بُولَايَةَ الْعَهْدِ<sup>(1)</sup>.

ثم لما توفيت والدتها حكمت هي المدينة واعتلت كرسيَّ الملك، فسارت في رعيّتها سيرة حسنة؛ وكانت ملكة فاضلة كريمة؛ إذ يحفظ التاريخ أنها قامت بإصلاحات دينية، وسياسية، وعمرانية، واقتصادية كثيرة، فمن ذلك أنَّها عمَّرت نواحي المملكة، وأحيت المدارس العلمية، وبنّت المساجد العظيمة، وقررت الوظائف الفخمة، وحفرت الآبار، وغرست الحدائق والأشجار، وأحدثت العمائر الكبار، وأحيت السنن، وأمّات البدع، وقلعت أسباب الفجور والفسوق، وطهَّرت الديار عن أدناس الإِشْرَاق والمحدثات<sup>(2)</sup>.

فأدارت إمارة بهوبال إدارة صالحة وساستها سياسة رشيدة، فرتعت البلاد في بحبوحة من العدل والرفاهية<sup>(3)</sup>، وكان زمانها زمان سعادة، وأوان ترقّي العلوم، وموسم مسرة ورفعَة لبني

---

(1) أبجد العلوم (1/ 732)، أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي، دار ابن حزم.

(2) أقوم المسالك في أحوال الممالك (3/ 280)، خير الدين التونسي، ط. دار الكتاب اللبناني.

(3) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (2/ 283)، لعمر رضا كحالة المطبعة الهاشمية بدمشق، الطبعة الثانية، 1377هـ - 1958م.



عصرها ورعية مملكتها<sup>(1)</sup>.

ولا أدل على ذلك من أنها في مرض وغياب والدتها بمكة لأداء فريضة الحج؛ انصرفت إلى إنجاز جميع القضايا المتراكمة في السلطنة، وكان عددها (4086)<sup>(2)</sup>، واستطاعت بحكمتها وسياستها إنجازها جميعاً في هذه الفترة وكانت فترة قصيرة جداً.



حصّلت «شاهجهان بيكم» الفنون، وتعلّمت الخط، والكتابة، واللغة الفارسية، والإنشاء، والشعر، واستفادت أدب الرئاسة والسياسة حتى بزّت في ذلك الأقران، وامتازت بينهم بالقدرة على ترجمة القرآن، وتحرير الرسائل الدينية، وتقرير المسائل الدولية، وكان يضرب بها المثل في الذكاء والحفظ والكرم والجلود<sup>(3)</sup>.

وعرف عنها حبُّ العلم وإكرام أهلها، واهتمامُها بالجانب العلمي والفكري عظيم، ويظهر ذلك من أنها جمعت من نفائس

---

(1) أبجد العلوم (3/ 284 - 286).

(2) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (2/ 283).

(3) نثر الجواهر والدرر (ص 291).



الكتب - على اختلاف أنواعها وتباين علومها - ما يعظم قدره ويجلّ وصفه.

وأهدت الطلبة ألوفاً من المصاحف والكتب الدينية مجاًناً<sup>(1)</sup>.

وأنفقت على طبع المصحف، والتفسير، والحديث، واللغة، وغيرها من العلوم والفنون، وأسست المدارس العلمية وعمرتها، ومنها المدرسة الجهانكيرية على اسم أبيها، بدار ملكه.

ودعت العلماء من كلّ صوب وحذب للإشراف على هذه المدارس ورعاية مسيرتها وتوليّ التدريس بها.

وأنفقت على طلاب العلم - لا سيما المحتاجين - مالاً عظيماً.

فساهمت بدور عظيم في رفد الحركة العلمية في مدينة بهوبال خاصة، وبلاد الهند عامة.

كما أن الملكة «شاهجهان بيكم» كانت جوادة كريمة أيضاً على المستوى العام، فلم تحرم من نوالها وجودها إنساناً، وأوقفت أرزاقاً كثيرة على الفقراء، وقررت لهم رواتب من النقود والغلات، بل كانت تنفق على الحجاج، والغزاة، والمسافرين، والطلبة، والمساكين؛

---

(1) أبجد العلوم (ص 734).



أموالاً كثيرة، بل وتهدي الأقمشة وتبني البيوت<sup>(1)</sup>.

تزوجت الملكة العالمة «شاهجهان بيكم» مرتين؛ كان زوجها الأول هو نواب باقي محمد خان ولما مات تزوجت بالسيد العلامة صديق حسن خان القنوجي، وكان ذلك سنة (1288)<sup>(2)</sup>.



مهرت «شاهجهان بيكم» في علوم الشرع، وفي الأدب؛ فكتبت النثر، ونظمت الشعر، باللغتين؛ الفارسية والهندية، وجمع لها ديوان شعر، «ونظمها مضبوط في ديوان الشعر، وفي تذكرة الشعراء»<sup>(3)</sup> ولها كتب مشهورة، منها:

- تاج الإقبال في تاريخ بهوبال، بلسان أردو، في مجلد، مطبوع.

- كتاب «تهذيب النسوان»<sup>(4)</sup>.

- خزينة اللغات<sup>(5)</sup>.

(1) أبجد العلوم (ص 734).

(2) نفسه (ص 733).

(3) أبجد العلوم (ص 734).

(4) نزهة الخواطر (8/ 1245).

(5) هدية العارفين: 2/ 415، ينظر: إيضاح المكنون: (1/ 209)، إسماعيل

باشا البغدادي، ط. المكتبة الإسلامية.



وكانت من العابدات - كما يشهد بذلك زوجها العالم صديق حسن خان -<sup>(1)</sup>.

ومن شهادات المؤرخين فيها ما قاله ليل غفرن: إنها أميرة تدير أمور الحكومة من وراء حجاب لكنها تعلم كل صغيرة وكبيرة من أخبار البلاد، وهي بلا استثناء أقدر امرأة في الهند في عصرها، وبالحقيقة إنَّ مقدرتها الطبيعية تفوق مقدرة كثيرين من الأمراء الرجال الذين يحكمون اليوم، وهي سريعة الخاطر جداً حتى إنَّ من يخاطبها يجب أن يكون على جانب عظيم من الذكاء ليستطيع مجاراتها في الحديث<sup>(2)</sup>.



ماتت الملكة «شاهجهان بيكم» لليلتين بقيتا من صفر سنة (1319 هـ)، بدار ملكها، ببهوبال<sup>(3)</sup>.

وقد ترجم حياتها جمعٌ من المؤرخين والأدباء.



(1) أبجد العلوم (ص 734).

(2) ينظر: أعلام النساء (2/ 284).

(3) نزهة الخواطر (8/ 1245).



تجوت نجاك دين

**ملكة الجهاد**

**وملكة القرآن**



تأليف / أحمد الجوهري عبد الجواد





## تَجَوّتْ نَجَاكَ دِينَ مَلِكَةُ الْجِهَادِ وَمَلِكَةُ الْقُرْآنِ

في تاريخنا الإسلامي عظماء لا يحصون عدداً، ومن الواجب علينا أن نظهر هؤلاء السيدات والسادة للناس، عسى أن يكون في بروزهم تحفيز للأجيال الحاضرة لتحيي فيهم الاعتزاز بهذا الدين، فيصنعوا به حاضراً على غرار التاريخ الذي صنعه أولئك!

إننا أحوج ما نكون إلى استعادة ذلك التاريخ المشرق الماضي، بل العالم كله محتاج إليه والإنسانية كلها متعطشة إلى رؤية نماذجه من جديد، فهل يكون تحقيق غايته تلك عند أحق الناس بضرب النموذج والمثل عند أهل الإسلام؟

وفي هذا التاريخ الجليل مئات من العظيمات اللاتي يمثلن قدوة وأسوة لأجيال الأمة المسلمة إلى يوم الدين، وقد أسهمن في كلّ مجالات الحياة.

ومن بين المجالات التي أسهمت خلالها المرأة المسلمة بل ضربت فيها أعظم المثل وكانت للمسلمين رجالاً ونساء خير قدوة؛ مجال الجهاد في سبيل الله، لا يحسبن أحدٌ أنا نعني بمجاهدات

الصدر الأول فحسب؛ سمية بنت خياط وعائشة وصفية ونسيبة وأم حرام بنت ملحان وأختها أم سليم، وسواهن كآسماء بنت يزيد وليلي الغفارية وأم سليط وأم عطية والربيع بنت معوذ وغيرهن، ممن شارك مع النبي ﷺ في الجهاد؛ قتلاً للعدو بالسيف، ورصدًا لفارّهم، وتشجيعًا لجنود المسلمين على الصبر والثبات، إضافة إلى عملهنّ الرئيس في الحرب من سقي الجاهدين، ومداواة الجرحى، وحمل القتلى، وصنع الطعام للمقاتلين، وغيرها من الأعمال التي تثبت بطولاتهنّ وتشهد لهنّ بالصبر والمصابرة في هذا الميدان الجليل.

بل لم يخل عصر من عصور الأمة المسلمة من نساء عظيمات يحتزين حذو هؤلاء المجاهدات وهن موجودات في تاريخنا كله في طوله وعرضه، قديمه وحديثه، وبين أيدينا حديث عن عظمة فاضلة من هؤلاء المجاهدات العظيمات اللاتي كان لهن في مجاهدات الصحابيات أسوة طيبة وقدوة حسنة.

هل سمعتم عن «تجوت نجاك دين»؟

إنها سيدة جليلة من سيدات التاريخ الإسلامي العظيم .  
إنها ملكة «الجهاد» التي قاومت الاحتلال الهولندي في



إندونيسيا لسنين عديدة، مع والدها وزوجها الأول، ثم الثاني، وبعد استشهاد الجميع واصلت الجهاد طوال سنين.

كانت البرتغال أولى الدول التي احتلت إندونيسيا، وخرج أول أسطول هولندي إلى الهند سنة 1590م، وبلغ الجزائر الإندونيسية ثم عاد إلى هولندا، وكان هذا سبباً في تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية 1602م، التي أعلنت في بادئ الأمر أن غرضها ليس إلا التجارة، ولكنها ما لبثت أن أخذت تحتكر الغلات والمنتجات الزراعية، وتمتلك الأراضي مقابل دخل تدفعه الشركة للسلطين.

ولم يكن البرتغاليون والهولنديون وحدهم هم الذين حاولوا استعمار إندونيسيا، بل انضمت بريطانيا إليهم؛ فأقامت قلعة لها في (بان كولن) على الشاطئ الغربي لسومطرة في سنة 1714م وظلت هناك حتى سنة 1825م.

فسقطت إندونيسيا بذلك تحت حكم الشركة البريطانية للهند الشرقية في الفترة (1811 - 1816م) أثناء حرب نابليون التي تمكّن فيها من احتلال هولندا، ولكن بريطانيا وهولندا عقدتا معاهدة في لندن في 13 أغسطس سنة 1814م قضت بإعادة



المستعمرات إلى هولندا عام 1803م، وبذلك استردت هولندا  
الجزر الإندونيسية من بريطانيا.

وظلّت هولندا وحدها في إندونيسيا منذ مطلع القرن السادس  
عشر؛ حتى احتلتها القوات اليابانية في مارس 1942م بعد  
استسلام الجيش الهولندي أمام اليابان.

وقد عرف الاحتلال الهولندي في شعب إندونيسيا المسلم  
الإباء والعزة والكبرياء، فقد حارب الشعب لنيل حريته وبذل  
لأجل ذلك الغالي والنفيس، ليس الرجال فحسب، بل والنساء  
أيضاً، وكان من بين أولئك النساء الكريكات المجاهدات تلك  
السيدة «تجوت نجاك دين» وكانت ابنة ملك إحدى الجزر  
الإندونيسية وكان أبوها الملك يجاهد الاحتلال بشعبه وسقط في  
المعركة شهيداً وسقط معه زوج تاجاك الذي استشهد أيضاً، ولم  
تلبث تاجاك أن تزوجت أحد المجاهدين الذي سقط هو الآخر في  
أرض المعركة شهيداً.

وعلى طريق الشهداء مضت تاجاك -التي قعدت على عرش  
أبيها- فتولّت قيادة المجاهدين ونظمت العمليات الحربية ضد  
الاحتلال الهولندي بنفسها، سنين عديدة، حتى لقبت بملكة  
الجهاد!



\*\* وأيضًا هي «ملكة القرآن» التي علمت القرآن في المنفى حين استطاع الإنجليز القبض عليها بعدما كف بصرها وأقعدت عن الجهاد لكبر سنّها وإصابتها بمرض المفاصل، الأمرين اللذين لم يمنعاها أن تغرس خنجرًا في قلب أحد الجنود الذين أتوا للقبض عليها، فعلم الإنجليز أن روح الجهاد لم تشخ في جسدها الواهن، وخافوا من تأليبها الناس وشحنها عليهم، فنفوها إلى بلد ناء لا يعرف أهله لغتها ولا تعرف هي لغتهم، لكنها استطاعت أن تتواصل معهم بالقرآن وجاهدت فيهم بنوع آخر من الجهاد يليق بشيخوختها؛ إذ علمتهم الكتاب العزيز، وكانت ممن أنعم الله عليهنّ بكمال الحفظ وجمال القراءة، وكانت عالمة بالقرآن الكريم، وقد كان أهل القرية التي نفيت إليها يتسائلون متعجبين: كيف تكون امرأة كبيرة بالعمر وعمياء منفيّة لأسباب سياسية؟ فحاولوا التحدث معها، وتوصلوا إلى حقيقتها، وعينوها مدرّسة للقرآن الكريم، ولقبوها بلقب (أبو بربو) يعني ملكة القرآن<sup>(1)</sup>.



---

(1) انظر: نساء عظيمات من العالم الاسلامي (ص 25) تأليف ناتالي ما يدل، ترجمة غادة محمد محمود، دار الشروق.



توفيت «تجوت نجاك دين» في عام 1908م، أي قبل أن تحصل إندونيسيا على استقلالها بـ (37) سنة فقط؛ إذ نالت إندونيسيا استقلالها عام 1945م، وكان تحقيق هذا الاستقلال على يد «حركة المجاهدين» بقيادة أحمد سوكارنو، ومحمد حتا، والزعيم سوتان شهرير، والذين عملوا جاهدين حتى نالت إندونيسيا استقلالها، وكانت «تجوت نجاك دين» بذلك حلقة في سلسلة هذه الحركة التي نالت إندونيسيا استقلالها بسبب جهادها.

ولم يكن أحد يعلم حقيقة من سموها (آبو بربو) حتى عام 1960م حين اكتشفت الحكومة الإندونيسية معلومات من الحكومة الهولندية.

وعرفوا أن ملكة القرآن كانت أيضًا ملكة الجهاد.

هذه الملكة تذكرنا بأجادنا الأولى، والتي لم تنقطع على مرّ الدهر، إنها تعيد إلى الأذهان سيرة من ذكرنا من المجاهدات الأوائل مع رسول الله ﷺ!

إنها تعيد على أذهاننا سيرة خولة بنت الأزور الأسدية، المجاهدة المسلمة التي ذكر الواقدي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه فتوح الشام



شيئاً عظيماً عن جهادها، من ذلك أنها كانت تتنكر في زي فارس، وتحارب إلى جانب الصحابي الجليل خالد بن الوليد.

وتذكر الأجيال بالحنساء المجاهدة التي لم تكتف بتقديم نفسها للشهادة بل أخذت معها بنيتها الأربعة ولما استشهدوا جميعاً في حرب القادسية، وبلغها الخبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع الجيش العائد محملاً بالظفر، قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته»، قالتها ولم تزد عليها.

وتذكر بأم البنين بنت عبد العزيز أخت الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز والتي كانت تحمل على فرس تجاهد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ!

وأقرب الناس شبهاً بها الملكة ترکان خاتون، بنت طغرلج، تلك الملكة الجلالية صاحبة أصبهان، التي قادت جيش المسلمين يوماً، وهي زوجة السلطان ملكشاه، وكانت سيدة جليلة من ربات العقل والرأي والدين والصلاح والنفوذ والسلطان، وقد شاركت زوجها في الملك، وبعد وفاته دبرت الأمور فاتخذت المستشارين والوزراء، وقادت الجيوش، وحفظت أموال التجار، وأثرت تأثيراً عظيماً في بلاد فارس، فأصلحت كثيراً من عادات البلاد وأخلاق



أهلها، وبذلت لهم العطايا والإقطاعات، فأحبها الأمراء والرعية، وهي التي صاهرت الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله حيث تزوج بابتنتها، مات رَحِمَهَا اللهُ سنة (487هـ)<sup>(1)</sup>.

وأخيرًا -وليس آخرًا- يذكرنا جهاد الملكة «تاجاك» بجهاد السيدة العظيمة فاطمة سيد أحمد (لاله نسومر) تلك المجاهدة الجزائرية التي أرعبت الفرنسيين وأذاقتهم مرَّ العذاب، وسطرت أعظم الآيات في الجهاد في سبيل الله ضد الاحتلال لسنوات طويلة رغم أنها توفيت وعمرها لا يتجاوز (33) سنة!

وكم وكم يحفل تاريخنا بالنساء العظيمات، فهلا عرف المسلمون عظماءهم؟

وهلا عرف النساء المسلمات قدواتهنَّ في التاريخ فيعتزرن ويفتخرن بهنَّ ويتخذنهنَّ قدوات وأسوات؟



---

(1) انظر في سيرتها: أعلام النساء (1/ 169).



# عبر وعظالت مجتمة





## عبر وعظات مجتمعة

وفي نهاية هذه الرحلة الماتعة أشير إلى بعض العظات في حياة هذه الثلّة الكريمة يشترك فيها أفرادها جميعاً، فها هم قد مضوا وما زلنا نذكرهم ونذكر آثارهم، وما ذلك إلا لقيمة حياتهم ولأياديهم الجميلة علينا، ودور كل قارئ أن يسأل نفسه: وأنا ما هي قيمة حياتي؟ ومتى أبني مشروعِي؟ سأموت؛ فبم سيذكرني الصالحون بعد موتِي؟

\* إنه لحقيق بمن كان لديه اعتزاز بماضيه أن يكون له هو عمل في حاضره يعتر اليوم به، ويفخر من يأتون بعده به أيضاً، وها نحن أولاء قد تحدثنا عن عظام لنا مضوا، بنوا مجداً مؤثلاً، أفليست لنا فيهم أسوة؟ فهل من مشمّر؟ إنّ الحاضر ينادينا لنقوم به كما قام أماجدا بحاضرهم!

\* إننا في كل مرة ذكرنا فيها مولد ماجدٍ من هؤلاء الأماجد كنّا على يقين من إتيان ذكر وفاته، مهما طالت الصفحات، ولك أن تتخيل كم استغرقت أطول سيرة فيها؟ بضع دقائق!



ولو أفردنا سيرته بكتاب ذي مجلدات، فهل تأخذ قراءته منّا ساعة؟ هبه أخذ منا يوماً أو بضعة أيام، هذه حياة إنسان!

\* ومن اللافت للنظر أننا في كلّ مرة لم نكتب خلال سيرة حياة عالم منهم: أكل وشرب كذا، أو اضطجع ونام، وما سوى ذلك من الأمور التي تشغل الإنسان في يومه، فإذا مضى ذلك اليوم عدّها شيئاً تافهاً؛ إذ يستوى فيها من طعم اللحم والخلّ!

ولله در الإمام أحمد إذ ردّ عطية الخليفة المتوكل على الله، وكانت شيئاً كثيراً، فلما عاتبه ولده في ذلك وذكره بشدة حالهم سكت، حتى إذا مرّت سنة دعاه فسأله: أي بني! أرايت إلى ذلك الذي رددناه على المتوكل، لو كنا أبقيناه، أفكان يبقى شيء منه اليوم عندنا؟ فقال ابنه: لا، قال: فهل جعنا حتى لم نجد ما نأكله؟ قال: لا، قال: أفعطشنا فلم نجد ما نشربه؟ أفرعينا فلم نجد ما نكتسي به؟ وأسئلة نحو هذه، وابنه يجيب عليه فيها جميعاً بقوله: لا، والحمد لله، ثم قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: هكذا الدنيا! تأتي وتذهب، يا بني! إنما هو طعام دون طعام، وشراب دون شراب، ولباس دون لباس، وإنما هي أيام قلائل فهي عشرون سنة، ثلاثون سنة، مائة سنة، إنما هي أيام قلائل، نتبلغ بها حتى نلقى الله تعالى!



وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى  
بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغةً،  
ثم يقال: يا بن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟  
فيقول: لا والله يا رب!

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ  
صبغةً في الجنة، فيقال له: يا بن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر  
بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة  
قط»<sup>(1)</sup>.

فأجدر بالمؤمن أن يحتاط لدينه، وإن مسه من الشقاء في الدنيا  
ما مسه.

\* والعظات في حياة هؤلاء العظماء غير ذلك كثيرة، ولا يخفى  
على اللبيب إدراكها، وإنما هذه إشارات، أسأل الله أن ينفعني وإياك  
-أخي الكريم- بها.



---

(1) أخرجه مسلم (2807).





لذّة العلم





## لَذَّةُ الْعِلْمِ

وفي النهاية: ثمة سؤال يطلب جوابًا؛ ما الذي جعل هؤلاء  
النفر الكرام يغلبون لذة العلم على سائر الملذات؟

إنّ فيهم الملوك، ومعلوم أنّ شهوة الملك إنّما هي في الحكم  
والترأس والتوسع، لا في الاطلاع على المعارف والعلوم وجمع  
الكتب والدفاتر!

وفيهم الوزراء، ومعروف أنّ شهوة الوزراء هي في التجويد  
والإتقان لما يناط بهم من أعمال؛ كي ينالوا بذلك رضا السلطان،  
فيرقوا في درجاتهم، أو يشبتوا -على أقلّ تقدير- في أماكنهم،  
وليست شهوتهم في التوفر على المطالعة والسهر للمذاكرة!

وفيهم التجّار، ومعلوم أنّ شهوة التاجر هي في الكسب  
والتربّح وتثمين المال وتوسعة التجارة، لا في ثني الركب بين يدي  
الشيخ وملء الكيس بالكتب والكراريس للدرس والتدوين!

هذه شهواتهم وملذاتهم، لا تلك!

فما الذي حوّلهم وغيرهم، حتى تركوا ما شأنه أن يشغلهم



ويلذّهم وعليه يحسدّهم الناس ويغبطونهم، إلى ما يُظنّ أنه ليس كذلك؟

### والجواب:

إنه العلم، الذي تفوق لذّته كلّ لذّة، أدركها هؤلاء الرؤساء فزاحموا العلماء عليها ونازعوهم فيها، ولو لم يظفروا بها إلا عن طريق المجالدة بالسيوف لفعلوا!

وهذا الوزير ابن العميد يحدثك عن بعض ذلك فيقول: ما كنت أظن أنّ في الدنيا حلاوة ألدّ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة سليمان بن أحمد الطبراني، وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هات، فقال: حدثنا أبو خليفة الجمحي، حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بحديث.

**فقال الطبراني:** أنا سليمان بن أيوب، ومنى سمعه أبو خليفة، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك، فخجل الجعابي.



يقول ابن العميد: فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت أنا الطبراني، في هذا الموقف، وفرحت كفرحه<sup>(1)</sup>.

وصدق ابن العميد، فهذه هي السعادة، وبمثل هذا يكون الفرح!

**ولله درّ ابن القيم إذ يقول:** «السعادة الحقيقية الروحية النفسية هي سعادة العلم، فهي الباقية على قلب الأحوال، في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقى معارج الفضل، ودرجات الكمال، ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة، وعظم قدرها، لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّت بِحِجَابٍ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَحُجِبُوا عَنْهَا بِأَسْوَارٍ مِنَ الْجَهْلِ؛ لِيَخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ<sup>(2)</sup>.

سَهْرِي لِتَنْقِيحِ الْعُلُومِ أَلَذُّ لِي

مِنْ وَضَلِ غَانِيَةً وَطَيْبَ عِنَاقٍ  
وَصَرِيرُ أَفْلاَمِي عَلَى صَفَحَاتِهَا

أَحْلَى مِنَ الدَّوْكَاءِ وَالْعُشَاقِ

(1) السير (16 / 124).

(2) مفتاح دار السعادة (1 / 107)، ابن القيم، ط. مكتبة الفاروق الحديثة.



وَأَلْذُّ مِنْ نَقْرِ الْفَتَاةِ لِذُفِّهَا  
نَقْرِي لِأُلْقِي الرَّمْلَ عَنْ أَوْرَاقِي  
وَتَمَائِلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَوِيصَةٍ  
فِي الدَّرْسِ أَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِي  
وَأَيِّتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيئُهُ  
نَوْمًا وَتَبْغِي بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقِي؟<sup>(1)</sup>



إنه العلم؛ الملك الحقيقي، الباقي بعد زوال ملك كل إنسان،  
والسلطان الحقيقي، الواسع العميق!  
إنه يمتد في سעתه حتى يشمل الزمان كله والمكان كله، فيدين  
له العرب والعجم والأحمر والأسود، في غابر الزمان وحاضره  
ومستقبله.  
ويمتد في عمقه؛ ليشمل حكمه الظواهر والبواطن، الجوارح  
والفؤاد، على سواء!

---

(1) هذه أبيات الزمخشري، ونسبت خطأ إلى الشافعي؛ وضعها في ديوانه من  
جمعه، انظر الديوان: (ص 74)، وحوّلها لتحقيق، تجده إن شاء الله في كتابي:  
«مقولات ذائعة نسبت لغير أصحابها».



فَفَزَّ بِعِلْمٍ تَعَشَّ حَيًّا بِهِ أَبَدًا

النَّاسِ مَوْتِي وَأَهْلَ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ



إنه العلم الذي ينقاد النَّاسُ له حبًّا لا كرهًا، وطوعًا لا غصبًا،  
ويذكر النَّاسُ أصحابه فيشنون عليهم سرًّا وجهرًا، ويدينون لله  
بحبهم والقرب منهم، حتى إنَّهم يكثرون ذكرهم أكثر مما يذكرون  
آباءهم وأمهاتهم، ويفدّونهم بالآباء والأمهات بل بالبنين والبنات!  
وخذ لهذا بعض أمثلة وراءها أُلوف مثلها؛ قال عبد الرحمن  
بن مهدي: ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي رَحِمَهُ اللهُ فيها<sup>(1)</sup>.

وقال أحمد بن حنبل: إني لأدعو لمحمد بن إدريس -يعني  
الشافعي- في صلاتي منذ أربعين سنة، فما كان فيهم -يعني  
الفقهاء- أتبع لحديث رسول الله ﷺ منه<sup>(2)</sup>.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: «أي رجل كان  
الشافعي، فأني أسمعك تكثر من الدعاء له؟»، فقال لي: «يا بني،

(1) طبقات الشافعيين، فصل في ذكر فضائله وثناء الأئمة عليه، رَحِمَهُ اللهُ أجمعين.

(2) منازل الأئمة الأربعة (ص 221).



كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو منهما عوض؟<sup>(1)</sup>.

وهذا أبو حنيفة يقول: «ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حمّاد؛ إجلالاً له، وكان بين داري وداره سبع سكك، وما صليت صلاةً منذ مات حمّاد إلا استغفرت له مع والديّ، وإنّي لأستغفر لمن تعلّمت منه أو علّمني علماً».

ويأتي أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة ليقول لنا: «إنّي لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويّ».



إنّ العلم، الذي أدركت حقيقة سلطانه على النفوس أمّ ولد هارون الرشيد، وقد أشرفت يوماً من نافذة القصر على موكب الإمام عبد الله بن المبارك، وقد انجفل الناس إليه من كل صوب وجاءوه من كلّ حذب ينسلون، فقالت قولتها الذائعة الشهيرة: «هذا والله الملك، لا ملك هارون»!

ولنعط السمع لأشعث بن شعبة المصيبي، يحكي لنا الموقف

(1) منازل الأئمة الأربعة (ص 222).



بحذافيره، يقول أشعث: قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة،  
وقدم وقتئذ عبد الله بن المبارك، فانجفل الناس خلف عبد الله بن  
المبارك، حتى تقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد  
لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قالت:  
ما هَذَا؟ قَالُوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة، يقال لَهُ: عبد الله  
بن المبارك، فقالت: هَذَا وَاللَّهِ الْمَلِكُ لَا مَلِكَ هَارُونَ الَّذِي لَا يَجْمَعُ  
لَهُ النَّاسُ إِلَّا بِشَرِّ وَأَعْوَانٍ<sup>(1)</sup>.



إنه العلم ولذته التي تفوق كل لذة، ولا ينبئك مثل خبير،  
فاسمع إلى هؤلاء النفر الكرام يصفون لك بعض ذلك، على أني  
أصدقك القول بأنهم مهما اجتهدوا في إخبارك عنها فلن ينقلوا لك  
الحقيقة كما هي، بل يبقى الأمر كما قيل: ليس من ذاق كمن عرف،  
وليس المخبر كالمعاين، ولكن اسمع، فما لا يدرك كله لا يترك قلبه،  
ولعلك تتشوق!

ينبيك عنها أعلمُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ بالحلال والحرام؛ مُعَاذِ بْنِ  
جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذْ بَكَى عِنْدَ مَوْتِهِ لِفَقْدِ هَذِهِ اللَّذَّةِ، وَقَالَ: إِنَّمَا أَبْكِي

(1) تاريخ بغداد (10/ 156)، ووفيات الأعيان (3/ 33).



على ظمأ الهواجر، وقيام ليل الشتاء، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر<sup>(1)</sup>.

وينبئك بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطَّيِّب: أَصْرُ ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجُّه والذِّكْر، فقال: أَلَسْتُ تزعمون أن النَّفْس إذا قَوِيَتْ وفَرِحَتْ أوجب فَرَحُها لها قُوَّةٌ تُعين بها الطَّبيعة على دَفْعِ العارض؛ فإنه عدُوُّها، فإذا قَوِيَتْ عليه قهرته؟ فقال الطَّيِّب: بلى!

**فقال:** إذا اشتغلت نفسي بالتَّوجُّه والذِّكْر والكلام في العلم، وظفرت بما يُشكِّل عليها منه، فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دَفْعَ العارض!<sup>(2)</sup>

وهذا ابنُ الجوزي لما نال لذة طلب العلم، وذاق حلاوته، سطر ذلك بِقلمه، فاسمع إليه يقول: ولقد كنتُ في حلاوة طلب العلم أَلْقَى من الشَّدائد ما هو أحلى عندي من العسل في سبيل ما أطلبُ وأرجو!

(1) رواه الإمام أحمد في الزُّهد ص (181).

(2) مفتاح دار السعادة (2/ 250).



وكنْتُ في زمن الصُّبَا أَخْذُ مَعِيَ أَرْغَفَةً يَابِسَةً، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ فِي  
طَلَبِ الْحَدِيثِ، وَأَقْعَدَ عَلَى نَهْرِ عَيْسَى، ثُمَّ أَكَلَ هَذَا الرَّغِيفَ،  
وَأَشْرَبَ الْمَاءَ، فَكُلَّمَا أَكَلْتُ لَقْمَةً شَرِبْتُ عَلَيْهَا، وَعَيْنَ هِمَّتِي لَا تَرَى  
إِلَّا لَذَّةَ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ <sup>(1)</sup>.  
اللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي

وَأَنَالَ بِالْإِنْعَامِ مَا فِي نَيْتِي

لِي هِمَّةٌ فِي الْعِلْمِ مَا مِنْ مِثْلِهَا

وَهِيَ الَّتِي جَنَتِ النَّحُولَ هِيَ الَّتِي

كَمْ كَانَ لِي مِنْ مَجْلِسٍ لَوْ شَبَّهْتُ

أَجْوَاؤُهُ لَتَشَبَّهْتُ بِالْجَنَّةِ <sup>(2)</sup>



إِنَّ لِلْعِلْمِ لَذَّةً لَا تَوَازِيهَا لَذَّةُ فِي الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا؛ فِي طَلَبِهِ وَمَعَانَاتِهِ،  
وَفِي حِفْظِهِ وَمُطَالَعَتِهِ، وَفِي مَدَارَسَتِهِ وَمَذَاكِرَتِهِ، وَفِي تَأْلِيفِهِ وَتَصْنِيفِهِ،  
وَفِي الْأَنْسِ بِكُتُبِهِ وَقَضَاءِ الْوَقْتِ بَيْنَ دِفَاتِهَا، وَبَعْضُ هَذَا يَهْتَزُّ لَهُ الْقَلْبُ  
طَرَبًا، وَالنَّفْسُ فَرَحًا، وَالرُّوحُ سَعَادَةً، فَكَيْفَ بِجَمِيعِهِ؟

(1) صيد الخاطر، ص (177).

(2) السير (21 / 379).



إذا اعتللتُ فكتبُ العلمَ تشفيني

فيها نزاهةُ الحاظي وتزيني

إذا اشتكيتُ إليها همَّ من حزنٍ

مالتُ إليَّ تُعزِّيني وتُسليني

حسبي الدفاترُ من دُنيا قنعتُ بها

لا أبتغي بدلاً منها ومن ديني<sup>(1)</sup>

أفصح - بعد هذا - أن يسأل لم أثر الملوك وأصحاب الأموال  
العلم على جميع الملذات؟

إنَّ السؤال هو العجب؛ فالفائدة الواحدة عند المحب للعلم  
خير من الدنيا وما فيها، ولخلوة مع كتاب تفسير، أو حديث أحسن  
من مناصب الدنيا جميعاً!

ولله درّ ابن الجوزي إذ يلخص ذلك كله بقوله: والله ما أعرف  
من عاش رفيعَ القدرِ بالغاً من اللذات ما لم يبلغْ غيره، إلاّ العلماء  
المُخلصين؛ كالحسن وسفيان، والعُباد المُحقّقين كمعروف؛ فإنّ لذة  
العلم تزيد على كلّ لذة، وأمّا ضرُّهم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى، فإنّ

(1) الكتاب في الحضارة الإسلامية، (ص 13، 12)، تأليف د. يحيى وهيب  
الجبوري، ط. دار الغرب الإسلامي.



ذلك يَزِيدُ في رِفْعَتِهِمْ، وكذلك لذة الخلوة والتعبُّد»<sup>(1)</sup>.

ويقرر أن من حصل لذة العلم لم يفتته شيء من لذات الدنيا، فيقول: فأما من أنفق عصر الشباب في العلم فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جنى ما غرس، ويلتذ بتصنيف ما جمع، وما يرى ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم.<sup>(2)</sup>

وغير خاف - قبل هذا كله - ما ورد به القرآن والسنة عن العلماء؛ ما لهم من الفضل والشرف والمنزلة الرفيعة العالية، ما يطمع كل أحد - الملوك وغيرهم - أن يحصله ويفوز به.

وهذا - جميعه - هو الذي حدا بهؤلاء النفر من الملوك والوزراء وذوي المناصب والثروات أن يزاحموا على مجالس العلم بالركب والأكتاف، فسلام عليهم، بما فهموا وعقلوا، في الحياة وفي الممات.



(1) صيد الخاطر (ص 219).

(2) صيد الخاطر (ص 165).

خاتمة  
نفثة مصدور  
عن منزلة العلم اليوم بين المسلمين

هكذا، لا يُعرف -مثل الإسلام- دينٌ جاء بنبذ الجهل ومُعاداته والتفكير منه، والدعوة إلى العلم وموالاته والترغيب فيه، وقد وصل الإسلام في ذلك إلى حدٍّ أن أوجب على أبنائه جميعًا طلب العلم.

وهم في ذلك أمام منظار الشرع العظيم فريقان: أما المُتخصِّصون فلا يسعهم إلا التبحُّر في العلم، ومعرفة تفاصيله وتفاريعه، والاجتهاد في تحصيل دقيق شوارده، وتقيد عزيز مسأله. وهؤلاء عليهم أن يبذلوا وسعهم وطاقاتهم بجِد واجتهاد.

وحقُّ على الأمة أن تعمل على إيجادهم، ثم إعانتهم، ويلزمها تهيئة السبل التي تيسِّر لهم القيام بمهمتهم، وهذا النوع من الطلب فرض كفاية، تقوم به عن الأمة فرقةٌ منها، نيابةً ووكالةً، بشرط أن يكفوها هذا الجانب، فلا تحتاج فيه بعدهم إلى أحد.



والفريق الآخر «غير المتخصّصين»، وهم عموم المسلمين؛ فهؤلاء أوجب الإسلام عليهم طلب العلم؛ بمعنى أن يلمّوا بجملة منه تكفيهم في تأسيس عقيدتهم، وتأدية عبادتهم، وتزكية نفوسهم، وتجميل أخلاقهم وسلوكهم على الوجه الذي يُرضي الله ويرضى به عنهم.

ويعبّر العلماء عن هذه الجملة من العلم بعبارة: ما لا يسع المسلم جهله، أو ما يجب على المسلم علمه، وهذا النوع من الطلب فرض عينٍ على كل مسلم ومسلمة، لا يُغني فيه قيام فردٍ من أفراد الأمة عن غيره، ولا يسد فيه أحد منهم مسدّ سواه؛ فلاجل أن يصح عمل المسلم، لا بدّ أن يكون مبنياً على علم، فإنّ مَنْ عمل بغير علم. كان ما يفسده أكثر مما يُصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق<sup>(1)</sup>.

بل إن العمل على علم يجبر قليل العمل، ولا يوزن به كثير عمل على غير علم.

وقد غاب هذا المعنى اليوم عن حسّ جماهير المسلمين، إذ

---

(1) السير (4 / 583).



فرّطوا في إعداد العلماء المجتهدين، وفرّطوا في تعلّم ما يصلح به أمر دينهم ودنياهم.

فلا تجد في المسلمين اليوم العمل على إعداد الجيل الوريث الذي سيحمل الأمانة عن جيل العلماء القائل، ويحلّ مكانه غداً، ولا تجد جماهير المسلمين يتعلمون ما أوجب الله عليهم علمه؛ ليقيموا به دينهم!

أين جماهير المسلمين اليوم من العلم بالإسلام على النحو الذي جاء به القرآن والسنة؟

ما مصدر ثقافتهم؟ وما منبع معارفهم؟ وما قيمة ما يعتقدون أمام ما ينبغي على وجه الحق أن يعتقدوا؟ وما شبه عباداتهم بالعبادة التي شرع الله ويبيّن رسوله؟ وما ميزان أخلاقهم إلى أخلاق الإسلام التي أرادها وطالب بها؟

هل يهتم منهم أحد يُقدم على عمل من الأعمال؛ بيع أو شراء أو نكاح أو طلاق أو رهن أو سباق أو وكالة أو حوالة... إلخ أن يتعلم أحكام الإسلام فيه؟ أم هو يسير في ذلك على ما مضى عليه العرف وجرت به الأوضاع، دونما نظر إلى ما جاء به الإسلام؟



ذلك في جانب المعاملات.

### بل قبل ذلك:

هل اعتنى المصلي قبل أن يُصلي أن يتعلم الصلاة التي شرع الله، وعلى الصفة التي صلى بها رسول الله ﷺ؟ أم اكتفى أن يفعل -حين أراد الصلاة- كما يفعل المُصلُّون؟

وحين وجب عليه الصيام، وحين وجبت عليه الزكاة، وحين وجب عليه الحج؟ إلى آخر العبادات التي يؤدِّي المسلمون شكلها وظاهرها، وتنبو عنهم حقيقتها وجوهرها.

مع أن «كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد؛ يجب عليه معرفة علمها، مثل: علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحج إن وجب عليه»<sup>(1)</sup>.

وهذا -أيضاً- في جانب العبادات.

**بل قبل ذلك حين نشئنا:** هل علّمنا العقيدة الصحيحة النقية الصافية؟ ورَبَّينا التربية السليمة الزاكية؟ أو حكمنا العادات -سليمةً أو خاطئة- فحكمناها، ونشأنا عليها فنشأنا، وتربينا على

(1) تفسير البغوي (4 / 113).



التقاليد - شرعية أو جاهلية - فربّتنا؟

**الحقيقة،** إن الجواب تغص به الحلو، ولكن ما منه بدُّ، قبل أن يسدّها فتختنق الروح وتخرج، وهو صراحة: لا، بل ألف ألف لا.

وهو جواب مرّ، نعم، ولكن أمرٌ منه وآلم أن نتغافل عن رصد الداء وأسبابه، وتشخيص الدواء ووصفه، ولا شكَّ أن ذلك لا يقضى بكلمات عابرة، بل يحتاج إلى دراسات تعالج هذا الوضع المتردّي.

ولعل فيما مضى من كلمات إضاءة في هذا الطريق!

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.





## فهرس المحتويات

\*\*\*\*\*

الصفحة	الموضوع
5	تمهيد
11	مقدمة
17	حاكم مصر وشيخ الإسلام
39	كبير التجار وسيد العلماء
58	رأس الأثرياء وياقوتة العلماء
79	التاجر الثريّ والعالم الميّّ
105	رأس الخلفاء والفقهاء المصنّف
123	الوزير الأكمل والإمام الحافظ
135	الوزير الذي جدّد الإسلام في القرن الخامس
163	أمثُلُ وزراء الإسلام
191	الملك العالم الذي شغف بالكتب حبّاً
205	عاشق الكتب.. أهدها الناس الكتب تهنئة بالوزارة
223	إمام فقد ماله لكنه لم يفقد علمه



- 233 أغنى رجل في العالم.. كان يرتحل بالذهب ويعود بكنوز الكتب
- 249 الأستاذة الأولى للفقہ وأصوله
- 259 سلطان على نهج الراشدين
- 287 أول مفسرة للقرآن كاملاً في تاريخ الإسلام ملكة هندية
- 305 العالمة المتفننة وزيرة الصدق وأم السلاطين
- 317 الخليفة العالم مجدد الدين في القرن الثالث عشر
- 337 بدر الأقطار الهندية .. ملكاً وعلماً
- 365 ملكة تدير أمور الحكومة من وراء حجاب وتعلم العلم أيضاً
- 373 ملكة الجهاد وملكة القرآن
- 383 عبر وعظات مجتمعة
- 389 لذّة العلم
- 400 خاتمة: نفثة مصدر عن منزلة العلم اليوم بين المسلمين
- 406 فهرس المحتويات